اَللآلِئُ الزُّمُرُّدِيَّةُ

نَحْوَ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ

ترجمة كتاب(Kalbin Zümrüt Tepeleri-1) عن التركية





دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة: ١٤٣١-٢٠١٠

ISBN: 978-975-315-346-1

DAR AL-NILE

Kısıklı Mah. Meltem Sok. No: 5

34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185314

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

اَلتِّلَالُ الزُّمُرُّدِيَّةُ

نَحْوَ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ

مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ كُولَنْ

اَلْمُتَرْجِمُ

إحسان قاسم الصّالحي



إلى والدتي رمز وجودي

السيدة الفاضلة رفيعة كولن الموقرة

(المؤلف)

تقديم

هذا كتاب يرسم فيه مؤلفه - فضيلة الشيخ فتح الله كولن - طريق ارتقاء القلب الإنساني في معارج المعرفة الإلهية التي هي أرقى معارف الإنسان قاطبةً، وكُلُّ معرفة دونها مدينةٌ لها، وظلٌّ من ظلالها، وأثرٌ من آثارها. وقد استعان الشيخ في رسم معالم هذه الطريق بتجاربه الذاتية، وبتجارب جمهرة من فضلاء مَنْ سلك هذه الطريق نفسها من عظماء الصوفية الملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

والتصوف — على الرغم من كونه تجارب نفوس في طريق التزكية، ومعاناة أرواح يضنيها الشوق إلى الله، تختلف من متصوف إلى آخر — غير أَنَّ مجموع هذه التجارب والخبرات المتراكمة والتي تناقلها الصوفية بعضهم عن بعض عبرَ قرون متتالية تحولت إلى علم له أصوله وقواعده ومصطلحاته. مثلما أن لكل علم له أصوله وقوعده ومصطلحاته وتجاربه.

وقد وقف الشيخ عند هذه المصطلحات، وشرح مدلولاتها اللغوية، ومعانيها الإصطلاحية، ومفاهيمها عند أرباب التصوف أنفسهم. ومن خلال هذه المنهجية استطاع أن يجعل القارئ في الصورة الحقيقية للتصوف كما هي دون أي التباس قد يؤدي إلى عدم إدراك مراميه وفهم مقاصده الإصطلاحية التزكوية.

والكتاب بعد ذلك يمكن أن نعدّه نوعاً من أنواع الدراسة للقلب الإنساني في أحواله ومقاماته وسيره وسلوكه إلى الله تعالى، كما أنه في الوقت نفسه

دعوة لأرباب القلوب لكي يفيدوا مِمّا يقوم عليه هذا السلوك من خُلُقٍ وأدبٍ، وأذواق وأشواق، في رؤية قرآنية وسنَّة نبوية لا تحيد عنهما. ويمكننا متابعة الاستاذ المؤلف في رؤياه للتطور الروحي للسالك، حيث تبدأ أولى خطوات السلوك عنده بمعرفة النفس التي بين جنبيه، وتجلية جوهرها الإلهي. فالنفس آية من آيات الله تعالى لذلك أقسم بها بنص القرآن، فَفَهْمُهَا وإدراكُ ما تنطوي عليه من لطائفَ وأبعاد غيبية وشهودية دليل على أن السالك قد خطى الخطوة الأولى في طريق السلوك.

وتأتي الخطى بعدها متتاليات مترادفات؛ من تخلية وتحلية وتزكية، أو إنْ شئتَ قلتَ؛ من إسلام وإيمان وإحسان، وإنْ شئتَ قلتَ؛ هو علم اليقين، عين اليقين، وحق اليقين، أو إنْ شئتَ قلتَ؛ هو استغراق بالكلية في حب الله، وهيام به، وعشق قد يبلغ بصاحبه أحياناً حد الشده.

كُلُّ هذه الأحوال والمقامات، واردات وفيوضات تتنزل على قلب المريد، فتنقله من حال إلى حال، ومن قبض إلى بسط، ومن قهر الجلال إلى باحة الجمال، ومن فرح بالوارد الموجود إلى حزن على المفقود منه، ومن خوف من الإعراض إلى إطمئنان بالإقبال، وهكذا تظلُّ تتقلب النفس في هذه الأحوال والمقامات حتى تبلغ في خاتمة المطاف إلى مقام "الرضى" وعندئذ تكون هي المعنية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر؛ ٢٧-٣٠).

وفضيلة الشيخ بكيانه كله، وبوجوده بأجمعه، روح عظيم فياض بالمعارف الإلهية، لقد ذهب بعيداً وبعيداً جدّاً في ارتقاءاته الروحية، إلاَّ أنه لم يَنْسَ لحظةً واحدةً أنه صاحب قلم مسؤول عن إيمان أمة، وعن حياتها الروحية والحضارية، فما ابتعد إلاّ اقترب، وما غاب إلاّ حضر، وما ارتقى

إلاّ ليرتقي بأمته، وما عرفَ إلاّ ليعرّف أمتَه، فهو دائم الرواح بين الله تعالى وبين خلقه، بين سمائه وأرضه، بين عروج وهبوط، وهبوط وعروج، لكنه مع الأمة دوماً في أوجاعها ومعاناتها.

لقد قرأ لعمالقة التصوف الكبار، من عرب وفرس وترك، وكان له من وجدانه الشاعري، وحِسّهِ المرهف خير مِعْوَانٍ على ذلك، فشرب من الكأس نفسها التي شربوا منها، وخاض البحار نفسها التي خاضوها، وعانى ما عانوا، وَوَجَدَ مثلَ وَجْدِهِمْ، واتَّقَدَتْ شمسُ المحبة في قلبه كما اتَّقَدت في قلوبهم، وسكب الغزير من الدموع كما سكبوا، وأَنَّ، وَحَنَّ، وفاض وَجْدُهُ، والتهب شوقُه، وعلا نشيجُه، واحترق قلبه، إلا أنه ظلَّ ممسكاً بميزان الشريعة ليفرق بين مقبولها ومرفوضها، وها هو يؤكد ذلك بقوله: "ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار الحكم عليهم".(١)

وقلب الصوفي – كما يصفه الشيخ عن دراية – يظلُّ في سُموٍّ وارتقاء إلى آخر مدياته حتى يقف عند ينابيع العطاء الرباني في بهجة وهيام يزداد لهيبه في قلبه كُلَّ يوم قوةً على قوة.

فصاحب هذا القلب يتحول إلى إنسان عظيم النفس غير الذي كان، ويشعر أن روحه مفعم بعوالم سامية الجمال تتخذه موئلاً وسكناً، فيتسع بذلك قلبه حتى ليحتوي العالم بأسره، ويعلو عقله حتى ليشرف على سرِّ

---

١) صفحة ٢٥٧.

الواحدية والأحدية ذات الومضات والتجليات في الأنفس والآفاق، وهو في انطراح دائم بذلة ومسكنة وعجز بين يدي الله تعالى منتظراً الإشارة والرمز وومضة الهداية إلى الطريق.

ورجال القلوب بهذه المثابة هم تاج الجنس البشري، إذا تكلموا أراقوا في كل كلمة من كلماتهم حياةً، وفي كُلّ خاطرة من خواطرهم روحاً، فيخلفون في الأسماع دويّاً مستديماً، تبقى أصداؤه في حنايا الصدور طوال الحياة، وهؤلاء هم الأمل الذي ظلَّ الشيخ فتح الله يهدهده في كتاباته حيث يقول: "فالـــذين يريدون تذوّق هذه النشاوى الروحية اللامتناهية إلى الأبد، يُنظّمون هجرات فائقة جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده ومما نهى عنه إلى مـــا أمر به ومما لا يحبه ولا يرضاه إلى ما يحبه ويرضاه. فيعيشون في فـــرار إليـــه تعالى، لا يقرّ لهم قرار إلاّ بإسناد كل شيء إليه سبحانه، وهذا هو الاعتصام الحقيقي".[1]

والقلب – كما يراه الشيخ – كونٌ روحي عظيم يقوم قبالة هذا الكون المشهود بسماواته ونجومه وكواكبه، ولكنه حين يغلق نوافذه من دون القرآن يصبح خليطاً من قوى عمياء يصدم بعضها بعضاً ويحطم بعضها بعضاً، بـــل الحياة نفسها من دون القرآن تقفر وتجدب ويصعب تقبلها، وربمـــا ينتـــهي عذاب الإنسان في هذه الحياة إلى نوع مـــن أنـــواع الانتحـــار الفكـــري والجسدي، وكثيرون هم الناس الذين يولون الأدبار في هلع من الحياة لأنهم عجزوا عن فهمها وإدراك مراميها، وكثيرة هي النفوس المرتعشة لأنَّ قبـــساً من نور القرآن لم يدلف إليها.

---

١) صفحة ٥٧.

وأنت – أيها الانسان – أتستطيع أن تصوغ نفسك صياغة جديدة...؟ أن تهدمها وتشكلها من جديد...؟ أن تعدمها ثم ترتقي بها نحـــو كمـــال جديـــد للوجود...؟ نعم... القرآن يستطيع ذلك... إنه يستطيع أن يجعلك تتسع وتمتد بحيث تتجاوز بما لا يقاس بمصيرك الإنساني الـــذاتي... بـــل يجعلـــك تحـــسُّ بسمؤوليتك عن الحياة برمّتها، وعن جنس الانسان بأكمله، بل يجعلك قـــادراً على أن تنشئ حقائق جديدة لم تكن تخطر على بال أحد، وأن ملكات عظيمة معطّلة فيك يمكنك أن تبعث فيها الحياة وتنميها لتبلغ بك غايات هي مـــا وراء الموت والحياة، والخير والشر، والأرض والسماء. حتى أن الأبدية نفسها تظلُّ لا تشغل من وجودك إلاّ بعض هذا الوجود، فإذا بك تصير بهذه الخليقة الجديـــدة إنساناً فوق الانسان، وإيماناً فوق الإيمان ويقيناً فوق اليقين، وإلى هـــذا يـــشير الشيخ فتح الله فيقول:

"القلب، كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واســـتقامته وصـــحة التـــصور ووضوحه وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته. فمـــشاعر الإنسان المادية والمعنوية تحتمي بهذه القلعة وتُصان بها. لذا فالقلب الذي يحوز هذه الأهمية لا بد له من موضع مراقبة وحَجْر صحي ومنتجع. ذلـــك لأنـــه لطيفة عسير جداً ضمادها إذا جُرحت بل أعسر منه إحياؤها إذا ماتت. لـــذا يوصينا القرآن الكريم بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَـــدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨) والرسول الأكرم ﷺ يذكّرنا بهذا الحَجر الصحي والحماية حيـــث يدعو مراراً صباح مساء متضرعاً إلى الله تعالى: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِـــي عَلَى دِينِكَ)".[١]

---

١) صفحة ٧١.

وقد وضع الشيخ في هذا الكتاب – على الرغم مـــن كونـــه دراســـة موضوعية لعالم التصوف – شيئاً من ذاته، وشيئاً من روحه وفكره، وفهمه لروح التصوف وجوهره.

إنه يعلمنا كيف نشحن النفس بقوى الإيمان وطاقاته في مواجهة محن الزمان، وهو يريد من المسلم أن يكون عظيم النفس، هائلاً في عظمته، مهيباً في سمـــوه، خارقاً في قوة روحه، وأنْ يظلَّ تعطشه إلى الحياة متأججاً في قلبه، وإذا ما خانته نفسُه رجع إلى الله متضرعاً: رجعت إليك فانقذني من نفسي، إكسر قيـــودي حطّم سجون ذاتي، ارفعني إليك، خذني مني إليك...!

وبعد:

فهذا الكتاب مرآة للروح تنعكس على صفحاته، وتعكسه على الآخـــرين، والروح لا جهات لها، فمن أين أتيتها فقد أتيتها، وكذلك من أين دلفـــتَ إلى هذا الكتاب فقد دلفتَ إلى الكتاب كله، وإلى روح صاحب الكتاب، ومنْ هنا هذا الاقتران الحميمي التجانسي بين الروح والقرآن، فكلاهما من عالَم الأمـــر، بل القرآن نفسُه هو روح نزل به روح على روحٌ سيدنا محمد ﷺ أو إن شئت قلتَ على قلبه، فالروح والقلب في المصطلح الـــصوفي واحـــد كمـــا ورد في الكتاب، وهو الساري في أوصال الوجود والباعث فيه الحيـــاة، كـــسريانه في الإنسان المنطوي على العالم الأكبر.

والصوفي الحق – كما عند الشيخ – قرآني الروح، سنِيُّ الـــسلوك، فـــلا عروج ولا ارتقاء إلاّ فيهما ومنهما، فإذكاء نار العداء بين الذين يسمون أهل الشريعة وأهل الحقيقة أجّجَ في السابق ويؤجج اليوم صراعات خطـــيرة بـــين المسلمين، وهو وَهْمٌ يجب الانتباه إليه، ولعلّ الله تعالى يقيض رجالاً من رواد

الحقيقة ورجالاً من رواد الشريعة ليتداركوا هذا الأمر الخطير ويردموا ما بين المسلمين من هُوّات واسعة عميقة.

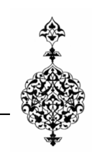
وأحسب أن هذا الكتاب هو محاولة في هذا الشأن وللتقريب بين المسلمين وإشاعة الود والسلام بينهم.

اللّهُم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام، فحيّنا ربّنا بالسلام وأدخلنا دارك دار السلام بالسلام برحمتك ياذا الجلال والإكرام.

آمين والحمد لله رب العالمين، وصَلِّ اللّهُمَّ على نبينا محمد ﷺ نبي السلام، والسلام.

أديب ابراهيم الدباغ

التصوف



التصوف، اسم يطلق على الطرق الموصلة إلى الحـــق تعـــالى، يـــسلكها الصوفي والمتصوفة. فالتصوف يعبّر عن الجانب النظري لطريـــق الحقيقـــة، والتنسك (التَدَروُش) يُعنَى بجهته العملية. وأيضاً أُطلق على الجانب النظري للطريقة "علم التصوف" وعلى جهتها العملية "التنسك". ويرى بعض أرباب الحقيقة، أن التصوف هو إماتةُ الله جهةَ الإنسان النفسية والأنانية والسمو به إلى حياتية أخرى بأنواره الذاتية. وبتعبير آخر: إفناءُ الله الإنـــسانَ بإرادتـــه سبحانه، ودفعه إلى العمل بإرادته الخاصة واختياره الأحـــدي.[1] ومقاربـــة أخرى: أن التصوف هو المجاهدة المستمرة والمراقبة الدائمة، لإزالة الإنـــسان جميعَ أشكال الأخلاق الذميمة عنه وتخلّيه عنها، وإقامته الخصال الحميـــدة الرفيعة، وتحلّيه بها.

ويعبّر الجنيد البغدادي عن التصوف بـــ "الفناء في الله" و"البقاء بـــالله". ويمكن تلخيص أقـــوال الشـــبلي بالبقاء في المعية الإلهية دون الالتفـــات إلى الأغيار. أمـــا بيـــان أبي محمد الجريـــري فيلخص، باتخاذ موقف يقظ تجاه الأخـــلاق الرذيلة، واقتناص الأخـــلاق الســـامية.[2]

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٤٢٩. لما سئل الجنيد عن التصوف قال: "هو أن يميتَك الحقُّ عنك ويحييك به".

٢) انظر: الرسالة للقشيري ٤٢٩. أي: "الدخول في كل خُلق سَنِيّ، والخروج من كل خُلق دَنِيّ".

وهناك من عرّف التصوف بأنه النفوذ إلى روح الأشياء والموجودات، وتحليل الأحداث وفق محور المعرفة الإلهية، وعدّ كل إجراء من إجـــراءات الله منفَـــذاً لمراقبته ورصده تعالى، بمشاهدة داخلية تفوق التصورات وتسمو علـــى الكـــم والكيف، وإدامة العمر في محاولة تعقّب معاينته ومشاهدته ســـبحانه، والعـــيش بخشوع وانكسار وتقلّب دائم حيث يرانا بأحوالنا كلها.

ويمكن أن نخلُص من هذه التعاريف المتباينة إلى نتيجة جامعة هـــي: أن التصوف هو الانسلاخ من الـــصفات البـــشرية - في معيـــار- والتـــدثّر بالأوصاف المَلَكية والأخلاق الإلهية، والعيش في مدار معرفة الله ومحبته تعالى والتذوق الروحاني.

إن أساس التصوف هو الرعاية لآداب الشريعة ظاهراً، والوقوف علـــى تلك الآداب باطناً، فالسالك الذي يُحسن استعمال هذين الجناحين يرى من الباطن ما في الظاهر من الأحكام، ويشعر ويعيش في الظاهر بالأحكام الـــتي في الباطن. وبفضل هذه المشاهدة والشعور يسير دوماً بأدب نحو الهـــدف، ويجول قريباً منه ويحوم حوله.

والتصوف طريق مفتوح إلى المعرفة الربانية وعمل دائب جاد، لا محل فيـــه للهزل واللامبالاة واللهو والعبث. وكيف يكون ذلك، فأساســـه يـــستند إلى تشرب شَهْد المعرفة الإلهية وانتقاشها في القلب، كالنحل غادياً ورائحاً بين الخلية والزهرة.. وتطهير القلب من الأغيار.. وفطام النفس عن ميولها الجبلّية.. وإخماد الصفات البشرية بالانغلاق التام تجاه الرغبات البدنية والجسمانية.. والبقاء دوماً متفتحاً أمام الروحانيات وإمضاء عمره على خطى سيد الأنام ﷺ.. والتخلـــي عن مراداته لأجل مرادات الحق سبحانه.. واستشعاره بحضوره تعالى لمعرفته أن الانتساب إلى الحق سبحانه أعظم مرتبة.

وينبغي أن نقف على أصل التصوف وأساسه وموضوعه وفائدته وأركانه:

أصل التصوف: هو الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامره ونواهيه بدقة. ومجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع بملازمة الجوع واليقظة.

موضوع التصوف: رفع الإنسان إلى مستوى الحياة القلبية والروحية، وتصفية القلب، وتوجيه اللطائف إلى مرجعها الأصلي.

وفائدة التصوف: تحفيز الإنسان لتنمية جوانبه المَلَكية.. واستشعار الإيمان الإجمالي والبدائي كرّة أخرى كشفاً وذوقاً والعيش به.

أساس التصوف: تعميق شعور العبودية السطحي وترسيخه بالمواظبة على العبادة والطاعة وجعله جانباً مهماً لطبيعة الإنسان، وبلوغ الروحانية –التي تُعدّ فطرة ثانية للإنسان– والانتباه إلى وجهَي الدنيا المتوجهَين إلى العقبى وإلى الأسماء الإلهية الحسنى، مع الانغلاق التام تجاه وجه الدنيا الفاني المتوجه ذاتها، وإلى أهوائنا.

أما **أركان التصوف** فيمكن درجها بالآتي:

١. بلوغ التوحيد الحقيقي بطرق نظرية وعملية.

٢. قراءة أوامر حضرة[1] القدرة والإرادة الإلهيتين ومعاينتهما بجنب الاستماع إلى حضرة الكلام الإلهي وفهمه.

---

١) عندما سئل الأستاذ المؤلف عن سبب استعماله هذه العبارات التي تنمّ عن التوقير والتبجيل. أجاب: نعم، لقد استعملت مثل هذه العبارات في المواقع التي تتعلق بالذات المقدسة، فقلت حضرة العلم وحضرة القدرة لأنني أراها تسمو على الصفات، إذ ينبغي الدقة المتناهية فيما يخص ربنا الجليل. فإننا لا نتكلم عن أمر عادي، نحن نتكلم عن ذات مقدسة جليلة، لذا تتملكني منتهى الرهبة والخشية أثناء كلامي أو كتابتي عنها، فأسعى للعثور على الكلمات المناسبة والتعابير اللائقة. (قرق تسي – الخابية المنفطرة للاستاذ محمد فتح الله گولن "باللغة التركية" ٤٢٣).

٣. الامتلاء بمحبة الحق سبحانه، والنظر لأجله إلى الموجودات أنها "مهد الأخوة" والقيام بحسن المعاشرة مع الناس قاطبة، بل مع كل شيء.

٤. العمل بروح الإيثار في كل وقت وحين، بتفضيل الآخرين قدر المستطاع على نفسه.

٥. تقديم المراد الإلهي على مراده هو، والسعي لإمضاء العمر صُعُداً إلى ذرى "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

٦. الانفتاح على العشق والوجد والجذب والانجذاب.

٧. استشفاف ما في الصدور من سيماء الوجوه. وقراءة الأسرار الإلهية على وجه الأحداث.

٨. تنظيم رحلات إلى مواضع تذكّر بالأخرويات، بنية السفر للكسب المعنوي وقصد الهجرة.

٩. الاكتفاء بالأذواق واللذائذ ضمن الدائرة المشروعة، والعزم على عدم الإقدام خطوة إلى الدائرة غير المشروعة.

١٠. المجاهدة المتواصلة والمناضلة الدائمة مع طول الأمل الذي ينشؤه توهّم الأبدية.

١١. عدم النسيان -ولو للحظة واحدة- أن لا نجاة إلاّ بطريق اليقين والإخلاص والرضا الإلهي، ولو كان العمل باسم خدمة الدين وفي سبيل إبلاغ الإنسانية قاطبة إلى الحق سبحانه.

وفضلا عما سبق يمكن أن نضيف الآتي: التزود بالعلوم الظاهرة والباطنة، والاحتماء بريادة إنسان كامل وإرشاده.. هاتان الخاصتان تحوزان أهمية لدى النقشبنديين.

وإذ نذكر التصوف، ونفكر بالتصوف، ونكتب حول التصوف، علينـــا ألاّ ننسى المسائل التي ندرجها أدناه وهي بمثابة إشارات بلورية لَمّاعة للسير والسلوك الروحاني، وتتضمن المعنى الإجمالي لروح الدروشة (التنسك)، وتعدّ أساساً لكتب الأخلاق والأدب والزهد، بل عُدّت نقطة التقاء القلـــوب – بمعنى من المعاني– بالحقيقة الأحمديـــة.[1]

وفي مقدمة هذه المسائل وأُولاها "اليقظة" التي تـــشكل أساســـاً لفهـــم الحديث الشريف: (إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلا يَنَامُ قَلْبِي)،[2] و (النَّاسُ نِيَامٌ مَتَـــى مَاتُوا استَيْقَظُوا).[3] وتأتي بعد اليقظة وتعقبها التوبـــة، الإنابـــة، المحاســـبة، التفكر، الفرار، الاعتصام، الخلوة، العزلة، الحال، القلب، الحزن، الخـــوف، الرجاء، الخشوع، الزهد، التقوى، الورع، العبـــادة، العبوديـــة، المراقبـــة، الإخلاص، الاستقامة، التوكل، التسليم، التفويض، الثقة، الخلق، التواضـــع، الفتوة، الصدق، الحياء، الشكر، الصبر، الرضا، الانبساط، القصد، العـــزم، الإرادة، المريد، المراد، اليقين، الذكر، الإحسان، البصيرة، الفراسة، السكينة، الطمأنينة، القرب، البعد، المعرفة، المحبة، العشق، الشوق، الاشتياق، الجذبة، الانجذاب، الدهشة، الحيرة، القبض، البسط، الفقر، الغنى، الرياضة، التبدل، الحرية، الاحترام، العلم، الحكمة، الهمة، الغيرة، الولاية، الـــسير، الغربـــة، الاستغراق، الغيب، القلق، الوقت، الصفاء، السرور، التلـــوين، الـــتمكين، المكاشفة، المشاهدة، التجلي، الحياة، السكر، الصحو، الفـــصل، الوصـــل،

---

١) نذكّر القارئ الكريم أن أمثال هذه العبارات والمصطلحات لم نمسها بالتعليق او التوضـــيح حيـــث ســـيرد شرحها بالتفصيل في ثنايا هذا الجزء من الكتاب أو الأجزاء التي تليه. (المترجم)

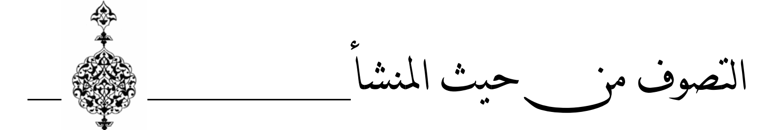
٢) البخاري، التهجد ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

٣) ينسب هذا الكلام إلى علي بن أبي طالب ﷺ وسفيان الثوري. انظر لذلك: المـــصنوع لعلـــي القـــاري ١٩٩/١؛ كشف الخفاء للعجلوني ٤١٤/٢، ٥٢٥؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٥٢/٧.

الفناء، البقاء، التحقيق، التلبيس، الوجود، التجريد، التفريد، الجمع، جمع الجمع، التوحيد.

ونأمل أن يُوضَّح شيء من هذه المعاني في هذا الكتيب ولو بصورة مجملة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



التصوف من حيث المنشأ

لم تكن الأحكام الشرعية تدوَّن في العهود الأولى في نظر تاريخ العلوم الإسلامية، فالكثيرون كانوا يحفظون أقسام هذه الأحكام عن ظهر قلب، فتظل مطبوعة في أذهانهم، كالاعتقاد والعبادة والمعاملة، حيث كانت تتكرر كثيراً وتُعزّز بالمزاولة والتطبيق العملي. فمن هذه الناحية ما كان في جمع الأحكام الشرعية وتصنيفها أية صعوبة تُذكر؛ لأنه أشبه ما يكون بصياغة ما هو محفوظ حياً في أذهاننا ثم تسطيره على الأوراق. ومن ناحية أخرى فإن فروع العلوم المذكورة لأنها من المسائل الحياتية التي لابد أن ينشغل بها كل مسلم فقد تناول العلماء مقدماً تلك الحقائق المحفوظة في أذهانهم وصدورهم ودوّنوا رسائل وكتباً تتعلق بكل باب من تلك الأبواب. فاشتغل الفقهاء بتصنيف كتب الفقه، والمحدّثون بتدوين السنة وحفظها، وعلماء الكلام في ترصين مسائل العقيدة، والمفسرون في تأليف التفاسير وعلوم القرآن. وبذل كل منهم في ساحته جهداً فاق الآفاق لإبراز حقائق الإسلام الرفيعة، من دون أن يدَعوا مجالاً للالتباس.

وفي هذه الأثناء ركز الصوفيون أيضاً، الذين يولون اهتماماً أكثر بالجانب الروحي للحقيقة الأحمدية.. ركزوا – مستندين إلى المصادر نفسها– على الحقائق المرتبطة بالتصوف، كذات الإنسان، وأساس الوجود وما وراءه، وماهية الإنسان والكائنات وحقيقتهما، وأمثالها من المواضيع، ساعين بإصرار

ليوجهوا الأنظار إلى ما وراء الأشياء. فأضافوا رياضاتهم الذاتية وحياتهم الروحية، وتصفيتهم القلوب، وتزكيتهم النفوس، إلى تفسير المفسرين وروايات المحدثين واجتهادات المجتهدين واستنباطاتهم.. وبإيجاز؛ طوروا مدارس ومسالك صوفية متعددة بإدراك الدين كلاً لا يتجزأ، علاوة على عيشهم به وتذوقهم له وفهمهم إياه.. وهكذا كسبت حياة الإسلام الروحية ماهيةً علمية، تلك هي الحياة المستندة إلى أسس عملية بحتة متعلقة بأحوال القلب، كزهد الزهاد، وعبادة العبّاد، ودقة الإحساس الديني عند أرباب الورع، ورهافة الحس لدى المخلصين، وعشق المحبين وشوقهم، ورؤية الفقراء لعجزهم وفقرهم إلى الله. فظهرت على صورة "علم التصوف" بما يخصه من منهج ومسلك ومشرب وموضوع وقواعد واصطلاحات. فـ"علم التصوف" في أساسه خلاصة الحقيقة الأحمدية وعصارتها بلا شك، مع ما يبدو في مشاربه المختلفة من تباين واختلاف في الوقت الحاضر.

ولكنها حقيقة واقعة، أنه في بعض العهود ظن قسم من أهل التصوف بأن الشريعة الغراء -التي هي حقيقة واحدة لها وجهان- تختلف أحكامُها عن روحها (الباطنة)، كالمراقبة والرياضة والمجاهدة. فأخذ كلٌّ منهما موقف العداء للآخر، بتوهم أحدهما متشبثاً بظاهر الشريعة والآخر بباطنها. وفي الحقيقة أن ما أَوْجد -إلى حد ما- ظهور هذا الاختلاف هو أن الفقهاء وأهل الفتوى مثّلوا جانب الشريعة النظري، بينما مثّل الصوفية جانبها الباطني. والحال أن هذا الاختلاف يمكن النظر إليه من زاوية: أن كل جهة تُقدّم المسلك الذي اعتادت عليه وتميل إليه.

ولقد راجع الفقهاء والمحدّثون والمفسرون القرآن والسنة في ضوء أصول وقواعد تستند من حيث الأساس إلى عهد الرسالة الزاهر. وصنّفوا في ذلك آثاراً

جليلة كلٌّ في ميدانه. كما أن الصوفيين بمرجعية القرآن والسنة أيضاً، أظهـــروا اجتهاداتهم في مسائل استخرجوها من هذين المصدرين الأساسين ممـــا يتعلـــق بالرياضة والمجاهدة والمراقبة والحال والمقام، ودوّنوا معها حياتهم الروحية الخاصة بهم، وعشقهم وشوقهم واشتياقهم ووجدهم وجذباتهم وانجـــذابهم، وســـعوا لتوجيه من يجدونهم من المتشبثين بالظاهر إلى هذه النواحي.

وفي الحقيقة إن قصد كلا الطرفين هو الوصـــول إلى الله بمراعـــاة أوامـــره ونواهيه، ولكن لعدم تأصيل ميزان يوزَن به طريق الوصول أحياناً وفق مقـــاييس شرعية أدى إلى الإفراط والتفريط؛ وسبّب ما يبدو لنا من اختلافات في الوقـــت الحاضر. والحال لا سبب للاختلاف في المنشأ والأساس. وكما أن تدوين أقسام مختلفة من الدين بشكل مستقل والامتثال بها لا يعني اختلافاً، كـــذلك لـــيس اختلافاً قط اهتمام علم الفقه بأحكام العبادة والمعاملات، أي تنظيم حركـــات الإنسان الفكرية والعملية وتنسيقها، وكذا جهود التصوف لرفع حياة الإنـــسان إلى مستوى القلب والروح بسلوك تربية الروح وتصفية القلب وتزكية الـــنفس. فلا اختلاف ولا افتراق، بل قد تعهّد كلٌّ من الجانبين بالحفاظ على ناحية مهمة من الشريعة، فكلٌّ من تلك النواحي بمثابة كلية من الجامعة، التي تمثـــل الكـــل، والتي يتوقف تكاملها على تكامل تلك الكليات. حيث إن إحداها تعلّم كيـــف يتعبد الإنسان وكيف يتطهر للعبادة، وكيف يقيم الصلاة وكيف يصوم وكيف يزكّى، وعلى أي أساس يستند في معاملاته.. بينما الآخر -فضلاً عن هـــذا- يؤكّد وباهتمام بالغ على علاقة جميع العبادات والطاعات والمعاملات بالقلـــب والروح، فيبحث عن طرق رقي الإنسان "الصورة" إلى الإنسان "الـــسيرة" أي المعنى. ويوصي بالطرق المؤدية إلى الإنسان الكامل. وعلى هذا الأساس فلا يمكن إهمال أيٍّ من الجهتين.

ولكن على الرغم من أن بعض الناقصين قد جاوزوا الحد فأطلقوا على المشتغلين بالفقه والسنة اسم "أرباب الظاهر" و"علماء الرسوم"، إلاَّ أن الكاملين من الصوفية قد اتخذوا دائماً قواعد الشريعة الأساسية مصدراً لهم. فما طرحوه من أفكار وآراء استنبطوها من أصول ومناهج موافقة للكتاب والسنة، ونسجوها نسجاً دقيقاً على لحمة الشريعة الغراء وسداها. فكتاب "الوصايا" و"الرعاية" للمحاسبي و"التعرف لمذهب أهل التصوف" للكلاباذي و"اللُّمع" للطوسي و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"الرسالة" للقشيري... ما هي إلاّ بعض درر هذا الصدف. ومثلما توجد بين هذه الدرر مؤلفات تنسج على منوال واحد كمحاسبة النفس وتزكيتها، هناك أيضاً مصنفات ضخمة ضمت موضوعات متعددة بين دفتيها.

وأخيراً، وبعد كل هذه الأسفار النفيسة العظيمة، أتى حجة الإسلام الإمام الغزالي وألّف كتابه القيّم "إحياء علوم الدين" بعد أن نقّح طرق التصوف بجميع آدابه وأركانه واصطلاحاته، مقراً بما أقره المشايخ عامة ومنتقداً لما يستوجب النقد.. فآلف مرة أخرى بين هذين التيارين المباركين اللذين يبدوان كأنهما مختلفان ووفّق بينهما بانسجام تام، بحيث إن كثيراً من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لوناً من ألوان العلوم الشرعية، وبُعداً من أبعادها، فانتعشت الوحدة والتعاون في كل مكان، حتى أنهم انسجموا وائتلفوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم –إلى ذلك اليوم– اسم "علماء الرسوم" استخفافاً بهم. وخاصة لدى حملهم إلى المدرسة الفقهية توضيحات متميزة في علم التصوف، أمثال الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة، كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم الأخلاق. فوجدوا نقاط التقاء مشتركة كثيرة جداً توصلهم إلى الاتفاق والوفاق، سواءً في أرباب التصوف أو علماء الظاهر.

ولما كان التصوف طريقاً للعبادة جُلّ اهتمامه الباطن، ويتنـــاول الجانـــب الروحي للأحكام الشرعية ومدى تأثيرها على القلب، والأعماق التي تشف في الوجدان، فهو بالنسبة للمسالك الأخرى أكثر غوراً ولدنّيـــة وأوســـع مـــدى وأصعب فهماً، إلاّ أنه من حيث الهدف والمنطلق نابع من الكتـــاب والـــسنة لا ينافي أي طريق إسلامي آخر. بل هو كالعلوم الشرعية الأخرى، يؤكـــد علـــى روح العلم والمعرفة واليقين والإخلاص والإحسان وما شابهها مـــن الحقـــائق، مستنداً إلى الكتاب والسنة والاجتهادات الخالصة للسلف الصالح.

إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلـــم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة، لا يعني افتراقه عن العلـــوم الشرعية، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تـــذوق أمزجـــة متباينـــة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة. لذا يعدّ انحرافاً ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة في الأساس عن أفكار خدام الشريعة واستنباطاتهم. ورغم أن هناك في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبثين بظاهر الأحكـــام الشرعية من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين إلاّ أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائماً بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرَّطوا. وبناء على هـــذا فمـــن الخطأ قطعاً تناول المسألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كـــلا الجانبين، نظراً إلى أقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء، وذلك لأن عدد الذين يثيرون مثل هـــذا النـــزاع ويشـــاركون فيه يُعدّون قطرة من بحر بالنـــسبة لمـــن يـــسلكون طـــريـــق التسامح والعفو والصفح. وفي الحقيقة إن هـــذا أمـــر طبيعـــي جـــداً، لأن مرجع كلا الطرفين واحد، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتـــاب

والسنة في الأحكام الشرعية يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما.

هذا وإن الأسس التي يؤكدها الصوفيون بإصرار لا تختلف كثيراً عما هي في مسلك الفقه والفقهاء. فالجهتان عامة تؤكدان معاً على العمل الصالح والمعاملة الصادقة. فضلا عن أن الصوفيين يتكلمون عن موضوعات كالأعمال الحسنة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس، إذ بالأعمال الحسنة يتنبه الوجدان إلى المعرفة الإلهية.. فيتوجه الإنسان إلى طريق الإخلاص والرضا الإلهي، فيترقى إلى مستوى يمكنه أن يؤدي كل مسألة شرعية بانتشاء تعبدي عميق، وذلك بحصول قلب آخر أعمقَ من القلب، وعرفان آخر وراء العرفان، ولغة أخرى أعرق من اللغة.

أجل، إن التخلق بالأخلاق الإلهية (اللاهوتية) تتحقق بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة.. وتتكشف الحجب وتنزاح الأستار بطريق مجاهدة النفس والخلوة والذكر والمراقبة.. فيغدو الإيمان الإجمالي مرة أخرى –بالإطلاع على ما وراء الوجود– معززاً بالذوق والكشف كيقين شهودي.

الصوفي



الصوفي تعبير يطلق على أهل التصوف، وأعتقد أن الاختلاف في استعمال هذه الكلمة ناشئ من أصل الكلمة نفسها، فمن قائل: إن أصل الكلمة من "صوف" و"صوفس" و"صفاء" و"صفوة"، كناية عن روح التدين فأطلقوا كلمة "صوفي"؛ ومن مدّع أنها نابعة من "سوفان" و"سوفانة" و"صفّة".

واشتهرت لدى أرباب التصوف أن:

الصوفي: يعني "السالك إلى الحق" الذي بلغ حدّ الصفاء من حيث الحياة القلبية وعالمه الداخلي.

الصوفي: يعني "رجل الحق" الذي لا ادعّاء له، تفضّل الحقُّ سبحانه باختياره وانتقائه لنفسه، وصفّاه من كدر النفس فصافاه.

الصوفي: يعني سالك طريق الحقيقة الأحمدية، يلبس ثياب الصوف الذي هو مظهر المحوية وآية التواضع وسكينة القلب وارتياح الضمير، محب للمحبة، لا يجافيها ولا يجافى أهلها، لا يبالي بوجه الدنيا المتوجه إليها ولا بوجهها المتوجه إلى أهوائنا. فلبس الصوفيين للصوف، وإضافته إليهم، لكونه ظاهر حالاتهم وأطوارهم، ولأن لبس الصوف دأب الأنبياء وزي تابعيهم

وزي الذين وقفوا أنفسهم للعبادة.[1] فلئن كان الصوف لبس الأنبياء وحواريهم حقاً، فكلمة "الصوفي" إذن مشتقة من "الصوف".

الصوفي: هو الفارس المقدام لطريق السمو إلى قمم الإنسانية الحقة، قد تبرأ من أوضار النفس، وأدرك فطرته الذاتية، وتصفّى من الكدورات البشرية، حتى غدا لاهوتياً زكيّ النفس سليم القلب.

الصوفي: هو الاسم المثالي لرجل القلب، الذي نذر حياته وبذل جهده للتشبه بأهل الصُفّة ليحظى بتحقيق هذا الاسم الجليل في نفسه.

ومن قائل: إن كلمة "الصوفي" مشتقة من "الصفّ". فمع ملاحظة المخالفة لقواعد اللغة في الاشتقاق، فإن بقاءهم المستمر في عبودية خاشعة قانتة أمام الحق سبحانه يدعو إلى التأمل في إطلاق هذا الاسم رغم أن أصل الكلمة تخالفه. ذلك لأن علوَّ همتهم وتوجّهَ قلوبهم إلى الله باستمرار، يبين أنهم أهل لهذا الموقع دوماً، رغم الخطأ في الاشتقاق.

وادّعى البعض أن كلمة "الصوفي" آتية من "صوفس" باللغة اليونانية أو من "سوفيا" التي تعني "الحكمة" باللغة الإغريقية. واعتقدُ أن هذه التسمية شيء اختلقه الأجانب، على الرغم من أن أكثر الصوفيين من أرباب الحكمة.

إن أول من لُقّب بـ"الصوفي" في التاريخ الإسلامي هو الزاهد الكبير أبو هاشم الكوفي، والذي توفي في سنة ١٥٠ هجرية،[2] لذا يصح أن نقول إن

---

١) انظر مثلا: البخاري، اللباس ١١؛ مسلم، الإيمان ٢٦٨-٢٦٩، الطهارة ٧٩؛ الترمذي، اللباس ١٠؛ المستدرك للحاكم ١٠٣/٢٠، ٦٥٥، ٤٥٥/٣، ٤٥٩.

٢) أبجد العلوم للقنوجي ١٥٤/٢.

كلمة "الصوفي" ظهرت في العصر الثاني للهجرة قبل المائتين مـــن الهجـــرة. وهذا يعني أن استعمال كلمة الصوفي بهذا المعنى هو بعـــد عهـــد ســـاداتنا الصحابة الكرام وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين.

والتصوف الذي عرفناه منهجاً بالزاهد أبي هاشم، من حيث أول ظهوره مسلكٌ لذوي القلوب والأرواح، يسير وفق البساطة والتواضع الذي كانت عليه حياة رسولنا ﷺ والصحابة الكرام، ويأخذ موقفاً حازماً تجـــاه الـــدنيا المتوجهة إلى نفسها، مع الارتباط الوثيق بالرقائق وحوادث ما بعد المـــوت. وعلى هذا ظل "التصوف" منقاداً لمقتضى الحياة الروحانية.

وغاية التصوف من حيث المنطلق، هي ربط القلب بالحق سبحانه، وكيّ الصدر بنار العشق والمحبة. وقد ترنّم الصوفيون الحقيقيون على طول التاريخ بـــ "حُسن الخلق" و"الأدب" واتبعوا سبيل الأنبياء عليهم السلام. إلاّ أن في بعض العهود ظهرت انحرافات وزلاّت قد لا يخلو منها مسلك. ولكن ليس من الإنصاف حصر النظر في تلك الانحرافات، وذم هذا المسلك الذي هـــو مسلك ذوي القلوب الصافية.

يقول الإمام القشيري عند ذكره الصوفيين الذين سلكوا بـــه في الحيـــاة الروحية باختصار: "إن المسلمين بعد رسول الله ﷺ، لم يَتَسَمَّ أفاضـــلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهـــم الصحابة. (هذه الحظوة لا يشاركهم فيها أحد من العصور الأخرى). ولمـــا أدرك العصر الثاني سُمّي مَن صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشـــرف سِمَة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين".[1] وحاذى أفول هذه الزمر الثلاث

---

١) الرسالة للقشيري ٣٦.

المنورة، والفتن التي وقعت في تلك الفترة، قيام الفقهاء في جهة الفقه، والمحدثين في جهة الحديث، والمتكلمين المحققين في جهة العقائد، بمهمات جليلة، كما حقق الصوفيون تجديدات قيمة في جهة الإسلام الروحية.

الصوفيون في نمط حياتهم في غاية الاستقامة ومنتهى البساطة، مبرّأون من كل انحراف وفساد، أبعد الناس عن الأذواق البدنية والسفاهات الجسمانية، وقفوا أنفسهم ليمضوا حياتهم في جو التسامي للتنسك والزهد والفقر، رزينون وعازمون على التشبه بالرسول الكريم ﷺ وعظماء الإسلام الأماجد. لذا لا يمكن أن يُعدّوا بأوصافهم العالية هذه استمراراً للفلاسفة والحكماء القدامى أو ذوي علاقة بالتنسك النصراني، ولا باليوغا، ولا أنهم ضلع من الفقر الهندي، ولا يماثلون الهازلين ممن لا يعلمون مخافة الله ومهابته في أيامنا الحاضرة.

وفي الحقيقة فقد عُدّ التصوف من حيث مبدأ ظهوره ومن حيث ممثلوه، أنه: علم حقيقة القلب، علم ما وراء الأشياء، علم الأسرار الكامنة في خبايا الوجود. والصوفي هو تلميذ هذا العلم، وفارس ميدانه لبلوغ نهاية هذا الطريق، يسير طوال عمره نحو الأفق المثالي لكل إنسان، ألا وهو الإنسان الكامل. نعم إنه سفر لا نهائي، بقصد الوصول إلى اللامتناهي، وسير متواصل بعزم لا ينثني، من دون ترقّب عِوَض قط. هذا هو التصوف الحقيقي، والصوفي هو البطل العظيم والممثل المحظوظ لهذا المضمون.

وإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية يتوضح أمامنا: أن الصوفي لا علاقة له بالفلاسفة والروحانيين النصارى واليوغا قطعاً، كما أن التصوف لا علاقة له بالفلسفة ولا بالروحانية النصرانية ولا باليوغا من قريب ولا من

بعيد. نعم، إن فلاسفة اليونان والهند قد ساروا حقاً في طريق تصفية النفس قبل ظهور الإسلام وقاموا بما يشبه عمل الصوفيين من المجاهـــدة، ولكـــن الطريقين مختلفان اختلافاً كلياً من حيث الأصـــل والأســـاس. ذلـــك لأن الصوفيين يحققون التصفية بالتمسك بأسس الذكر والعبادة والطاعة ومحاسبة النفس والتواضع والمحوية، ومن ثم يسعون للمحافظة على هذا الخط إلى نهاية العمر. بينما تصفية الفلاسفة، إن كانت تـــسمى تـــصفية، فهـــي تـــصفية اعتباطية، ليس فيها عبادة ولا طاعة ولا مراقبة نفس ولا تواضع ولا إنكـــار الذات، بل فيها دوماً الغفلة وتضخيم الأنانية إلى حدّ الوقاحة والطيش.

ينقسم الصوفيون إلى مجموعتين رئيسيتين:

الأولى: المنطلقون في مدار العلم بحثاً عن الوصال بأجنحة المعرفة.

والأخرى: السالكون لتحري الذوق والوجد والكشف فحسب.

فالمجموعة الأولى: وهم يحلّقون في الذرى بـــ"لا حول ولا قوة إلاّ بالله" فيقضون حياتهم بأجنحة العلم والمعرفة في سفر لا نهاية له، في آفاق "الـــسير إلى الله" و"السير في الله" و"السير عن الله".. فكل ما يشاهدونه من تبـــدل وتغيّر وتكوّن في الوجود، يقدِّم لهم مئات من الرسائل من حضرة القـــدرة والإرادة الإلهيتين، وكل حادثة تهمس لهم بنغمات مختلفة بألسنة متباينة.

أما المجموعة الثانية: فهم الباحثون عن الكشف والكرامـــة والـــذوق والوجد والتواجد، لذا يمكن أن يعيشوا "البُعد" في إقليم "القُرب" لـــذهولهم أحياناً عن الهدف، رغم أنهم جادّون في سيرهم وسلوكهم وزهدهم.

فالطريق الأول: هو طريق أصحاب الولاية الكبرى السائرين في ظـــل ريادة القرآن الكريم.

والطريق الثاني: تتقدم فيه أحياناً الرغبات والمشاعر والترقّبات، رغم أن مداره في الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية، لذا فهو طريق أقل أمناً من الأول.

وفضلا عن هذا فإن الصوفية يقسّمون الناس فيما بينهم إلى ثلاثة أقسام:

الصنف الأول: ويطلقون عليهم اسم "الكاملون والواصلون". وهؤلاء ينقسمون فيما بينهم إلى قسمين أيضاً:

الأول: السادة الأنبياء العظام والرسل الكرام عليهم السلام.

والآخر: الكُمّلون الذين وصلوا إلى الحق سبحانه باتّباعهم وانقيادهم لأولئك العظام. فهؤلاء يمثّلون حقاً "الإنسان الكامل" من حيث سماء استعداداتهم. ولكن رغم أن بعضهم واصل وكامل في نفسه قد لا يكون مرشداً لغيره. بل قد لا يقدر بعض الواصلين منهم بعد أن حظي بالوصال على النجاة من أمواج بحر الجمع والحيرة. فيبقى هناك إلى الأبد مستهلكاً مشاعره وأفكاره. لذا تنقطع علاقته كلياً عن عالم الناسوت (الطبائع البشرية) ولا يقدر على الإرشاد.

الصنف الثاني: ويطلق عليهم اسم "السالك" وهؤلاء أيضاً ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: يطلبون الله سبحانه وحده دون أن يفكروا في الدنيا ولا في الآخرة.

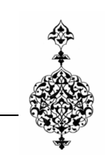
أما القسم الثاني: فيطلبون الدنيا –ضمن الدائرة المشروعة– مع طلبهم للآخرة والجنة، فهؤلاء هم الزهّاد والعبّاد والعاجزون والفقراء إلى الله.

والصنف الثالث: هم الذين يحصرون نظرهم في الدنيا، ويطلق علـــيهم الصوفية اسم "المقيمين" فهؤلاء هم الأشرار والأشقياء من أصحاب الشمال، لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون شيئا.

ومن قائل كذلك للأول من هذه الأصناف الثلاثة أنهم "المقرّبون" والثاني "أصحاب اليمين" والثالث "أصحاب الشمال".



التوبة، الإنابة، الأوبة



التوبة التي سنتعرف عليها مع شروح بسيطة هي: التوجّه إلى الله تعالى بلمّ الشعث مجدداً، مع الاعتراف بالأخطاء، وتجرّع غصص الندم، والعزم على تلافي ما فات. هذه التوبة لدى أهل الحقيقة هي معاودة بذل الجهد لبلوغ الموافقات والمطابقات في ضوء أوامر الله ونواهيه سبحانه وتعالى، نجاةً من مخالفات وقعت تجاه الذات الإلهية؛ في الشعور، في التفكير، في التصور، في السلوك. وليست التوبة ترك ما يعافه الوجدان والشعور بالتقزز منه فحسب، بل هي الرجوع إلى الله سبحانه عمّا لا يحبه ولا يرضاه تعالى حتى لو كان ذلك الشيء جميلاً ونافعاً بظاهر العقل.

وكذا التوبة تستعمل بإضافة كلمة "نصوح" إليها، فتصبح "توبة نصوحاً". بمعنى: أنها أخلص توبة، وأصفاها، وأنها صادرة من أعماق القلب. وبمعنى آخر: أنها رأب الصدع، ورتق الفتق، وإصلاح الفاسد دون ترك ثلمة مهما كانت. فإذا أخذنا ما ذُكر أعلاه معاً بنظر الاعتبار فالتوبة النصوح تعني: أن الفرد يتوب باسمه، وبحسب مستواه، ومن أعماق قلبه خالصاً جاداً، بحُسن نية وخلوص قلب وبقصد الخير.. والتائب بحُسن امتثاله هذا يكون كالناصح للآخرين. والقرآن الكريم عندما يذكر التوبة الحقيقية يشير إلى هذه التوبة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم: ٨).

وقد تناول الباحثون التوبة في ثلاثة أقسام باعتبار التائبين وأوضاعهم:

أ . توبة عوام الناس، وهم المحجوبون عن الحقائق: هي الشعور بغموم مخالفة أمر الحق سبحانه وأساها في القلب. فيدرك المرء إثمه بسَرَيان هذا الشعور في وجدانه، ويتوجه بكل كيانه إلى بابه تعالى معبّراً بكلمات التوبة وعبارات الاستغفار المعروفة.

ب . رجوع الخواص الذين بدأوا بالتنبه إلى حقائق ما وراء الستار، إذ ينشرون أجنحة الهمة، عقب كل حركة ونأمة وفكرة تخالف أدب الحضور والمعية، ليستنجدوا برحمة الحق تعالى ويلتجئوا إلى عنايته، أمام كل غفلة صغيرة كانت أم كبيرة، تكثفت في القلب وغشيت أفق البصيرة. فالروح التي تبذل هذا الجهد قد نالت حقاً ما وصفه الرسول الكريم ﷺ من حقيقة في حديثه الشريف (التَّائبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ فإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنبه ثم تلا: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قيل: يا رسول الله وما علامة التوبة؟ قال: (الندامة).[1]

ج . توجّه أخص الخواص الذين يديمون حياقم في أُفق (إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلا يَنَامُ قَلْبِي).[2] حيث يقتلعون كلَّ ما يتعلق بما سواه تعالى ويكون حجاباً في قلوبهم وفي سرّهم وفي أخفى خفاياهم، ويجتثونه من أعماق ذواقهم،

1) الرسالة للقشيري ١٦٨؛ كنز العمال للمتقي ٢٦١/٤ رقم الحديث ١٠٤٣٨، نقلا عن ابن نجار. وقد وردت أجزاء منه وبألفاظ مختلفة؛ انظر مثلاً: ابن ماجة، الزهد ٣٠؛ المعجم الكبير للطبراني ١٥٠/١٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٥/٤، ٤٣٩/٥؛ نوادر الاصول للحكيم الترمذي ٣٤٩/٢.

2) البخاري، التهجد ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

ويرمونه في وديان العدم، فيعاودون استشعار علاقتهم بنور الأنوار، مظهرين حقيقة قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤) سائرين في مدار "الأوب".

والتوبة التي هي تجديد الإنسان لنفسه باستمرار، أو رجوعه إلى صفائه الأصلي وانسجامه مع فطرته الذاتية، بعد تعرّضه لتشوهات طبْعية وداخلية، تحتوى كل مرتبة من مراتبها على أمثال الأمور الآتية:

١. الندم من أعماق القلب.

٢. تذكّر الأخطاء السابقة بارتعاش ورِعدة.

٣. إزالة المظالم ونصرة الحق.

٤. إيفاء الواجبات والتكاليف الفائتة حقَّها وإمعان النظر مجدداً في المسؤوليات.

٥. ملء الخواء الذي أحدثته الأخطاء والزلاّت في الروح، بالعبادة والطاعات واغتنام التضرعات في جوف الليالي.

٦. وبالنسبة للخواص وأخص الخواص: التحسر والبكاء على الحياة التي تمضي دون ذكر وفكر وشكر، والتأوّه والأنين وَجِلاً مما يمكن أن يتسرّب بقصدٍ شيءٌ مما سواه تعالى في الشعور والفكر.

إن الذي لا يئن ولا يتوجع من الخطأ مهما كان مستواه في أثناء التوبة ولا يرتعش نادماً من عثرات يمكن أن تحدث، ولا يشعر باشمئزاز ولا يتملّكه الازدراء نحوها، ولا يرتعد من احتمال وقوعه تحت خط الاستقامة مرة أخرى – رغم كل شيء– نتيجةَ بُعده عن الله سبحانه، ولا يحاول التخلص مما وقع فيه من أخطاء وزلاّت في عبوديته لله وتخلّقه بالعبودية.. يكون كاذباً في توبته.

وعن "النصوح" رمز التوبة الحقيقية، يقول مولانا جلال الدين الرومي الآتي:

تُوبه اى كَرْدَمْ حَقِيقَتْ بَا خُدا   نَشْكَنَمْ تَا جَانْ شُدنْ اَزْ تَنْ جُدا

بَعْدَ ازان مِحْنَتْ كِرا بارِ دِگر   پا رَود سُوى خَطَرِ إلا كه خَر [1]

يعني: "لقد تبتُ إلى الله توبة حقيقية بحيث لا أتراجع عنـــها إلى أن يفـــارق الروحُ الجسد. فلا يخطو بعد تلك المحنة إلى الهلاك والخطر إلاّ الحمار".

أجل، التوبة قَسَمُ الفضيلة وعهدُها. والثباتُ عليهـــا بطولـــة وشـــأن إرادة حازمة، فمن راعى أصول التوبة وثبت عليها فله مرتبة الشهداء، كمـــا أخـــبر بذلك سيد الأوابين.[2] ويخبر كذلك أن من لا يتخلص كلياً من الآثام والخطايا رغم كثرة قيامه بالتوبة فإنه يهزأ بالباب الذي يتوجه إليه التوابون والأوابون.[3]

نعم، إنه ليس جاداً في دعواه من يقول: أخـــاف جهـــنم، ولا يتجنـــب الذنوب. ويقول: أنا مشتاق إلى الجنة، ولا يعمل صالحاً. ويقـــول: أحـــب الرسول ﷺ ويهمل السنن النبوية. كما أن من الصعوبة بمكان قبول إخـــلاص الذين ينقضون عهودهم ويمضون حياهم في اجتراح الآثام، وتوبات صـــورية. حتى لكأن توبتهم هذه مجرد توقفات في ثنايا المعاصي.

إن أول منـــزل للسالك وأول مقام للطالب هو "التوبة". أما مقامه الثـــاني فهو "الإنابة". ونمر مرّ الكرام على الإنابة الشائعة بين الصوفية وهـــي الأصـــول والآداب والأعراف المتبعة في مراسيم الانتساب إلى أي مرشد، فنقول:

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٥/ص٨٠٥/ب٢٣٢٤-٢٣٤٥.

٢) انظر: المسند للديلمي ٧٦/٢.

٣) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ٤٣٦/٥٢؛ المسند للديلمي ٧٧/٢.

مثلما أن في التوبة توجيهاً للشعور والفكر والسلوك من المخالفات إلى الموافقات ومن المعارضات إلى المطابقات، ففي الإنابة محاسبةٌ وتفقّد لمطابقات الفرد وموافقاته الموجودة. فلئن كانت التوبة سياحة في أفق "السير إلى الله" فالإنابة هي "السير في الله" و"الأوبة" معراج في رحاب "السير من الله".

ويمكن أن نعرّف أيضاً هذه التوجهات الثلاثة بالآتي:

إن الالتجاء إلى الله خوفَ العقوبة، هو التوبة. والفناء في الله برغبة الحفاظ على المقامات والدرجات هو الإنابة. والانغلاق تجاه كل ما سواه تعالى هو الأوبة.

فالأول: صفة جميع المؤمنين، وأذانُهم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور: ٣١) من جميع الزلاّت والخطيئات.

والثانية: صفة الأولياء والمقرّبين، وإقامة عبادهم من حيث المبدأ ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٤) ومن حيث المنتهى ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: ٣٣).

والثالثة: خاصية الأنبياء والمرسلين، وشعارهم ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤) فهذا تقدير وتكرمة إلهية. فلا توبة لمن هم في معية الله في كل وقت حيثما كانوا وكيفما كانوا غير فاقدين للشعور بالحضور الإلهي ولو للحظة. لذا فكلماتهم المعبّرة عن التوبة تفيد معنى "الأوبة" أو "الإنابة". فلا يمكن فهم قول سيد الأنام ﷺ: (وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[1] إلاّ على هذه الصورة.

---

١) البخاري، الدعوات ٣؛ مسلم، الذكر ٤١؛ الترمذي، تفسير القرآن سورة محمد.

ومن ناحية أخرى فالتوبة هي لمن لا يعرف "القرب" و"المعية"، لأن الـــذين يديمون حياتهم في آفاق القرب، يعدّون الرجوع إلى الله المهيمن علـــى جميـــع تصرفاتهم والرقيب على كل ما يعملونه والأقرب إليهم من كل شيء، يرونه – بمعناه لدى العوام– غفلة. فهذه المرتبة ليست مرتبة أهل وحدة الوجود بل أهـــل وحدة الشهود، بل هي مرتبة أعلى منهما وأرفع، فهي مرتبة السائرين في ظـــل مشكاة محمد وسنة أحمد عليه أكمل التحايا وأتم الصلوات.

ومن هنا فتكلم الذين لم يبلغ مستواهم هذه المرتبة، وهـــم غـــارقون في "الطبيعة" منهمكون بـــ"الوجود"، وذكرهم "الأوب" و"الإنابة" ولا ســـيما حول منتهى هذه المقامات، كَلِمَات شَوَارِد تُكَالُ جُزَافًا.

اللّهم اجعلنا من الذين آمنوا وتابوا وأصلحوا إنك غفور رحيم،
وصلّ وسلّم على محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحاسبة



المحاسبة، أو محاسبة النفس ومناقشتها؛ هي تفقّد المؤمن عمله كل يوم، كل ساعة، خيراً كان أم شراً، صحيحاً أم خطأً، إثماً أم ثواباً، وتدقيقه له، ومقابلته بالشكر على ما صدر منه من حسنات وخيرات، وسعيه بالاستغفار لإزالة الآثام والعثرات، ومحاولته بالتوبة والندامة إصلاح السيئات والزلات. ومن هنا تعدّ المحاسبة همّة وجهداً في غاية الأهمية وتشبثاً جاداً في إثبات الإنسان لكينونته الذاتية.

كان السلف الصالحون يدوّنون أعمالهم اليومية وأطوارهم أو يحفظونها في ذاكرتهم كما سجّلها صاحب (الفتوحات المكية)، ومن ثم يستعملون بدقة متناهية ما يعدّونه شيناً يورث قلقاً قلبياً واضطراباً وجدانياً، يستعملونه تجاه ما قد يحصل في نفوسهم في المستقبل من عواصف الغرور ودوامات العجب. وفي الوقت نفسه يحتمون بالاستغفار مما يعدّونه إثماً، مستجيرين بحَجْر التوبة الصحي تجاه فيروسات الأخطاء والزلاّت. وفي نهاية المطاف يتذللون في انكسار وخضوع شكراً لله تعالى على ما قاموا به من حسنات.

ويمكن أن نعرّف المحاسبة أيضاً بأنها اكتشاف الإنسان بنفسه، جوانبَه اللدنّية وعمقَه الداخلي وسعة معناه وروحه، ومعرفته لهذه الجوانب، ومن ثم القيام

بتحليلها وإظهار مكنونها. فهي بهذا المعنى جهدٌ روحي، ومخاض فكري في سبيل استخراج قِيَم الإنسان الحقيقية، وإنماءٌ للمشاعر التي هي أسس هذه القيم والحفاظ عليها. ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على استقامة الوجدان إلاّ بمثل هذا الجهد والفكر، اللذين يمكّنانه من التمييز بين الخير والشر، والجميل والقبيح، والنافع والضار، مما يتعلق بأمسه ويومه وغده.

أجل، إن تقييم الفرد لوضعه الحالي وهيّوءه للمستقبل، وتلافيه الأخطاء التي ارتكبها في الماضي وتطهّره منها لدى الحق تعالى؛ واكتشافه لقيمته الحقيقية بتفقّده لنفسه في أمسه ويومه وغده؛ والأهم من هذا تجديد عالمه الداخلي باستمرار، من حيث علاقته بالله تعالى، لا يكون إلاّ بعد محاسبته لنفسه محاسبة صارمة دقيقة. ذلك لأن محتواه الذي هو فوق الزمان ومشاعره المقيدة بالزمان، مرتبطتان ارتباطاً قوياً بحياته القلبية والروحية وببقائه مستشعراً بما أنعم الله عليه من نعم لدُنّية.

هذا ولا يمكن للمسلم أن يستغني عن المحاسبة قطعاً، سواءً من حيث حياته القلبية والروحية أو من حيث أطواره وأحواله العامة. فهو من جانب يسعى لإحياء ما فرّط في أمسه وإقامة ما انهدم من أركان ماضيه الذي تغافل عنه، بما يسمع في أعماق وجدانه من أصداء نفحات إلهية آتية من الماوراء (الغيوب) بأداء ملؤه الأمل وبلهجة مفعمة بالرحمة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ﴾ (النور:٣١) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر:٥٤).. ومن جانب آخر يتيقظ بتنبيهات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨) التي تُرعد كالصواعق، وتبشّر كالرحمة، فتدفع بالإنسان إلى تفحص نفسه وتنظيمها مُعرضاً عن جميع السيئات

ما وسعه ذلك.. فيقيّم آنه الحاضر كأنه فصل ربيع وموسم إخصاب، مُكـــسباً كل لحظة من لحظات ذلك الآن عمقاً آخر، بالبصيرة وبالشعور الـــذي يبعثـــه الإيمان.. وإن واجه عارضاً جسمانياً بين حين وآخر وتزعـــزع، فهـــو حـــذر متأهب في كل آن كالمتقين الذين تخفق صدورهم بالمهابة والخشية من الله، وفق البيان الإلهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُـــمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

المحاسبة، كالقنديل في عالم المؤمن الـــداخلي، وكالناصـــح الأمـــين في وجدانه، يميّز بها الخير عن الشر والحسن عن القبح، وما يحبّه الله عمّا لا يحبه. وبريادة ذلك الناصح الخيّر وإرشاده يقتحم ما لا يُقتَحَم من عقبات ويبلـــغ هدفه دون مبالاة بالعوائق.

والمحاسبة في مواضيع الإيمان والعبودية والتوفيق والقربية ونيـــل الـــسعادة الأبدية تدور بمحض العناية الإلهية والرحمة الإلهية.. وهي الخصم اللدود للأمان التام مثلما هي لليأس. أجل، إنها مفتوحة كلياً على السكينة والاطمئنان، كما تتمحور على الخوف والقلق والاضطراب. ففي ربـــوع القلـــوب المخـــضلّة بالخشوع، المتفتحة للمحاسبة تُرجِّعُ دائماً صدى أنين : (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَـــمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)[1].. وفي إقليمها حيث تعيش الطمأنينة والمهابة مندمجة، تدوّي انكسارات الأفذاذ الذين أنقضَت المسؤوليةُ ظهـــورَهم بـــــ (لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ)[2].. وهم يشعرون كل آن كأن قوله تعالى:

---

١) مسلم، الصلاة ١١٢؛ البخاري، الكسوف ٢؛ الترمذي، الكسوف ٢؛ ابن ماجة، الزهد ١٩.

٢) انظر: الترمذي، الزهد ٩؛ المسند للامام أحمد ١٧٣/٥. لكلام أبي ذر ﷺ بعد ما نقل الحديث السابق.

﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (التوبة:١١٨) قد وردت بحقهم.. ففي كل جزء من أجزاء دماغهم يرنّ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ (البقرة:٢٨٤). وتنطلق ألسنتهم بصراخ: (يَا لَيْتَنِي لَمْ تَلِدْنِي أُمِّي).[١]

ولا شك أن المحاسبة بهذا المقياس أمر صعب عسير، ولكن الذي لا يحاسب نفسه بهذا المستوى لا يمكن أن يستثمر الزمان، فلا يتميز يومُه عن أمسه ولا غده عن يومه. فمن يهدر الزمان فلن يبدي فعالية وكفاءة أخروية البتة.

إن محاسبة النفس باستمرار ومعاتبتها هي من كمال الإيمان، وكل روح تستهدف أُفق "الإنسان الكامل" ووضعت خطتها وفقه، هي في شعور تام بحياتها المعيشة، فيقضي صاحبُها دقائق عمره في مجاهدة مع نفسه، حتى أنه يسأل الشفرة (أو كلمة السر) عن كل خاطر يمر على قلبه، ويطالب تأشيرة الدخول لكل فكر يرد إلى عقله، ويراقب مراقبة دائمة نفسانيته –أي التي تداخلت فيه النفس– وأعماله المفتوحة للشيطان ولتوتر الأعصاب والحدة الحساسية. بل كثيراً ما يحاسب نفسه على أجلّ حالاته وأفضل أطواره.. ويحرّك كل صباح ومساء ما في يده من مكوك لحياكة المحاسبة بين لُحمة اللوم وسَداه ساعياً بهذه الحالة الروحية حياكة نسيج حياته الرقيقة.. فيعيد كل مساء استعراض نواقصه وأخطائه ويدققها، ويستقبل كل صباح ساداً أبوابه للآثام ويفتح صفحة جديدة بعزم جديد.

وهو في مثل هذا الوفاء والتواضع والمحوية،كلما طأطأ رأسه ومسحه بتراب

---

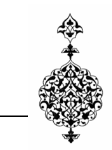
١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٣٦٠؛ المصنف لابن أبي شيبة ٧/٩٨، ١٥٢؛ شعب الإيمان للبيهقي ١/٤٨٦. حيث يسند هذا الكلام إلى سيدنا عمر، أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل وأمثالهم ﷺ.

قدمه ساجداً خاشعاً منكسراً ذليلاً، تفتّحت له أبواب السماء على مـــصاريعها، فيقال له: "تعال أيها الصادق، أنت من الخواص وقد شهدنا لك أنك من أهـــل الوفاء، فهذا موضع الخواص" فيتشرف كل يوم بسياحة سماوية أخرى.

وفي الحقيقة، أليست هذه الروح التي هي أصفى الصفاء وأنقى النقاء هي المقصودة في قَسَم الرب الجليل: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:٢)؟

اللّهم يا أرحم الراحمين نجّنا من الكرب العظيم، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد الشفيع يوم الدين وعلى آله وأصحابه الكرام البررة أجمعين.

التفكر



التفكر في أي موضوع من المواضيع، يعني إعمال الفكر إعمالاً واسعاً وعميقاً ومنظّماً. ولدى أربابه هو زناد القلب، وغذاء الروح، وروح المعرفة، ودم الحياة الإسلامية وروحها وضياؤها. فإن انعدم التفكر أظلم القلب، واضطربت الروح، وتحولت الحياة الإسلامية إلى موات هامد.

التفكر هو نورٌ في القلب، وأيّ نور، به يميّز الخير عن الشر والنفع عن الضر والحسن عن القبح، وبه تتحول الكائنات إلى كتاب يُقرأ، وبه تكسب كل آية جليلة عمقاً خاصاً بها.

التفكر مصباح يضيء الحوادث، للاعتبار واستنباط النتائج المتنوعة منها.. وهو مفتاح ذهبي للتجارب.. ومشتل لأشجار الحقيقة.. وبؤبؤ نور القلب. ولأجل هذا فالإنسان الأُفق ﷺ الذي تسنّم الذرى في كل شيء حسن جميل، استولى في التفكر على الذروة بقوله: (تَفكَّروا في آلاء الله ولا تَفكَّروا في ذاتِه، فإنّكُم لَن تَقْدروا)[1] إذ وضّح لنا حدود ميدان ما يمكن أن نفكر فيه، مذكّراً بقوتنا وإمكاناتنا وقدراتنا.

---

١) المعجم الأوسط للطبراني ٦/٢٥٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ١/١٣٦؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١/٨١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/٦٦؛ كشف الخفاء للعجلوني ١/٣٧٠-٣٧١.

وكم هو جميل ما قاله "صاحب المنهاج" تذكيراً لنا بهذا المعنى:

دَر آلاء فِكر كَردن شَرطِ راهست

وَلى دَر ذاتِ حَق مَحضِ گُناهست

بُوَد دَر ذَاتِ حَق اَنديشه بَاطِل

مُحالِ مَحِض دان تَحصيلِ حَاصل[١]

أي: إن التفكر في النعم هو شرط هذا الطريق، ولكن التفكر في ذاته تعالى إثم مبين. نعم، إن التفكر في ذاته تعالى باطل بيّن، فاعلم أنه محال محض وتحصيل حاصل.

وفي الحقيقة، أليس القرآن الكريم يوصينا بآياته الجليلة أمثال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (آل عمران:١٩١).[٢] إلى أفضل طريق للتفكر، وذلك بعرضه كتاب الكائنات أمام أنظارنا، وإظهاره كيفية كتابته وخواص حروفه ومزايا كلماته ونظام جمله وانتظامها، ورصانة هيئته العامة وقوتها.

أجل، إن التوجه إلى كتاب الحق تعالى في كل تفكر، وفي كل تصور، وفي كل حال وطور، والسعي لتدبّره وإدراكه، ومن ثم تنظيم الحياة وفق فهمنا هذا وامتثاله في حياتنا المعيشة، يجعل الحياة كلها ذات مذاقٍ روحاني؛ إذ إن كشف الأسرار الإلهية في كتاب الكائنات وإظهارها، يمنح الإنسانَ

---

١) البيتان للشاعر (الشبستري) في ديوان (كلشن راز).

٢) وانظر كذلك السور: الرعد: ٣؛ النحل: ١-٦٥،١٨-٧٢؛ الروم: ١٩-٢٧؛ الجاثية: ١٢-١٣ وأمثالها.

كل آن عمقاً إيمانياً آخر -فوق إيمانه- وتلوناً روحياً يرتشف مذاقــه، هــذا الكشف الجديد والنتائج المستخلصة منه نور يمتد من الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى المحبة، ومن المحبة إلى لذائذ روحانية، ثم المضي قُدُماً إلى الآخــرة ورضوان الله تعالى. فهذا هو الطريق المنور ليصبح السالك إنساناً كاملاً.

التفكر مفتوح على جميع العلوم حيث إنها ميدان بحثه وتنقيبه، إلاّ أن العلوم العقلية والتقريرات الوضعية ما هي إلاّ مقدمات لهذه النتيجة العظيمة وواسطة لها وطريق إليها.. وهذه جميعها متوجهة بمحتواها الحقيقي وبوجهها الــصائب إلى العلم الإلهي الواحد، إن لم يُسقم دماغ الإنسان بمعالجات خاطئة.

نعم، إن التفكر في الموجودات ومطالعتها ككتاب، إنما يثمــر الثمــرة المرجوة منه، ويكون موضع واردات ذات بركة، بالإيمان بالله وأنه ســبحانه هو خالق جميع الأشياء بجميع متعلقاتها، وهذا هو شعار روّاد الحياة القلبيــة وأبطال الحياة الروحية الذين أدركوا يقيناً أن كل شيء يستند إلى الله وحده بجميع أحواله وكيفياته فبلغوا الاطمئنان بمعرفة الله ومحبة الله وذكر الله.

والتفكر الذي لم ينظّم من البداية أي لم يؤسس على إسناد كل شــيء إلى الحق سبحانه، وإنما يتناهى إليه تعالى بعد لأيٍ في النتيجة ، يقابله التفكر المخطط له من البداية على أساس أن الخلق والأمر وكل شيء يستند إلى الله تعالى. هــذا التفكر يجري ويستمر إلى اللانهاية بأبعاد جديدة دون انقطاع قط. بمعنى أن مثل هذا التفكر الذي يبدأ من الله سبحانه باسمَيْه "الأول والظاهر" ومن ثم يتوجه إليه تعالى أيضاً باسمَيْه "الآخر والباطن" ليس متناهياً بل غير متناه. ومن هنا فالحــث على هذا النمط من التفكر الذي توضَّح هدفُه منذ البدايــة، فيــه إرشــاد إلى

استعمال مناهج العلوم الطبيعية وتعلّم أصولها التي تحاول تقرير شكل الوجـــود وتشخيص تجليه.

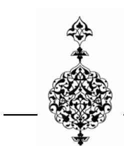
أجل، لما كانت السموات والأرض بجميع أجزائها ومركباتها ملك الله تعالى، فإن مطالعة أي حادثة وأي شأن وأي نظام في كتاب الموجـــودات، تعني قراءة أحكام الخالق العظيم وكيفيات تصرفه في شريعته الفطرية. ولا جرم أن طريق من يقرأ هذا الكتاب حق قراءته وينظم حياته وفق ما قـــرأ سيكون طريق هداية وتقوى، وسيكون مثابه الجنة وشرابه الكوثر. ذلـــك لأنه، مقابل أصحاب الهلاك والخسران الذين يجولون في وديان الكفـــران بدلالة إبليس غافلين عن الله المولى الحق لأنواع النعم والآلاء وألوان الحسن والجمال في الدنيا، هناك من يعرف المنعم الحقيقي والمالك لكـــل شـــيء، ويؤمن به ويخضع له بشعور إيماني يجول في دائرة بـــين الـــشكر والنعمـــة والنعمة والشكر، بريادة الملائكة وقيادة الأنبياء والصديقين ويمضي عمـــره هكذا كـــ"باز التفكر"[1] يحوم فوق قمم الأفكار، فيحلّق عاليـــاً فـــوق الوديان نفسها التي تتساقط فيها الجموع الغافلة ويتردى فيها الهـــالكون.. فيوفي بهذا التفكر حق ما ناله من ألطاف ربه الجليل. وإن اعترضه عائق في عالم الفكر اجتازه ببُعد الذكر، فيمر من التدبير إلى التسليم، ومن التمكين إلى التفويض، ويبلغ هدفه طائراً في السموات بينما الآخـــرون في الأرض أسرى المسافات.

---

١) يستعمل المؤلف المحترم اسماً لطير يحلّق عالياً وبانسيابية بديعة، فوجدنا أقرب الطيور إلى ما يقصده هو الباز. (المترجم)

اللّهم اجعلنا من الذين يذكرونك قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، وصلّ وسلّم على سيد المتفكرين وعلى آلـــه وصحبه المخلَصين.

الفرار والاعتصام



الفرار هو الهرب من شيء والابتعاد عنه. ولدى أربابه أصبح عنواناً للسير من الخَلق إلى الحق سبحانه، والالتجاء من الظل إلى الأصل، وترك القطرة والتوجّه إلى البحر، وترك الذرة والتوجّه إلى الشمس، والانسلاخ من الأنانية وإذابة الوجود في أشعة الحق تعالى، بحيث يمكن أن تربط هذه كلها بما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ (الذاريات:٥٠) من "السير القلبي والسير الروحاني" للإنسان. وكلما ابتعد الإنسان في سبيل إيمانه عن جو الجسمانية القاتل تقرّب إلى الله تعالى وكان مؤدياً طوراً معقولاً لذاته موقراً لها.

ولمعرفة كيف يترقى مثل هذا الفارّ الملتجئ إلى الحق سبحانه، نستمع من العبد الصادق لدى ذلك الباب الإلهي، سيدنا موسى -على نبينا وعليه السلام- قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء:٢١) الذي يلفت النظر فيه إلى أن الطريق الموصل إلى الذوق والوصال والخلافة والقرب إنما يمرّ من الفرار. وبقوله هذا يؤدي دور الريادة والإرشاد لإرادات تقتفي أثر النبوة.

إن فرار العوام هو الاحتماء من ضيق الوجود وضجيجه وقبح المعصية إلى رحاب الأُنس بالله وجميل غفرانه جل جلاله. فهؤلاء يتْلُون في كل طرفة

عين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون:١١٨) ويـــرددون في كل حركاتهم وســـكناتهم: (أَعُـــوذُ بِـــكَ مِنْ شَـــرِّ مَا صَنَعْتُ).[١]

أما فرار الخواص، فهو من الصفات إلى الصفات، ومن السر إلى الـــشهود، ومن الرسوم إلى الأصول، ومن حظوظ نفسانية إلى مشاعر روحانية، حتى يغدو وِردُهم الدائمي: (اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ).[٢]

وأما فرار أخص الخواص فهو من الصفات إلى الذات، ومن الحق سبحانه إلى الحق تعالى، فيقولون دائماً: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْك)[٣] ويعيشون في جو الهيبة والمهابة.

وهذه الأنواع من الفرار تنتهي إلى التجاء، إلى حماية، إلى اعتصام. فكما يتناسب الفرار طردياً مع العمق الروحي للفارّ، فالنقطة التي يبلغها من حيث النتيجة متفاوتة أيضاً:

فالأوائل: ينصبون أخبيتهم على سفوح المعرفة، ويذكرون الله ســبحانه في كل شيء، من الذرات إلى المجرات. فيطلبـــون مطالـــب تعجـــز عنـــها الموازيـــن ويبدأون بطلب مـــا لا يمكن وقوعـــه، وإذا بهـــم يجـــدون في وجداهم مصداق (مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ)،[٤] فيرددون في ذهول:

اِعْتِصَامُ الْوَرَى بِمَعْرِفَتِكَ   عَجَزَ الْوَاصِفُونَ عَنْ وَصْفِكَ

تُـــبْ عَلَيْنَا فَإِنَّنَا بَشَـــرٌ   مَـــا عَرَفْنَاكَ حَـــقَّ مَعْرِفَتِكَ

---

١) البخاري، الدعوات ٢؛ الترمذي، الدعوات ١٥.

٢) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٦؛ أبوداود، الصلاة ٣٤٠ (واللفظ هنا منه).

٣) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٦.

٤) انظر: فيض القدير للمناوي ٢/٤١٠؛ أقاويل الثقاة لمرعي بن يوسف ٤٥.

والثواني: يطلقون في كل آن أشرعتهم في بحرٍ آخر للمعرفة، فيمـــضون عمرهم بتلونات واردات متنوعة. ولأنهم لم ينجوا من البرازخ يعجزون عـــن بلوغ أُفق الحيرة التامة. فيرنون بأبصارهم كل آن نحو مراتب الصعود ويطيرون من مرتبة إلى أخرى مرتعدين من تصور السقوط.

والثوالث: هم الناجون من موجات مَدّ "الحال" وجَـــزره. رؤوســـهم غارقة دائماً في عمق آخر من أعماق الحيرة، وعيونُهم تحدق ذابلة بـــشراب "عين ماء"[1] فيبلغون من النشوة مبلغا قد لا يفيقون منـــها حـــتى بـــصور إسرافيل. ولا يمكن أن يعبّر أحد عن مدى عمق أفكارهم وسريان تخـــيلاتهم إلاّ مَن ذاق ما ذاقوا من نشوة.

آن خِيَالاتي كه دَامِ اَوْلِيَاسْت عَكسِ مَهْ رُويَانِ بُستَانِ خُدَاسْت[2]

يعني: إن الخيالات التي هي شِباك الأولياء، إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في بستان الله.

المقصود من (بستان خدا): مرتبة الواحدية. والمراد من (مـــه رويـــان): أسماء الله وصفاته الجليلة التي تتميز في مرتبة الأحدية. وعلى هذا يمكـــن أن نفهم المسألة كالآتي:

"إن الشِباك التي تلتف بأقدام الأوليـــاء ليـــست إلا تجليـــات الأسمـــاء والصفات، وما هي إلاّ خيالات لدى فاقدي الأبصار الموصدة أبـــوابُهم في

---

١) لعل المقصود: "عين الحياة هي باطن اسم الحي. فمن تحقق بذلك الإسم يشرب من ماء الحياة فلا يمـــوت ابداً". كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١٢٤٤/٢.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص١٦/ب٧٢.

وجــه الحقيقة". وبعبارة "صاري عبد الله أفندي":

"إن مرايا قلوب الأنبياء والأولياء، مع أنها مظاهر ومعــاكس الأسمــاء والصفات الكلية الإلهية، فإن الصفات الربانية تغدو بستاناً لوجوههم الــنيرة كالقمر، يسحرهم كل آن بسحر جديد".

والخلاصة: إن هؤلاء قد فرّوا من كل ما يجب أن يفروا منه، إلى ركن شديد كما هو مضمون الآية الكريمة ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة :٢٥٦). فلا انفصام لهم عنها ولا انقطاع بــإذن الله. ذلــك لأن الــذي يتوجهون إليه، ويلجأون إليه، هو الموجود الحق، دائمٌ باقٍ من الأزل إلى الأبد، بصير بكل شيء، رقيب على كل شيء، وهو الكبير المتعالي الحــق. فهــؤلاء وجدوه، واعتصموا بحبله المتين، لذا فهم في منجىً من الهلاك والتنكــب عــن الصراط والانفراد والتنائي، ذلك لأن ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُــواْ يُخْــرِجُهُم مِــنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).. فتتبدد الظلمات التي تحيط بهم مــن كــل جانب وتزول، فتبصر العيون الحقيقة بجلاء، وتسمعها الآذان بوضوح، وتغــدق عليهم السماء نجوم الابتسامات، وتسربلهم الأقمار والشموس بسرابيل أُخروية، فيغدو كل شيء كتاباً بديعاً يُقرأ، ومنظراً رائعاً يُشاهد.. من الذرات إلى المجرات. ويأتي الربيع الطلق يختال ضاحكا مسروراً، ويُسمع الصيفُ مشاعرنا أنغاماً عذبــة ندية... فتُمحى الآلام وتزول الأوجاع، وتتفجر من كل جانب أذواق روحانية، ويستشعر الإنسان معاً حظوظ عيشه ويتذوق أذواق وجوده كإنسان.

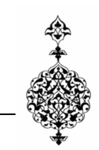
فالذين يريدون تذوّق هذه النشاوى الروحيــة اللامتناهيــة إلى الأبــد، يُنظّمون هجرات فائقة جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده ومما

نهى عنه إلى ما أمر به ومما لا يحبه ولا يرضاه إلى ما يحبه ويرضاه. فيعيـــشون في فرار إليه تعالى، لا يقرّ لهم قرار إلاّ بإسناد كل شيء إليه سبحانه، وهـــذا هو الاعتصام الحقيقي.

اللّهم إني أسألك من خير ما سألك به نبيك محمد ﷺ،

وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ.

الخلوة والعزلة



الخلوة والعزلة، تأتيان بمعنى: الانفراد بالنفس. وبتعريف آخر: الانزواء تحت إشراف أي مرشد أو دليل للتعبد.[1] وتفسير آخر: هي عنوان آخر للمحاورة والصحبة مع الحق تعالى بلسان اللطائف منغلقاً كلياً تجاه جميع ما سواه تعالى، وذلك بتصفية القلب من الاعتقادات الباطلة، والأحاسيس المظلمة، والتصورات السيئة، والتخيلات التي تُبعد عن الله سبحانه.

والعزلة هي بُعدٌ من أبعاد الخلوة، والرياضات بعدٌ آخر لها. وقد قيل "الأربعينية" حيث المرتبة الأولى للخلوة أربعين يوماً. والمرشد أو الدليل في أثناء إدخاله المريد أو المرشّح إلى الخلوة يصحبه إلى باب غرفته، وهناك يدعو الله له، ثم يفترقان. فينفرد المريد في تلك الغرفة ويعيش ما يشبه حياة المعتكف، حيث يأكل بقسطاس ويشرب بميزان مقللاً من حاجاته البدنية إلى أدنى حدٍّ ممكن. ويحاول نسيان رغباته الجسمانية بصورة عامة، بالانشغال – دون توقف ليل نهار– بالذكر والفكر، وهذه الخلوة تعدّ باباً من أبواب التقرّب إلى الله سبحانه.

والخلوة قديمة، بل ضاربة في القدم، وذلك بمعناها العزلة عن الخلق وأخذ النفس بالرياضات؛ إذ هي موجودة في جميع الطرق الصوفية تقريباً، حتى

---

١) ليس هنا موضع تحليل المعاني الأخرى التي تنطوي عليها الخلوة المقابلة للجلوة.

يمكن سحبها إلى عهود الأنبياء العظام عليهم السلام.

ففي المقدمة فخر الإنسانية ﷺ وكثير من الأنبياء والأولياء قد زاولوا الخلوة والعزلة. بيد أنه مثلما لم يؤخذ الطرز والنظام نفسه أو عُجز عنه، لم تحافظ على أصالتها محافظة تامة، فتبدلت ولو قليلاً، حيث أُفرغت في قوالب مختلفة، فعزلة سيدنا إبراهيم(١) وأربعينات سيدنا موسى(٢) ورياضات سيدنا المسيح(٣) وخلوات سلطان الأنبياء(٤) وأمثالهم كثير.. (عليهم السلام جميعاً) قد تعرضت للتغيرات والانكسارات، وتبدل قسمٌ من ماهياتها تحت ظروف مختلفة وأوساط متباينة، وبتطبيقات متغايرة على أمزجة متنوعة. وما كان يمكن أن يحدث غير هذا، لأن الخلوة لها علاقة قوية بالبناءِ الروحي للأشخاص وبأمزجتهم ومذاقاتهم وسجاياهم واستعداداتهم الروحانية. ولهذا فالمرشدون الكاملون هم الذين يعلمون مَن يُكلَّف بالخلوة وكيف وإلى أي مدى.

وقد زاول مولانا جلال الدين الرومي في عهوده الأولى كثيراً من "الأربعينات" ولكن لما وجد مرشده ترك الخلوة واختار الجلوة.(٥) وقد سار الكثيرون قبله وبعده في الطريق نفسه.

إن الرياضات بُعدٌ للخلوة وهي إلجام النفس تجاه الرغبات البدنية وحث الروح المشتاقة إلى المعالي، نحو سماء الكمالات الإنسانية. نعم، بالرياضات

---

١) انظر: سورة مريم: ٤٨.

٢) انظر السور: البقرة: ٥١؛ المائدة: ٢٦؛ الأعراف: ١٤٢.

٣) انظر: ابن ماجة، الأشربة ٢٥؛ المصنف لابن أبي شيبة ٣٤٠/٦، ٢٤٤/٧؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٢/٧.

٤) انظر: البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

٥) **الجلوة**: معاشرة الخلق وتقابل الخلوة. (المؤلف)

وحدها يمكن إلجام النفس، وبالرياضات يمكن أن تُدفع النفس إلى ترك ما افتتنت به من الأحاسيس، وبالرياضات يمكن أن تُقحَم النفس مضطرة إلى التسليم والانقياد، وبالرياضات يمكن أن تعوَّد النفس على التواضع والمحوية، حتى تكون تراباً تطأه الأقدام، وهذا هو طريق استنبات الأزهار:

خَاكْ شَوْ خَاكْ بِرُويَدْ بَا تُو گُلْ

كِه بَجُزْ خَاكْنِيسْت كَسْ مَظْهَرِ گُلْ

أي:

وكن أرضاً لينبُتَ فيك وردٌ فإنّ الوردَ مَنبِتُهُ الترابُ

وبطريق الرياضات يمكن أن ينال كل فرد ألطافاً معينة.. منهم الذين يهذّبون الأخلاقَ بالعلم والعملَ بالإخلاص ويبلغون شعور الأدب في معاملاتهم سواءً مع الله سبحانه أو مع الخلق.. ومنهم الذين يجدون أنفسهم دائماً في مدّ وجزر لدى معاملاتهم مع ربهم، ويبحثون بحثاً دؤوباً عن طرقٍ تقرّبُهم أكثر إلى ربهم الجليل من دون أن يدعوا لحظة تفوتُهم.. ومنهم من ينسلخ من غلافه الصلب -كما ينسلخ اليعسوب- ليديموا حياتهم في العوالم السماوية التي ارتقوا إليها تواً بين الروحانيين الذين هم فراشاتها.

إن الأصل في الخلوة هو الانتظار متهيئاً لتوجه منه سبحانه، ليل نهار، دون أن ترتد عين القلب نحو الأغيار قطعاً. هذا الانتظار في الوقت نفسه ليس أمراً سلبياً قط، بل هو انتظار ذو تمكين، يمضي مع آداب الخلوة مع الله وعيون القلب متفتحة بانفعال وحرص لئلا تفوتها الوارادات التي تسيل إلى القلب.

وكم هو جميل ما قاله "حسين أفندي اللامكاني":

طهّر عين القلب حتى يتصفى

حدّق إليه حتى يتفجر ينبوعا

دع الإنكار، ألزم خابية القلب تحت تلك العين

لتمتلئ بالماء الباعث على الصفاء

انسلّ من البين ودع بيته لصاحبه

ولينـــزلنّ الله إلى بيته ما إنْ تغادره

ولا تدع للشياطين مولجا

فطردهم يتعسر من بعدُ

ومعلوم أن الله سبحانه منـــزّه عن الزمان والمكان، ولكن معاملاته مـــع الإنسان تجري دائماً على سفوح القلب. وعليه لا بد أن تكون تلال القلب الزمردية مستعدة دائماً لاستقبال أمواج التجليات الآتية منه تعالى. وقد عبّر عن ذلك "إبراهيم حقي" قائلاً:

"القلب بيت الله طهّره مما سواه

لينـــزل الرحمن في الليالي على قصره"

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

"يا داود، إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري معاً".[١]

---

١) الرسالة للقشيري ٤٨٩.

أي: أفرغ لي ذلك البيت كي أكون هناك. وقد فهم البعض أن الإفراغ هو تطهير القلب وتصفيته من التفكير في الأغيار وإبعاده عن الملاحظات الغريبة، ومن العلائق التي لا تذكّر بالله ولا طائل من ورائها. فكلام جميل لمولانا الرومي يكون ضياءً لأفق تفكيرنا:

قعرْ چِه بَگُزِيد هَركِه عَاقِلَسْت زَانكِه دَر خَلْوَتْ صَفَاهَاي دِلَست

ظُلْمَت چِه بِهْ كِه ظُلْمتهَاي خَلق سَر نَبَردْ آن كَس كِه گِيرَد پَاي خَلْق[1]

خَلْوَت اَزْ اَغْيــار بَايَد نَه زِيَار پُوسْــتِين بَهرِ دَيْ آمد نَه بَهَار[2]

أي: كل مَن كان عاقلاً اختار قاع البئر، ذلــك لأن صــفاء القلــب في الخلوة. إن ظلمة البئر الدامسة خير من ظلمات الخلق، فما أفلح قط مَن اقتفى أثر الخلق. أي لم يصل النهاية ولم يطلع على السر. والخلــوة دون الأغيــار واجبة، لا دون المولى، فالفراء يُرتدى في أثناء الشتاء وليس إبان الربيع.

ولما كان المراد من الخلوة تطهير بيت القلب من الأغيار، والبقــاء مــع المولى دائماً. فإن أصحاب الأرواح التي هي بين الخَلق والموصولة مع الحــق سبحانه، وكذا أرباب القلوب التي تراقب التوحيد باستمرار حتى في أقصى نقاط الكثرة، يعدّون هم في الخلوة دوماً. بينما الذي قضى عمره في الخلــوة وعجز عن تطهير قلبه من الأغيار وقلعِ ما سواه تعالى منه ورميِه، فخلوتــه انخداع وهباء.

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٦٦/ب١٢٩٨-١٢٩٩.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٢/ص١٨٣/ب٢٥.

وفي الحقيقة ليس في الخلوة الماورائية تجرّد عن الخلق واعتزالهم، وحسب تعبير مولانا الرومي؛ إن الإنسان في مثل هذه الخلوة كالفرجـــال، إحـــدى ساقيه في أُفق اللاهوت والأخرى في قطب الناسوت، يعـــيش في كـــل آن عروجاً ونـــزولاً آخر معاً. وهذه هي الخلـــوة المعروفـــة لـــدى الأنبيـــاء والأصفياء.

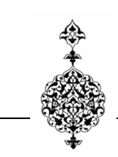
وقد أوحى الله تعالى إلى داود ﵇. فقال: يا داود مـــالي أراك منتبـــذاً وحيداً ؟ قال: إلهي قليتُ الخَلق من أجلك. فقال: يا داود كن يقظاناً وارتدِ لنفسك أخداناً وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه.(١) أي لمـــا كان هدفك نحن وعزمك في مقرنا فلا تفتح قلبك لغيرنا.

اللّهم اجعل سريرتنا خيراً من علانيتنا وأحسِن علانيتنا،
وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوي الصدق والإحسان.

---

١) إحياء علوم الدين للغزالي ٢ / ١٦٠.

الحال والمقام



الحال: هو عيش الإنسان في أعماق ذاته بنفحات ترد من عالم الغيوب، واستشعاره بتمايزات الليل والنهار والصباح والمساء التي تجرى في أفق القلب. فالذين فهموا "الحال" بما يحيط بقلب الإنسان، من طرب أو حزن أو بسط أو قبض، من غير جهد وسعي منهم، عبّروا عن دوامه واستقراره بـ"المقام"، وعن زواله وذهابه بـ"النفسانية".

وعلى هذا الأساس يمكن أن يُطلق على "الحال" أنه هبة إلهية، ونفحات الأنس في ربوع القلب. وعلى "المقام" أنه بلوغ الإنسان فطرة ثانية، باستنشاقه هذه النفحات بإرادته وعزمه حتى يملّكها ذاتَه.

و"الحال"؛ يشير إلى مصدر كل شيء دون ستار وحجاب، كما هو في الخلق والحياة والنور والرحمة، ويذكّر بالتوحيد الخالص، إذ يسوق الإنسان باستمرار إلى أن يكون في شدّ روحي وفي تحريات بديلة. بينما "المقام" يقرر ما يقرر ضمن منشور بلوري مثقل بضباب الجهد ودخان السعي، فيربط الحقيقة بعرش كمالاته. ولهذا فالشعور والحدس بالواردات التي ترد على القلب، وشقّ طريق صائب آخر كل لحظة، إلى مَن عُرف في القلوب بـ"كنتُ كنزاً" يُعَدّ طوراً أكثر إكراماً من واردات فيها شيء من حظوظ تعريف أنفسنا والتعبير

حسب لوننا. ولأجل هذا فقد قال سيدنا الـصادق المـصدوق ﷺ: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ)[1] مذكّراً بما هو المهم لدى الحق سبحانه، وطالباً توجيه المرآة إلى التجلي، حيث المحراب الـذي ينبغي التوجه إليه.

وفي رواية أخرى ذكر الأعمال مع القلوب فقال (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[2] تكرمة وتفـضلاً للمقام، لأجل دوام الحال الموصل إليه.

"الحال" هو التجليات التي ترد تترى في أوقات موافقة لمراد الإرادة الإلهية المطلقة.. ومجال انتشار هذه التجليات أفق القلـب.. والـشعور والحـس يقتنصانها ويفرغانها في قالب. ومن أجل هذا فـ"المقام" الذي هو مرتبة قـد سكنتْ موجاتُه واستقرت، يقابله "الحال" الذي هو في شبكة التأرجح بـين المدّ والجزر والمرتبط بالمقدرات العالية، فكل ظهور وورود يأتي في إطار آخر يختلف عمّا قبله، يظهر ويختفي باستمرار كـالحزم الـضوئية المختلفـة في الأطوال والألوان الآتية من الشمس.

فالأرواح والمشاعر المتنبهة للمعرفة الإلهية، ترى تموجات "الحال" علـى ربوع القلب، مثلما ترى انعكاسات الشمس على حبابات المـاء، تراهـا وتتحسسها وتقابلها بإدراكات مختلفة متنوعة. فالذين لم تُنظّم قلوبُهم تنظيماً بمعيار دقيق وظلت أرواحُهم منقطعة عن عوالمها، ربما يعدّون هذه الأمـور

---

١) مسلم، البر ٣٣.

٢) مسلم، البر ٣٤؛ ابن ماجة، الزهد ٩، المسند للامام أحمد ٢/٢٨٥، ٥٣٩.

أوهاماً وخيالات، في حين أنها أحق الحقائق وأجلى الظواهر لـــدى الـــذين ينظرون إلى الوجود بنور الحق المبين.

ولما كان أعظم من حظي بـــ"الحال" ﷺ يرى سابق حاله دون حاضره -زيّن الله قلوبنا بنور ذلك الحال الأوطأ- فإنه كـــان يقـــول: (وَاللهِ إِنِّـــي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً).[1]

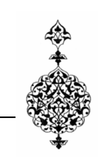
أجل، لا يمكن أن يفكر ذلك القلب الطاهر المطهَّر غير هذا التفكير في سفرته الأبدية المتوجهة إلى اللامتناهي وشعوره بالحاجة إلى النور الأبـــدي والبراق الأبدي.

اللّهم يا محوّل الحول والأحوال حوّل حالنا إلى أحسن الحال،
وصلّ وسلّم يا ربّ على سيدنا محمد المختار وآله وصحبه الأخيار.

---

١) البخاري، الدعوات ٣؛ الترمذي، تفسير سورة محمد؛ ابن ماجة، الأدب ٥٧.

القلب



"القلب بيت الله طهّره مما سواه

لينزل الرحمن في الليالي على قصره"

إبراهيم حقي

القلب هو القلب المعروف أو الفؤاد، ويستعمل بمعنيين اثنين:

الأول: هو العضو الحيوي الجليل، المودَع في الجانب الأيسر من الصدر، تحت الثدي الأيسر، الشبيه بالمخروط الصنوبري. يتميّز عن جميع ما في الجسد من الأعضاء، في تركيبه ونسيجه، حيث يحتوي على أذينين وبطينين خارقين. ولكونه مركزاً لجميع المشاعر والأحاسيس، ومرجعاً لجميع العروق والأعصاب، ومتحركاً بذاته بخلاف الأعضاء الأخرى، فهو عضو حيوي جداً، إذ يتحرك كالمحرك الآلي، في فعالية شبيهة بالمضخة الماصة الكابسة.

أما الثاني: فهو نظير الأول، ومثيله، وبُعدُه الملكوتي، وهو مركز الشعور والإدراك، والتحسس، والعقل، وقوة الإرادة. وهو لطيفة روحانية يسميها المتصوفون: "الحقيقة الإنسانية" والفلاسفة: "النفس الناطقة". وحقيقة الإنسان هو هذا القلب، ويطلق على الإنسان، بهذا البُعد المعنوي، اسم "العالِم" و"العارف" و"المدرك". والروح أساس هذه اللطيفة وباطنها، أما الروح البيولوجية فمَرْكبُها. هذه اللطيفة هي موضع خطاب الله والمطالَبة بتحمل

المسؤولية، وهي المعاقَبة والمكافأة كذلك، وهي المتعاليــة بالهدايــة والمترديــة بالضلالة، فتصبح عزيزةً أو تبدو مهانةً، وهي "المرآة المجلوّة" للمعرفة الإلهية.

القلب له خاصية المدرِك والمدرَك، وبوساطته يدخل الإنسان إلى روحــه وجسمه وعقله، فالقلب بمثابة عين الروح، والبصيرة نظرُه حــسب دنيــاه، والعقل روحه، والإرادة فاعليته الداخلية.

وعندما نقول "الفؤاد" بصــورة عامة نقصد به هذا القلــب الثــاني. – وبغض النظر عن الفرق بينهما وعن التعبير عن أحدهما بدلاً عــن الآخــر مجازاً– إن هذه اللطيفة الروحانية وثيقة الارتباط بالقلب الجسماني. أما كيفية هذه العلاقة فقد شغلت كثيراً الفلاسفة وحكماء الإسلام منذ القدم. وسواء أكانت هذه العلاقة علاقة مباشرة، أم بالواسطة، أم بفعالية القلب، أم مرتبطة بقابليته، فإن ما نحمله في صدرنا من القلب الظاهري وهو اللحم الصنوبري الشكل، واللطيفة الربانية التي هي رمز إنسانية الإنسان ومنبع حيــاة جميــع مشاعره، هما بلا شك وجهان لحقيقة واحدة، فهما متــداخلان منــدمجان. ولكن كيفية هذه العلاقة والارتباط يعتريها شيء من الــضبابية والغمــوض كما هي في القلب والروح والعقل والإدراك.

وهذا المعنى الثاني هو المراد على الأغلب حيثما جاء "القلب" في القــرآن الكريم والعلوم الدينية والأخلاق والآداب والتصوف، كما هو المقــصود في أهداف القلب الحقيقية وعلته الغائية التي هي الإيمان ومعرفة الله ومحبــة الله والذوق الروحاني.

القلب، جوهر نوراني عجيب، ذو جهتين، ينظر بالأولى إلى عالم الأرواح

دائماً، وبالأخرى إلى عالم الأجسام. فإن كان الجسم قد انقاد لأمر الروح ضمن الأوامر الشرعية الموحّدة، فالقلب يحمل الفيوضات التي أخذها بوساطة عالم الأرواح إلى البدن والجسم، فيثير فيه نسائم السكينة والاطمئنان.

القلب، موضع نظر الله سبحانه كما عبرّ عنه القدماء. بمعنى أن الله سبحانه ينظر إلى قلب الإنسان ويجري معاملته معه وفق قلبه كما جاء في الحديث الشريف "...وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ "[1] ذلك لأن القلب كالقلعة الحصينة لكثير من المزايا الحياتية للإنسان كالعقل والمعرفة والعلم والنية والإيمان والحكمة والقربة، فإن كان القلب حياً قائماً، فهذه المشاعر تكون حية أيضاً، وإن خرب وانهدّ ببعض المهلكات تعسّر دوام حياتية هذه اللطائف الإنسانية. وقد لفت الصادق المصدوق ﷺ الأنظار إلى مكانة القلب في جسم الإنسان وأهميته بقوله: (أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ).[2]

والجانب الأهم من هذا هو دلالة القلب إلى الحق تعالى بما في ماهيته من نقطتي الاستناد والاستمداد، وذلك بما يورد على وجدان الإنسان دوماً ما يعرّفه ويوضّحه كتابُ الوجود مفصلاً، بلسان الحاجة والاستجابة، حتى يُلفت الأنظار لهذا البُعد اللاهوتي للقلب بكلام طّيب يُروى كحديث شريف،[3] وعبّر عنه إبراهيم حقي نظماً بالآتي:

---

١) مسلم، البر ٣٤.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧.

٣) انظر: كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٥٥؛ وإلى معنى قريب للعبارة في مسند الشاميين للطبراني ٢/١٩.

"قال الحق: لا يسعني السماء والأرض
منجَمُ القلب عرفه (كنـــزاً)".

ولما كان للقلب مثل هذا اللسان الفصيح، المجلّى، الصادق الذي لا يكـــذب قطعاً، عُدّ ملكوتاً لُملك الإنسان، ونُظر إليه أنه أشرف من الكعبة، وغدا الخطيب الفريد في بيان الحقيقة الإلهية السامية التي تعبّر عنها الأكوان قاطبة.

القلب، كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته وصحة التصور ووضوحه وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته. فمشاعر الإنسان المادية والمعنوية تحتمي بهذه القلعة وتُصان بها. لذا فالقلب الذي يحوز هذه الأهمية لا بد له من موضع مراقبة وحَجْر صحي ومنتجع. ذلك لأنه لطيفـــة عـــسير جـــداً ضمادها إذا جُرحت بل أعسر منه إحياؤها إذا ماتت. لذا يوصينا القرآن الكريم بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨) والرسول الأكرم ﷺ يذكّرنا بهذا الحَجر الصحي والحماية حيث يدعو مراراً صباح مساء متضرعاً إلى الله تعالى: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ).(١)

نعم، القلب يؤدي وظيفة جسر مهم في بلوغ جميع الخيرات والبركـــات إلى الإنسان، كما يمكن أن يكون وسيلة خطرة تسمح لجميع النـــــزغات الشيطانية والخواطر النفسانية. وكلما أمكن توجيه القلب إلى الحق ســـبحانه أصبح مصباحاً منيراً ينير أجزاء الجسد كله بجميع زواياه، بينما لو وجّـــه إلى الجسمانية فإنه يصبح هدفاً لسهام الشيطان المسمومة.

القلب هو الوطن الأصلي لروح الإيمان والعبادة والإحسان، وموضع حلّه

١) الترمذي، القدر ٧، الدعوات ٩؛ المسند للامام أحمد ٣٠٢/٦.

دائماً. وعلى الرغم من أنه كالنهر الجاري تسيل فيه المشاعر الدقيقة الرقيقة بين الله والكون والإنسان، فإن لهذه اللطيفة النادرة أعداء لا يحصون، يسعَون لزحزحتها وتغيير مجرى هذا النهر وتحويله. فمن القساوة إلى الكفر، ومن العُجب إلى الكبر، ومن طول الأمل إلى الحرص، ومن الشهوة إلى الغفلة، ومن المنفعة إلى الولَه بالجاه... كلها أعداء متراكمة متراكبة متأهبة للانقضاض عليها باغتنام فرص ضعفها وإتيانها من ثغراتها.

* * *

الإيمان روح القلب وحياته، والعبادة دمه الجاري في عروقه، أما التفكر والمراقبة والمحاسبة فأُسس بقائه. والقلب في مَن لا إيمان له ميت، موصد الأبواب في وجه الغيوب.. وفي المحروم من العبادة، فهو في شراك الموت يكابد أمراضا لا رجاء منها.. أما إن كان فيمن يفتقر إلى التفكر والمحاسبة والمراقبة فمتعرض لشتى أنواع المهالك والمخاطر، ولا أمان له.

فالذين ينضمون إلى القسم الأول لا يملكون قلوباً رغم ما يحملون في صدورهم من عضلة ضاخة كابسة.. والذين هم في القسم الثاني يعيشون في عالم أوهامهم الضبابية بين البقاء والعدم، فهم أُسراء المسافة لا يستطيعون تجاوزها ولا يبلغون الهدف.. أما الذين هم في القسم الثالث، فقد قطعوا مسافات شاسعة، واجتازوا عقبات كثيرة، ولكن لعجزهم عن بلوغ الذروة، يُعدّون كل حين أنهم على شفا جرف؛ فيمشون تارة ويقعون أخرى، ويمضون مسابقتهم متقدمين مرة متأخرين أخرى، وهكذا يقضون أعمارهم على مرتفع كؤود لا يمكن تجاوزه.

أما الذين آمنوا، وعاشوا بإيمانهم ونصبوا أخبيتهم على سهول الإحسان، فهم في قمة الأمان ضمن دائرة الأسباب، وفي حفظ واطمئنان من حيث الحماية الإلهية، يتملّون الوجود بالبصيرة، فيطّلعون على ما وراء الأشياء بنور الله، فهم في حذر دائم، يعيشون وقلوبهم وجِلةٌ وَجَل قلب الحمام، بحثاً عن رضاه سبحانه في كل مكان، ينظّمون أعمالهم وفق مرضاته، يُصبحون بمحبة الله ويمسون بها. فيحبهم الله سبحانه ويحببهم للقلوب المؤمنة. وإذا بهم يصبحون "مقبول الإنس والجان" ويُستقبلون بإحسان وترحاب ورضى في كل مكان.

إن سيدنا يوسف "الصدّيق"، الذي أُطلق اسمه الطيب على السورة الجليلة، يوصَف فيها خمس مرات بوصف "المحسنين". وهذا يعني أن كل شيء؛ الأرض والسماء، الأولياء والأعداء، الخالق والمخلوق، الجميع يشهدون على ما كان عليه من يقين ومحاسبة ومراقبة.

يُلفت الله سبحانه النظر إلى تحسسه بمعاني الإحسان ولّما كان في ميعة الصبا والشباب وبرعماً لم يتفتح بعدُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢٢).. ولما أحسّ أهلُ السجن من أشقياء وسعداء، عمق أُفق تفكيره ودقته وصفائه ولدنّيته، اتخذوه مرجعاً لأمورهم، فهرعوا إليه يصدّقونه، ويؤمنون به، ويرتبطون به، قائلين: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٣٦)، وهكذا عرضوا عليه مشكلاتهم... فهذا الشاب النبيل حقاً، الذي اجتاز الامتحانات كلها بتفوق ونجاح، واستولى حبّه على القلوب، أعداءً وأولياءً، و لم تتغير أطواره أمام مفاتن الدنيا، يثني عليه الله سبحانه مرة أخرى بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٥٦) مذكّراً كفالته الإلهية له.. أما إخوته الذين كانوا – إلى ذلك اليوم– يغارون منه، ما أن تمكنوا من الانسلاخ من جو الحسد والانخلاع منه حتى قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٧٨) اعترافاً منهم بصدقه معتذرين منه ولو ضمناً.

وهكذا لّما بلغ أشُدّه، وحاز الاطمئنان، يشهد هو لنفسه، تحدثاً بنعمة الله وفضله عليه، بما حظي من الألطاف الإلهية، مع هذه الكثرة من الشهود قائلاً: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠).

فهذا القلب الذي يشهد له الجميع قاطبة بحسن الشهادة، لا احتمال لانحرافه بتقلبات الحياة بمقتضى العادات الإلهية، كما لا احتمال لمحروميته. فمثل القلب في الإنسان كمثل العرش في الأكوان. فهو مرآة مجلوّة تحت نظر الله كل حين لا تُطرح ولا تُلقى كأي جسم تافه، بل هو روح حقيقة الإنسان وموضع ثناء الله سبحانه ونظره.

يقول جلال الدين الرومي مذكّرا بهذه الحقيقة:

حَق هَمِي گُويَد نَظَر مَانْ بَر دِلَسْت

نِيست بَر صُورَت كِه آن آب و گِلَسْت

تُوهَمى گُويي مَرَا دِل نِيزهَسْت

دِل فَرازِ عَرشْ بَاشَد نِي بَسْت[1]

يعني: يقول الحق سبحانه: نظَرُنا إلى القلب، وليس إلى الصورة التي هي

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٣/ص٤٢٩/ب٢٢٤٤-٢٢٤٥.

من ماء وطين. وأما إذا قلت: إنني أملك قلباً، فاعلم أن الفـــؤاد في أعـــالي العرش وليس في الأسافل.[1]

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ.

اللّهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد محبوب القلوب وعلى آله وصحبه.

١) أي أن المسافة بين هذا الإدعاء ووجود القلب حقيقةً هي المسافة بين الانجذاب إلى الأرض والارتفـــاع إلى العرش.

الحزن



الحزن، مشتق من الحَزَن باللغة العربية، ويعني: الغم، الكـدر، الغـصة. ويستعمل الصوفيون هذه الكلمة ضد الفرح والابتهاج والسرور، ويصح أن نقول إنه همّ ذو بُعدٍ مشوب بالشعور بالمسؤولية، والتفكر في أمور الدعوة، وأسىً في السعي لبلوغ الغاية. نعم، إن من كان كامل الإيمـان -حسب درجته- إنما يتحرك ويسكن بالحزن، لحين تطلق الروح المحمديـة النديـة أجنحتها في أرجاء المعمورة، وتهدأ آهات المسلمين وزفراتهم، ويصبح القرآن الكريم حياةً للحياة كلها. وفي حدود الإنسان؛ لحين مروره من حفرة القبر بأمان، واجتيازه عقبات البرزخ واحدة تلو الأخرى بسلام، من دون عـائق في الحساب والميزان، حتى يتمكن من التحليق إلى الروح والريحان وميـدان طيران الأرواح... فينسج بالحزن حياته على خيوط الزمان، بل يحشره حتى بين دقائق نشوته وحبوره. والخلاصة: أنه يجعل الحزن ملح حياته، فيشعر به في ثواني حياته بل في ثوالثها وعاشراتها، ويستمر بهذا الانكسار المقـدس إلى أن يبلغ الحقيقة المبشّرة في قولـه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّـذِي أَذْهَـبَ عَنَّـا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنَـا لَغَفُورٌ شَـكُورٌ﴾ (فاطر:٣٤).

الحزن ينبع من إدراك الإنسان لإنسانيته، وكلما كان في مستوى هـذا

الشعور يترشح الحزن في بصره وفي بصيرته. وفي الحقيقة إن فاعلية مثل هذا الحزن ضرورية جداً من حيث دوام توجّه الفرد إلى الله سبحانه، والاحتماء بحمايته كلما استشعر بما يثير لديه الحزن، والالتجاء إليه كلما عجز عن شيء لا يقدر عليه، فيستغيث: النجاة... النجاة.

ومن جهة أخرى، فإن المؤمن الذي عمره قصير، وقدرته قليلة، ومطالبه باهظة، ومضطر أن يجعل الواحد ألفاً.. إذا غدا الحزن بُعداً ورفيقاً للأمراض التي تتعرض له، وللعوائق والضائقات التي تعرقل سيره، وللمصائب والنوائب التي تصيبه.. تتحول هذه كلها إلى إكسير عجيب يُذهب الذنوب ويمحو الخطايا. حتى يستطيع الإنسان أن يجعل بهذه الوسيلة الشيء المؤقت أبدياً، والقطرة بحراً، والذرة شمساً. نعم، يصحّ أن نقول إن عمراً يمضي هكذا في ألوان من الحزن هو عمر نبوي مبارك. وكم هو ذو مغزى عميق –من هذه الزاوية– إطلاق اسم "نبي الحزن" على فخر الإنسانية ﷺ –أرواحنا فداه– الذي كان متواصل الحزن دائم الفكر، قضى حياته كلها بدقائقها و ثوانيها بتلونات الحزن.[1]

الحزن حِمىً، يحُول دون تشتت جهاز قلب الإنسان وعالم مشاعره في وديان الغفلة، وسورٌ يحفظ الارتباط الوثيق بالحق تعالى، وبهذا يكون الحزن طريقاً لا مناص منه إلى التركيز، بحيث إن السالك الحزين، بفضل التوجّه الاضطراري هذا، يمكنه أن ينال من المراتب في الحياة القلبية والروحية وفي أقصر وقت، ما يعجز عنه الآخرون في "خلوة الأربعين" مهما تكررت.

---

١) انظر: المعجم الكبير للطبراني ١٥٦/٢٢، شعب الإيمان للبيهقي ١٥٥/٢. لتعلم كيف كان الرسول ﷺ دائم الحزن.

إن الله سبحانه لا ينظر إلى الصوَر ولا إلى الأجسام وإنما ينظر إلى القلـــوب، ومن القلوب ينظر إلى القلوب الحزينة المكدرة المنكسرة، فيشرّفها بمعيته، كمـــا يذكّرنا به الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم).[1]

قال سفيان بن عينية: (لو أن محزوناً بكى في أمةٍ، لَرحم الله تلك الأمـــة ببكائه)[2] لأن الحزن يترعرع وينبت في جوانب الإخلاص والجديـــة مـــن القلب، فلا طور بين الأطوار كالحزن، يقرّب الإنسان إلى الله ويكفّه عـــن باب الفخر والرياء والسمعة.

إن لكل شيء زكاته، وزكاة الشيء تطهّره وتصفّيه مما يكدره. فـــالحزن زكاة الدماغ والوجدان، وله بالغ التأثير في صفائهما وفي بقائهما زكـــيين طاهرين.

وقد جاء في التوراة: (إذا أحب الله عبداً جعل في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً).[3]

وقال بشر بن الحارث الحافي: (الحزن مَلِك، فإذا ما سكن في موضـــع لم يرض أن يساكنه أحد).[4] وكما إن لم يكن في بلـــد ســـلطان أو حـــاكم خرب، ودبّت فيه الفوضى، كذلك إن لم يكن في القلب حزنٌ وهمٌّ خرب وتبعثر. أليس حال مَن هو أتم القلوب عمراناً كان حزناً دائمـــاً وتفكـــراً مستمراً ؟

---

١) كتاب الزهد للبيهقي ١٦٢/٢؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ٧٥/١. كشف الخفاء للعجلوني ٢٣٤/١.

٢) الرسالة للقشيري ٢٣١.

٣) الرسالة للقشيري ٢٣٠.

٤) الرسالة للقشيري ٢٣٠.

لقد اجتاز سيدنا يعقوب عليه السلام الجبال والقفار التي بينه وبين يوسف عليه السلام بأجنحة الحزن، حتى بلغ أجواء تأويل الرؤيا العذبة. وبهذا عُدّ أنينُ فؤاد مليء بالحزن والأسى عِدلاً لأوراد العبّاد وأذكارهم، وتقوى الزهاد وورعهم.

فلئن كانت الهموم والأحزان النابعة من تقلبات دنيوية -فيما خلا من المعاصي والآثام- كفّارة للذنوب، كما بشّر به الصادق المصدوق ﷺ.[1] فكيف إن كانت ذات بُعد أخروي وفي سبيل الله؟

هناك حزن ناشئ عن ملاحظة نقائص الإنسان في عباداته وطاعاته وخشية تقصيره في عبوديته لله، وهذا هو حزن العوام.. وحزن آخر نابع من ميل القلب ومحبته لما سواه تعالى وتعثر المشاعر في التوجه إليه، وهذا حزن الخواص... وهناك حزن آخر هو أن إحدى قدمي المحزون في عالم الناسوت والأخرى في عالم اللاهوت، فيسعى بقلب يقدّر كلاًّ من العالَمَين حق القدر فيوفي حقّ الموازنة بينهما معاً مراعياً التمكين. وحتى في سعيه هذا تنتابه الخشية هل أنه أفسد الموازنة أم لا؟ فيئن أنيناً حزيناً ويطلق الحسرات.. وهذا هو حزن الأصفياء.

إن أول نبي، وهو أبو البشر، وأبو النبوة، كان أباً للحزن أيضاً. فما أن انتبه للحياة حتى فتح عينيه للحزن، حزن الضعف في عزمه مع ما في ميزان النبوة من تمكين، حزن الجنة المفقودة، حزن الوصال الذي ضاع، حزن الفراق الذي تعرّض له. فلقد أنّ طوال حياته أنيناً موجعاً على هذه الأحزان.

سيدنا نوح عليه السلام، وجد نفسه في معصرة الحزن بمجرد تقلّده مهمة

---

١) انظر: البخاري، المرضى ١؛ مسلم، البر ٥٢، المسند للامام أحمد ١٥٧/٦.

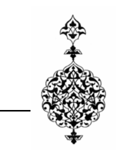
النبوة. وإن موجات الحزن التي كانت تموج وتعلو في صدره تعدل موجات المحيطات العالية... وإذا في يوم من الأيام فجّر منبع حزنه الأرضَ والمحيطات إلى ذرى الجبال، وخيّمت على الأرض ظلمات الحزن. وإذا به يصبح نـــبي الطوفان.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كأنه قد صُمم للحزن، حزن المجادلة العنيفة مـــع النماردة، حزن التجول في أروقة النار، حزن ترك الأهل والأولاد في واد غير ذي زرع، حزن الأمر بذبح الولد.. وأمثالها من سلسلة الأحزان ذات الأبعاد الملكوتية المخالفة لقياس العقل.

سيدنا موسى، سيدنا داود، سيدنا سليمان، سيدنا زكريا، سيدنا يحـــيى، سيدنا المسيح عليهم السلام تعرفوا على الحياة سلسلة أحـــزان وحـــسرات، وعاشوها هكذا... ولا سيما سيد الأنبياء والمرسلين نبي الحـــزن صلى الله عليه وسلم ومـــن اتبعه....

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم وعلى آله وصحبه أجمعين.



الخوف والخشية

يرد الخوف بمعانٍ عدة في اللغة العربية منها: الرهبة، الوَجَل، الهيبة. وفي المعنى الاصطلاحي: اجتناب العمل بما هو أدنى من الحرام من الممنوعات ناهيك عن الحرام. وقد تلقى الصوفية الخوف - بجانب شعور "الرجاءِ"- عنصر موازنة في السير والسلوك المعنوي، وإكسيراً معدِّلاً لما يسوق من الأفكار إلى الإدلال والشطحات. ذلك لأنه يحُول دون انخداع السالك إلى طمأنينة الأمن، ودون تلبّسه بالأوهام والأماني.

ويرى القشيري: أنه شعور في الأعماق يجنّب السالك عما لا يحبه الله ولا يرضاه. وأكّد على تأثيره في المستقبل، فقال: "الخوف معنى متعلَّقُه في المستقبل، لأنه إنما يخاف أن يحلَّ به مكروه أو يفوته محبوب. ولا يكون هذا إلاّ لشيء يحصل في المستقبل".[1]

وفي الحقيقة أن القرآن الكريم أيضاً بكثير من آياته البيّنات إنما يلفت الأنظار إلى عاقبة الأعمال وما تؤول إليه الأطوار، مستهدفاً دنيا تقوم على وفق المستقبل. فالدنيا التي يريد القرآن إقامتها، يمكن رؤية المستقبل فيها بثمراته الطيبة والخبيثة، روحاً ومعنى وفكراً وبجزئياته. فهو يغرس في ضمير

---

١) الرسالة للقشيري ٢١٤.

منتسبيه وفي وجداهم شدة الخوف من العقبى طوال حياقم، مذكّراً إياهم أن يثبتوا أقدامهم ولا ينحرفوا، خشية تغيّر الأحوال ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤) وأمثالهما من الآيات الكريمة التي تلقى الرهب والوجل في القلوب، بل كأنها خيوط سدى غيبية مزجاة إلينا من العقبى لينسج الإنسان عليها نسيج حياته.. -وما أسعد مَن ينسج نقوش حياته بمكّوكٍ لُحمته وسداه أخروية- فيواصل القرآن الكريم بها تلقيناته الأخروية لقلوبنا، مسدداً أنظارنا دائماً نحو العقبى.

والله سبحانه وتعالى كثيراً ما يرد في بيانه النيّر، الخوف كسوط لأجل أن يجلبنا إلى حضوره ويشرّفنا بمعيته. هذا السوط أشبه ما يكون بعتاب الأم الذي يدفع الطفل ليلجأ مرة أخرى إلى حضنها الحنون، كذلك الخوف يجذب الإنسان إلى رحاب رحمة الله الواسعة ويثريه بواردات ألطافه الجبرية، المفاضة عليه من غير استشراف لها. ولهذا فكل أمر في القرآن الكريم مظللٍ بالخوف والخشية، إنما يرد بألوان الرحمة ويورث الانشراح رغم ما يبدو عليه من بُعدٍ مخيف رهيب.

وكذلك فإن الوجدان الخائف من الله والخاشع له، ينجو من خوف الآخرين، ذلك الخوف القاسي الذي لا يدفعه إلى جانب الرحمة ولا فائدة ترجى منه، بل هو خوف مضر. وللحيلولة دون تشتت الشعور بالخوف المدرج في ماهية الإنسان، وتوجيهه إلى هدف واحد، يبعث الله سبحانه في

هذه القلوب الأمل بآياته الكريمة في مواضع عدة كقوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥)، و﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠، النحل:٥١) مذكراً لهم بعدم الولوج في أي رهب لا مبرر له. فضلاً عن أنه سبحانه يثني على القلوب العامرة بالخوف والمتميزة بالخشية بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل:٥٠) و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة:١٦) ذلك لأن الروح التي نسجت حياتها وفق مقتضيات الخوف تستعمل إرادتها بالتمكين، وتتقدم بخطوات حذرة، ولا تطأ موضعاً هشاً ومزلقاً فاسداً. فمثل هذه الأرواح الحساسة الرهيفة تحلّق عالياً في سماء الرضى الإلهي. وما أجمل ما يقرره "صاحب اللُجّة" حول الخوف في البيت الآتي:

بَاش دَر دِين ثَابِت اَرْتَرسِي زِقَهرِ حَق كِه يَا

كَرده مُحكَم دَر زَمين عَرعَرِنيم صَرصَراست

يعني: إن كنت تخاف قهر الرب الجليل فكن راسخ القدم في الدين، فالشجر لا يثبت أمام الرياح الهوج إلاّ بعروقه الموغلة في الأعماق.

والخوف على مراتب. فأدنى مراتبه: هو الخوف الذي هو من شروط الإيمان ومقتضاه، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥).

وأعلى منها مرتبة هي مرتبة الخشية ذات الطابع العلمي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

وأعلى منها مرتبة هي مرتبة الهيبة المطبوعة بالمعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٣٠).

هذا وقد قسّم قسمٌ من الصوفية الخوف إلى: الهيبة، الخشية، وكلتاهما نابعتان من الخوف ولكن الهيبة هي مدار "الفرار" بينما الخشية تدور حول "الالتجاء". فصاحب الهيبة في سيره وسلوكه يعيش دوماً بمفهوم "الفرار" وبه يتحرك ويسكن ويتخيل. بينما صاحب الخشية يعيش كل لحظة بمفهوم آخر بحثاً عن وسائل الالتجاء إليه تعالى منقّباً عن فرص الاحتماء به.

ولهذا فالذين اختاروا مسلك الرهبة كثيراً ما يديمون الفرار أيضاً، لذا يعسّرون اليسير فيتعرضون إلى ما تعرض له الرهبان من الضيق والحرج والعنت. ولهذا يقاسون من "البُعد" عنه تعالى بمقدار البُعدية الحاصلة من الفرار. بينما سالكو الخشية الذين يعيشون في كل لحظة من لحظات حياتهم محوّلين الهوى إلى الهدى، هم في مفرق طريق آخر كل حين للالتجاء إليه تعالى، فيشربون من كوثر "القُرب" طالبين المزيد باشتياق.

والخشية بمعناها الكامل من خواص الأنبياء عليهم السلام. فهم يموتون روحاً واحدة ويحيون بقوة أرواح كثيرة، لكأنهم في جو يُسمَع فيه صور إسرافيل وأمام صولة جلال الحق سبحانه وعظمته. ففي آفاق أحاسيسهم وشعورهم وإدراكهم يرن صدى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف:١٤٣) فتشرق هذه الحقيقة وتغرب. وأقرب المقربين وسيد الخاشين ﷺ يقول: "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ

سَاجِدًا لله وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ". [1]

هذا الحديث الشريف يبين شدة خشيته ﷺ لله تعالى المنطوية على الالتجاء – مع علمه بما لا يعلمون– واختياره الالتجاء إليه تعالى بدلاً من الفرار، ويوضح أيضاً هيبة الآخرين المتسمة بالفرار حيث عبّر أبو ذر رضي الله عنه بإضافته: "لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ"[2] وغدا ترجماناً بليغاً لهذا المعنى.

فذو الروح المنظّم وفق الخشية والهيبة لا يقترف الآثام ولو لم يكن خائفاً... فها هو صهيب الرومي رضي الله عنه مثال المهابة وبطل العصمة. يصفه الرسول ﷺ : (نِعْمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ).[3]

إن أرباب الخوف يتألمون ويتوجعون، وأحياناً أخرى تنهمر منهم الدموع سيلاً مرات ومرات في اليوم ولا سيما عند انفرادهم؛ فيطفئون بدموعهم نار "البُعد" ويمضون إلى إطفاء نار جهنم وهي أقصى الأبعاد عن الله، كما في الحديث الشريف (لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ)[4] بمعنى أنه محال دخوله النار. ويعني أيضاً أن الدموع أعظم إكسير لإطفاء نار جهنم.

وهم أحياناً يمحّصون ما قدموه من أعمال وما تركوه فتقشعر جلودهم مما قدّموه ربما هو ليس لله بل للهوى، وما تركوه ربما هو شيطاني محض،

---

١) الترمذي، الزهد ٩؛ ابن ماجة، الزهد ١٩.

٢) الترمذي، الزهد ٩؛ المسند للامام أحمد ١٧٣/٥.

٣) كشف الخفاء للعجلوني ٤٢٨/٢–٤٢٩. وانظر أيضاً: المسند للديلمي ٢٣٤/١؛ فتح الباري لابن حجر ١٦١/١.

٤) الترمذي، فضائل الجهاد ٨؛ النسائي، الجهاد ٨؛ المسند للامام أحمد ٥٠٥/٢.

فيتجرعون الحزن باستمرار. ويعزمون على تقويم أنفسهم ملتجـــئين إلى الله تعالى.

ومثال ذلك حديث أمنا عائشة رضي الله عنها. قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ هَذِه الآيَة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائشَةُ أَهُم الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ: لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُم الَّـــذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.[1]

وأظن أنه لو أطلقنا على الذين ذُكروا مقدماً عامة المؤمنين، نطلق علـــى مَن في القسم الثاني: الناس الكاملين.

نعم إن خفقان القلب بالخوف والخشية أسلم من سلوك العبد بين الخـــوف والرجاء مع أنه الأصل كما يقول أبو سليمان الداراني.[2] ويؤيد "الشيخ غالب" هذا القول فيورد في هذا البيت ملخص مشاعره نحو الخوف:

"هيّج القلبَ بألف خوف وخوف"

اللّهم أيّدنا بروح من عندك ووفّقنا إلى ما تُحب وترضى،

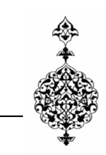
وصلّ وسلم على محمد المرتضى وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

١) الترمذي، تفسير سورة المؤمنون؛ ابن ماجه، الزهد ٢٠.

٢) "ينبغي للقلب أن لا يغلب عليه إلاّ الخوف، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فـــسد القلـــب" (الرســـالة للقشيري ٢١٨).

الرجاء



الرجاء هو ترقب خير وأمل الحصول عليه.. واستشراف ألطاف الله وآلائه.. والامتلاء بالأمل لأجل المستقبل والعيش به لنيل المأمول. وقد عرّفه الصوفية بـ"تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل".[1] وعلى هذا فالرجاء انتظار قبول الحسنات والأمل في غفران المعصيات بالتوبة.

والرجاء الذي يستند إلى أساس تحمّل الشخص تبعات ما اقترفه من سيئات وارجاع الحسنات إلى محض الرحمة الإلهية، هذا الرجاء يحُول بين السالك وبين الوقوع في شِباك قسم من الأخطاء والسيئات وما لا يليق من الأمور، كما يحجبه عن الاغترار بالحسنات والخيرات. لذا فهو سياحة دائمة في أُفق "السير إلى الله" هرباً من الشرور واحتماءً بالخيرات، بجناحَي الاستغفار والدعاء.. وتشبثٌ مستمر بمطرقة باب الحق تعالى بلسان الإنابة والتضرع في إقليم "السير مع الله". فإذا ما وفّق السالك إلى إقامة مثل هذا التوازن، فلا إياس ولا انقطاع في الخوف، كما لا رخاوة ولا شطحات في الرجاء.

نعم، إن انتظار العناية من الله تعالى، هروباً من الآثام، والسعي المتواصل في طريق الحسنات والخيرات كالمتسابق فيها، ثم التوجه إلى ذلك الباب

---

١) الرسالة للقشيري ٢٢٢.

السامي، وترقّب عظيم رحمته تعالى، لهو رجاء صادق، وهو أُفق أمل الصادقين. وبخلافه فإن توقع الثواب والمغفرة من دون عمل، أو التخبط طوال العمر في وديان الضلالة ثم التحدث عن "بحبوحة الجنة"، كمن يجبر الله سبحانه –حاش لله– على أمور وفق الآمال، لهو رجاء كاذب واستخفاف برحمة الرحمن الرحيم.

هذا والرجاء ليس تمنياً، إذ التمني هو تصور غير مقطوع فيه، بل توقع خائب لا أمل فيه. بينما الرجاء هو بذل الجهد، لدى جميع أبواب الالتجاء بالانتفاع من جميع الوسائل التي يمكن أن توصل إلى المطلوب، ببصيرة وشعور منوّر بنور النبوة لاستمطار الرحمة الإلهية.

والرجاء بتعبير آخر، هو ترقّبٌ لقسم من توجهات سبحانية أحدية الطابع، إيماناً بشمولية الرحمة والمغفرة وإحاطتهما بكل شيء كما هي في الصفات الجليلة: العلم والقدرة والإرادة. واعتقد أن القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦) وكذا الحديث القدسي:(إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)[1] يذكّراننا بهذه الحقيقة. إذ خلافهما ذنب لا يغتفر؛ مما يعني من عدم الاهتمام بهذه الرحمة الواسعة التي تنتظرها حتى الشياطين،[2] وفقدان الشعور بالرجاء، يعني إنكار تلك الرحمة ضمناً، والوقوع في اليأس.

يحلّق "محمد لطفي أفندي" قلباً حول جود الكريم الودود سبحانه، بحثاً عن طرق الالتجاء إليه تعالى فيقول:

---

١) البخاري، التوحيد ٥٥، ٢١٥؛ مسلم، التوبة ١٤-١٦؛ ابن ماجة، الزهد ٣٥.

٢) المعجم الكبير للطبراني ١٦٨/٣؛ المسند للديلمي ٣٦٦/٤.

جد بكرمك يا سيدي الكريم ولا تحجبه عن المحرومين

فهل يليق بمن هو واسع الجود والكرم حجبه عن المفتقرين؟

فهؤلاء الذين نالوا مثل هذه الحظوة بملاطفة الرب الكريم الخاصة، قد غنموا كنزاً لا ينفد أبداً. والرجاء يصبح برقاً ويغدو براقاً للإنسان.. فيضيء طُرُقَه وينوّر سُبُلَه، ويوصله إلى ما لا يوصل إليه قطعاً بجهد البشر وطاقته، وخاصة في أثناء معاناة وجدانه انكساراً وقلقاً لفقده لما يملك، أو نزول نازلة به، أو لا يوفق إلى خير، أو عجزه عن النجاة من شر.. أي في أثناء سقوط جميع الأسباب وانعطاف جميع الطرق إلى "مسبّب الأسباب".

نسجّل هنا هذه الأبيات ذات المغزى العميق للإمام الشافعي رضي الله عنه، الذي عبّر عن الرجاء في أيامه الأخيرة التي قضاها في غزة:

ولّما قَسا قَلبي وضاقتْ مَذاهبي جَعَلْتُ الرَّجا لِعَفْوِكَ سُلّما

تَعَاظَمَني ذنبي فَلمّا قَرنْتُـه بعفوِك ربّي كان عفوُك أعظما[1]

إن استنشاق "الخوف" من الله باستمرار، فيما يجنّب الإنسان الذنوبَ والمعاصي ويوجّهه إليه تعالى ويقرّبه منه، مع الاستمساك بـ"الرجاء" لدى الوقوع في حفر اليأس وظهور أمارات الموت، يعدّ مقياساً لحالة التوازن بين الخوف والرجاء... وكذا فإن تهييج عناصر الخوف تجاه الشعور بالأمان الحاصل في الروح، والاحتماء بمراتع أخبية الرجاء لدى هبوب عواصف اليأس الحزينة، وجهٌ آخر للتوازن بين الخوف والرجاء. وعلى هذا يمكن

---

١) ديوان الشافعي للشافعي ١٠٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ١/١٥٠.

أحيانا أن يتصاعد دخان الخوف بجنب أكمل الأعمال، كما يمكن أن يبزغ الرجاءُ يمين عمل يسير ويساره.

نسجّل هنا تضرع يحيى بن معاذ على هذه الرؤية:

قال يحيى بن معاذ: "يكاد رجائي لك مع الذّنوب، يغلبُ رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفّيها وأحرِزُها ؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف".[1]

والرجاء لدى الكثيرين بُعدٌ آخر لحُسن الظن بالله. والحديث القدسي (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[2] يعبّر عن هذه الملاطفة الخاصة.

رُؤِيَ أبو سهل في المنام على هيئة حسنة جداً، وسُئل: يا أستاذ بماذا نلتَ هذا؟ فقال: "بحُسن ظني بربي".[3]

ولهذا يصح أن نقول: لما كان الرجاء وسيلة لتجلي الرحمة الإلهية الواسعة، فلا ينبغي على الإنسان في جميع أحواله خيراً أو شراً أن يدع هذه الوسيلة.

نعم، إن عمل الإنسان وإخلاصه وتجرده وإيثاره يُعدّ أبعاداً مهمة من الحسنات، إلاّ أنها من حيث علاقتها بالإنسان تظل غير ذات أهمية تذكر

---

١) الرسالة للقشيري ٢٢٤؛ إحياء علوم الدين للغزالي ١٥٣/٤؛ مدارج السالكين لابن القيم ٣٦/٢-٣٧.

٢) البخاري، التوحيد ١٥؛ مسلم، التوبة ١؛ الترمذي، الدعوات ١٣٢.

٣) الرسالة للقشيري ٢٢٥؛ احياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٥٣.

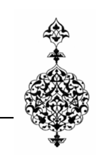
بجنب عظيم عفوه سبحانه، ذلك لأن الأول يعدّ عمل الإنسان وأطواره من زاوية دائرة الأسباب الظاهرية، بينما الثاني تقابله مباشرة الرحمة السابغة لشأن الله الجليل الخاص وملاطفته الكريمة.

ومن هنا فإن الخوف والرجاء أعظم هديتين لله سبحانه تعالى إلى قلب الإنسان، ولا أجلّ منهما إلاّ رعاية الموازنة بين هذين الشعورين، وكيفية استعمالهما كجناحين نورانيين للوصول إلى الله سبحانه.

اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها،

وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وصلّ وسلّم على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الزهد هو ترك المتع الدنيوية، ومقاومة الميول الجسمانية.. ويرد لدى الصوفية على الأكثر: العزوف عن لذائذ الدنيا، وإمرار العمر بعيش أشبه ما يكون بالحِمية، مع اتخاذ "التقوى" أساساً للسلوك، والحزم باستغناء واستنكاف تجاه وجه الدنيا المتوجه إليها وإلى النفس الإنسانية.

ويمكن أن نرجع إلى التفسير السابق معنى آخر، هو أن الزهد: ترك راحة الدنيا الزائلة لأجل سعادة العقبى الباقية.

إن أُولى خطوات الزهد هي الحساسية المرهفة تجاه الحلال والحرام، أما الخطوة الثانية وهي المرحلة الكاملة فهي العيش بدقة متناهية وحساسية شديدة تجاه المباحات والأمور المشروعة.

أما "الزاهد"، فهو الصابر -حق الصبر- تجاه المسؤوليات التي تحمّلها.. وتجاه البلايا والمصائب التي تنزل به.. وتجاه الذنوب والمعاصي التي تعترض طريقه في كل زاوية؛ مع الرضا بكل ما قدّره الخالق الكريم له سوى الكفر والضلال.. وهو الذي غاية خياله ومبتغى مناه في جعل ما أنعم عليه مولاه، لكسب رضاه سبحانه، والفوز في الآخرة، وتوجيه الإنسان إلى الحقيقة المطلقة.. فترنّ في أذن قلبه دائماً حقيقة: ﴿قُل مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ

لِمَنِ اتَّقَى﴾ (النساء:٧٧)، وتشعّ في كل جزء من أجزاء دماغه حقيقة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧) ويستشعر في كل زاوية في أفق البصيرة بالبيان الإلهي: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤).

هذا وقد عرّف آخرون الزهد بأنه الحفاظ على حدود الشرع وحمايتها حتى في أوقات الضيق والشدة، والعيش لأجل الآخرين في أوقات الغنى والرخاء. والشكر على ما أنعم الله عليه من حلال، وإيفاء ما يترتب عليه من حق، وعدم جمع المال إلاّ لنفع الناس، وإعلاء شأن الإسلام، وعدم الولوج في طول الأمل.

وقد قال سفيان الثوري وأمثاله من عظماء السلف: إن الزهد عمل قلبي نُظّم وفق مرضاة الحق سبحانه وانغلق دون طول الأمل، وإلاّ فليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء.[1] وحسب هذا المفهوم فإن أمارات الزهد الحقيقي ثلاث:

١. أن لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.
٢. أن لا ينسرّ بالثناء ولا يحزن على الذم.
٣. أن يفضل العبودية لله سبحانه والخلوة معه على أي شيء آخر.

نعم، الزهد كالخوف والرجاء، عمل قلبي، إلاّ أنه يتميز عنهما من حيث انعكاس حس الزهد على أحوال الإنسان وسلوكه و من ثم توجيهها، وهذا هو البُعد العملي والسلوكي للزهد.

١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٨٦/٦؛ الزهد الكبير للبيهقي ١٠٢/٢؛ الرسالة للقشيري ٢٠٣.

إن الصدر المتشبع بالزهد، يفكر بالزهد في جميع أحواله التي قد يتعارض بعضها مع البعض، وسواءً تعلق شعوره به أم لا، ففي الأكل أو الشرب، وفي النوم أو اليقظة، وفي الكلام أو السكوت، وفي تعقب الخلوة أو البقاء في الجلوة.. في كل هذه الأحوال يستنشق الزهد، يعيش متلوناً به، حتى يراه في الرؤى والمنام.. وبعد كل هذا يتخذ موقفاً جاداً تجاه وجوه الدنيا المتوجهة إلى هواه وإلى زخرف الدنيا.

وما ألطف ما ترنم بهذا الشعور مولانا الرومي:

چِسْت دُنْيا اَزْ خُدَا غَافِل بُودَن

نِي قُمَاش و نُقرَه وُفَرْزَندوُزَنْ

مَال رَاكَز بپَرِ حَق بَاشِي حَمُول

(نِعْمَ مَالٌ صَالِحٌ)[1] گُفت آن رَسُول

آب دَر كَشْتِي هَلاَكِ كَشْتِي است

آب اَنْدَر زِيرِ كَشْتِي پُشْتِي است[2]

أي: ما الدنيا؟ الدنيا هي الغفلة عن الله. وليست قماشاً ولا فضة ولا أولاداً ولا نساء. فلو أنفقت متع الدنيا كلها في سبيل رضاه لقال لك الرسول الكريم ﷺ (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ). الماء الموجود في السفينة سبب هلاكها بينما الذي تحتها سبب سيرها.

---

١) (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ) انظر: المسند للامام أحمد ١٩٦/٤؛ البخاري، الأدب المفرد ١١٢؛ الصحيح لابن حبان ٦/٨.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٥٣/ب٩٨٣-٩٨٤-٩٨٥.

نعم، لا تمنع إمكانات الدنيا وغناها الزهد. كفى بالإنسان أن يكون حاكماً عليها لا محكوماً لها. ولقد فضّل فخر الإنسانية ﷺ عيش المساكين، وأمضى عمره بالزهد[1] رغم أن قلبه مفطور على الزهد ولم يدخل في نظر خياله غير الزهد؛ وفضّل العيش كأفقر ما يكون، ذلك لأنه موضع القدوة لأمته ولا سيما للذين يتحمّلون مهام نشر الحق، وهو بهذا الخيار:

أولاً: لا يدع مجالاً لتهمة استغلال وظيفة النبوة المقدسة لأجل الدنيا.

وثانياً: يبين عظمته وسموه في هذه الوظيفة المقدسة باقتدائه بأسلافه من الأنبياء والمرسلين في قوله (إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ).

وثالثاً: أنه كان يحمل مسؤولية القدوة والمرشد لعلماء أمته الذين تعهدوا بنشر الحق. ولهذا كان لا بد أن يقضي حياته المباركة على أفقر ما يكون... وقد قضاها هكذا.

وقد أفاد البوصيري وأجاد وصف استغنائه ﷺ مع الحاجة، وعلو همته مع الضرورة فقال:

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى

تَحْتَ الْحِجَارَةِ[2] كَشْحًا مُتْرَفَ ٱلْأَدَمِ

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ

عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ

---

١) انظر: البخاري، الرقائق ١٧؛ مسلم، الزهد ١٨، ٣٦؛ الترمذي، الزهد ٣٥؛ المسند للامام أحمد ٢٥٤/٥.

٢) انظر: البخاري، المغازي ٢٩؛ مسلم، الأشربة ١٤٣.

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَــــرُورَتُهُ

إِنَّ الضَّـــرُورَةَ لاَ تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ

لَوْلاَهُ لَــمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

هذا وقد قيل في الزهد أقوال جميلة قيمة، إلاّ أننا نختم هــذا الفــصل بكلام سيدنا علي ﵁ الذي يصفع به كذب توهم الأبدية ويقطــع دابــر طول الأمل:

اَلنَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ

أَنَّ السَّـــلاَمَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لاَ دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا

إِلاَّ الَّتِي كانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بَانِيهَا

....

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا

وَدُورُنَـــا لِخَرَابِ الدَّهْـــرِ نَبْنِيهَا

كَمْ مِنْ مَدَائِنَ فِي الْآفَاقِ قَدْ بُنِيَتْ

أَمْسَتْ خَرَابًا وَدَانَ الْمَوْتُ دَانِيهَا

لِكُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ

مِــنَ الْمَنِيَّةِ آمَـــالٌ تُقَوِّيهَا

فَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالدَّهْرُ يَقْبِضُهَا

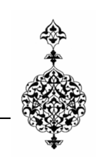
وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا[1]

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، آمين يا أرحم الراحمين.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

١) ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٠٤.

التقوى



التقوى تأتي من جذر الوقاية، والوقاية هي فرط الصيانة، وقد عرّفت في الاصطلاح الشرعي بأنها: "جهد الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، تجنباً من عذابه".

وبجانب المعنى اللغوي والشرعي للتقوى، ترد أحياناً بمعنى الخوف، ويرد الخوف بمعنى التقوى أحياناً، حتى يمكن مشاهدة المعنيين معاً في الكتب الشرعية.

وكذلك للتقوى معنى شامل وعام إلى حد أنه يَشْغَلُ مساحة واسعة جداً من المعاني؛ فمن المحافظة على آداب الشريعة بكل دقة وأمانة.. إلى رعاية قوانين الشريعة الفطرية.. إلى وقاية الإنسان سرّه وخفيّه وأخفاه من الشرك وكل ما يُشم منه الشرك عند كل سلوك يؤدي به إلى جهنم، أو كل عمل يثمر ثماراً في الجنة.. وإلى الوقاية من التشبه بالآخرين في التفكير وطرز الحياة.

وبهذا المعنى الواسع جداً تصبح التقوى هي المصدر الوحيد لقيمة الإنسان وكرامته، وقد أشارت إليه الآية الكريمة المنّورة ﴿إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنـدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

إنني لم أرَ للتقوى في غير القرآن الكريم هذا المعنى الشامل وهذا العمق والسعة، كما أنني لم أطلع على كلمة ساحرة كهذه الكلمة خارج نظام

الإسلام الأخلاقي والتربوي وبهذا المستوى الذي يضم المادة والمعنى معاً، حتى أن جذوره موغلة في الدنيا وأعضاءه وأزهاره وثمراته منتشرة في العقبى.

نعم، إن في معنى التقوى ومحتواها سحراً عجيباً بحيث لا يمكن فهم القرآن فهماً حقاً، إلاّ بعد الاحتماء بها، كما لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالسير في فلك القرآن، الذي يفتح قبل كل شيء بابه للمتقين ويهمس بهم، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢) ويشير في النتيجة إلى الحياة على نمط الفرقان الحكيم، ويلفت الأنظار إلى أُفق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١).

والتقوى أفضل عمل عند الله سبحانه وتعالى، و المتقون هم أكرم عباده وأنزههم، والفرقان البديع البيان هو أصفى بيان للمتقين وأنزه دعوة للتقوى. وعباد الله المتقون يتزوّدون دوماً من القرآن وبرؤية الرضوان في الآخرة. وحيث إن الذوق الوجداني هنا واللذة الروحانية هناك، تضيف موهبة أخرى لعمق التقوى، يقول تعالى مذكّراً بأهمية التقوى بهذا المعنى ﴿اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران:١٠٢).

والإنسان بفضل التقوى التي تعني تقييم جميع وسائل الخير ويبقى موصد الأبواب في وجه جميع طرق الشر أو يسعى في ذلك، ينجو كذلك من السقوط إلى أسفل السافلين، ويغدو سائراً إلى أعلى عليين. وبهذا يصح أن يقال: إن من نال التقوى فقد نال ينابيع الخير واليمن والبركات كلها. فدونكم شاهداً آخر:

دِين وُ تَقْوَى رَا خُدَايَا هَر كِه دَادْ

هَسْت اُو اَنْدَر دُو عَالَم بَر مُراد

هَر كِه مَرد پَارْسَا وُمُتّقِيست

اُو سَعِيد وُرَسْتگَارَست نِي شَقِيست

هَر كِه اوُ رَا نِيسْت اَز تَقْوَى شِعَار

هَســـتىِٔ او نِيست غَير اَز شَيْن وعَار

نِيست زِندَه دَر حَقِيقَت مُرده است

غَيْرَ اَز آن كِه رَهْ بَحَضرَتْ بُرده است

يعني: فاز بمراده في الدنيا والآخرة مَن أكرمه الله بالدين والتقوى. مــن كان متقياً ناصراً للحق سعيد لا شقي وهو على الصراط الــسوي. بينمــا المحروم من زاد التقوى والفقير إلى أماراتها، وجوده عار وخزي وعيب، بــل ميتٌ مَن لم يجد طريقاً إلى الحق سبحانه.[1]

التقوى كنـــز لا يقدّر بثمن، وجوهر بلا نظير يعتلي أفضل موقع لأغنى كنـــز، ومفتاح ذو أسرار لفتح جميع أبواب الخير، وبراق في طريق الجنـــة. ولأجل موقعها المتميز هذا تسيل مائة وخمسين مرة حزم مـــن ضـــياء زلال القرآن الكريم في أدمغة أرواحنا.

والتقوى، مقابل هذا الاستعمال العام، لها معنى خاص معلوم لدى الجميع حيث يتوارد إلى الذهن ذلك المعنى كلما قيل "التقوى". والمعنى هو: شـــدة الحساسية تجاه أوامر الشريعة ونواهيها. واجتناب ما يحرم من الثواب أو مـــا يعاقب عليه من سلوك. وقوله تعالى: ﴿وَالَّـــذِينَ يَجْتَنِبُـــونَ كَبَـــائِرَ الإِثْـــمِ

---

١) "گولشنِ توحيد لمولانا جلال الدين الرومي (تركية)".

وَالْفَوَاحِشَ﴾ (الشورى:٣٧) يمثّل جانباً مهماً من هذا الأساس، ويمثل الجانب الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة:٢٧٧). فإقامة الفرائض واجتناب الكبائر أساسان ضروريان جامعان للتقوى. أما الصغائر فإن أحاديث نبوية كثيرة جداً تذكّر بالدقة أيضا تجاه "اللمَم" المذكورة في القرآن الكريم، منها: (لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ).[1]

نعم، الإخلاص التام، لا يُحرز إلاّ باجتناب كل ما فيه شائبة الشرك، كما لا تُنال التقوى الكاملة إلاّ باجتناب الشبهات كلياً، ذلك لأن الحديث الشريف الجامع: (الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)[2] قد ربط الحياة التي هي في مستوى القلب والروح باليقظة ودقة الاحساس تجاه المشتبهات. والحديث يذكر أن الحلال والحرام قد وضّحا من قبل صاحب الشريعة بما لا يدع مجالاً لأية شبهة. ولكن بين هذين الأمرين ما يشبه الاثنين من الأمور المشتبهة لا يعلمها كثير من الناس. ولأجل هذا لا بد من اجتناب مثل هذه المشتبهات. ومن اتقى الشبهات فدينُه وعرضُه مصونان، بينما الذي وقع في الشبهات فاحتمال وقوعه في الحرام كبير،كالغنم التي ترتع حول الحمى. ثم يقول سيد الأنام ﷺ: (أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِك حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ).

١) الترمذي، القيامة ١٩؛ ابن ماجة، الزهد ٢٤.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧.

وعلى هذه الأسس يمكننا أن نقول: لا تُنال التقوى التامة إلاّ باجتناب المشتبهات وصغائر الذنوب. وهذا الاجتناب يتطلب قبل كل شيء معرفة دقيقة بالحلال والحرام ويستند بعد ذلك إلى معرفة صحيحة محكمة وثقافة وجدانية. وعندما يصل الأمر إلى هذه النقطة: فـ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) وكذا الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) كأنهما قطبان في هذه المسألة، فالتقوى تنقلب إلى أصالة وكرامة ويتسربل العلم بالاحترام والخشية ويرفرف كالراية. فالأرواح التي تحمّل قلبَها وسرَّها بهذه الألوان ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (الحجرات:٣) يُذكرون كأبطال في امتحان الالتفاتات الإلهية.

والتقوى التي هي في قطب العبادة والطاعة، يُفهم منها على الأغلب: الصفاء الداخلي، وعمق القلب والضمير، وسعة الإخلاص، والموقف الجاد الحازم تجاه الذنوب والمشتبهات ضمن دائرة المعصية. وبهذا يصح أن نعدّ ما هو مدرج أدناه أبعاداً أخرى للتقوى حسب تنوع العبودية:

فالتقوى:

١. أن يتجنب العبد عما سوى الله عز وجل بحسب ذواتها.[1]

٢. ويوفي أحكام الدين حقها.

٣. ويتحرز من كل سلوك في دائرة الأسباب يوقعه في الجبرية، ومن كل انحراف في دائرة القدرة يدفعه إلى الاعتزال.

---

١) نذكّر القارئ الكريم بأن لكل شيء ثلاثة وجوه وجه إلى الله ووجه إلى الآخرة ووجه إلى ذات الشيء.

٤. ويحذر من كل ما يبعد عن الله سبحانه.

٥. ويكون يقظاً تجاه الحظوظ النفسانية التي تمهّد للمنهيات.

٦. وليعلم أن كل شيء من الله وحده مادياً كان أو معنوياً، دون أن يملّك نفسه شيئاً.

٧. وألاّ يجد نفسَه أرفع وأفضل من أيِّ أحد.

٨. ويجعل رضاه سبحانه غاية مناه لا غير.

٩. وينقاد انقياداً تاماً لمقتدى الكل ﷺ.

١٠. ويجدد حياته الروحية والقلبية باستمرار بالتفكر في الآيات الكونية وتدبّرها.

١١. ويجعل رابطة الموت بأبعادها المختلفة دستوراً للحياة.

والخلاصة: التقوى كوثر، والمتقي هو السعيد الذي وَرد هذا النبع العظيم، ولكن كم هو مؤلم أن هؤلاء المحظوظين قليل عددهم.

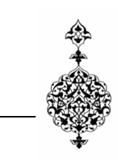
ونختم الموضوع بقول أحد شعرائنا:

يقول الحق تعالى كونوا عباداً متقين

فمقامهم الجنة وشرابهم الكوثر

اَللّهم اجعلنا من عبادك المخلِصين المخلَصين المتقين، آمين.

وصلّ وسلّم على سيدنا محمد إمام المتقين وآله وأصحابه ذوي اليقين.



الورع

في المعاجم والقواميس يرد الورع بهذه المعاني: تجنب ما لا يليق ولا يلائم ولا يلزم من الأمور، والحذر من المحرمات والممنوعات.. واجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات. وهذا مطابق للقاعدة الإسلامية (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ)[1] ولحقيقة الحديث الشريف (الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ).[2]

وقد عرّف بعض الصوفيين الورع بأنه: صحة اليقين.. استقامة السلوك.. وعلو الهمة والتمكين في العلاقة مع الله سبحانه.

وقد عرّفه أحد أرباب القلب: "عدم الغفلة عن الله ولو طرفة عين" وآخر قال: "الكف عما سواه تعالى في كل لحظة من لحظات الحياة" وقال آخر: "أن يترفع السالك على نفسه وعلى الوجود كله ولا يتذلل ولا يتنزل إلى الدنيا وأهلها حالاً ولا لساناً". والبيتان الآتيان يفيدان هذه الرؤية:

تَوَرَّعْ عَنْ سُؤَالِ الْخَلْقِ طُرًّا ... وَسَلْ رَبًّا كَرِيمًا ذَا هِبَاتٍ

وَدَعْ زَهَرَاتِ الدُّنْيَا كَاللَّوَاتِي ... تَرَاهَا لاَ مَحَالَةَ ذَاهِبَاتٍ

---

١) الترمذي، صفة القيامة ٦٠؛ النسائي، الأشربة ٥٠؛ المسند للامام أحمد ١٥٣/٣.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧، ١٠٨.

ويمكن أن نعرّف الورع بأنه وقف الحياة والسلوك على ما يلزم في الآخرة وينتهي إليها، ومن ثم التحرك وفق إدراك حقيقة الفانيات الزائلات، ولعل الحديث الشريف يذكّر بهذه القاعدة: (إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكَهُ مَا لا يَعْنِيهِ).[1]

وصاحب "بند عطار" يضفي شيئاً نفيساً بأسلوبه العطارى على هذا الفكر:

تَرسْكَارِي اَزْ وَرَعْ پَيْدَا شَوَدْ

هَرْ كِه بَاشَدْ بِي وَرَعْ رُسْوَا شَوَدْ

بَا وَرَعْ هَرْكَسْ كِه خُودْ رَا كَرْدْ رَاستْ

جُنْبُشُ و آرَامَشْ اَزْ بَهرِ خُدَاستْ

آنْ كِه اَزْ حَقْ دُرُسْتِي دَارَدْ طَمَعْ

دَرْ مَحَبّتْ كَاذِبَشْ دَانْ بِي وَرَعْ

يعني: الخوفُ من الله ينشأ من الورع، يفتضح يوم القيامة المحروم من الورع، وقوفه وقيامه وحركته وسكوته لله من استقام على الورع. كاذب في محبته من يطمع في ولاية الحق من دون ورع.

الورع عمل عام لإيفاء حق العبودية بأبعادها الظاهرية والباطنية. وسالك الورع عندما يجول في الذرى التي يبلغها بالتقوى، فهو بظاهره ينسج حياته رقاً لا عتق له للأوامر والنواهي... إذ "يعمل لله، ويبدأ لله"[2] يسكن لله

---

١) الترمذي، الزهد ١١؛ ابن ماجة، الفتن ١٢.

٢) الكلمات، الكلمة الأولى لبديع الزمان سعيد النورسي.

ويتحرك لله، يأكل لله، يشرب لله، يتحرك ضمن دائرة "لله، لوجه الله".[1]

ومن جانب آخر يجعل باطنه مسقط تأثير "حظـيرة القـدس" ويختلـي بـ"الكنـز المخفي" الذي في قلبه فيكفّ كلياً عن الأغيار. بمعنى يبتعد كلياً عن كل الأفكار التي لا توصل إليه سبحانه.. ويُدبر عن كل رؤية لا تذكّره به.. ويسد أذنه عن كل بيان -إن كان بياناً- لا ينطق به.. وينفض يده عن كل ما لا قيمة له عند الله. فالورع بهذا المعنى يرفع الإنسان عمودياً إلى الله.

وقد أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه الصلاة والسلام: "لم يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع والزهد".[2]

وتعرّفت الإنسانية بالورع بخير القرون، حتى أصبح في زمـن التـابعين وتابعيهم غاية المنى لكل مؤمن. ففي هذا العهد جاءت أخت بشر الحافي إلى الإمام أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا، فتمر بنـا مـشاعل الظاهرية (عمال الدولة)، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: مَن أنتِ عافاك الله تعالى؟ فقالت: أخت بشر الحـافي، فبكـى أحمد، وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها.[3]

وكذا في هذا العهد كان أحدهم يستغيث ويصرخ بـ"ذنبي ذنبي" طوال العمر لتعلق نظره بحرام مرة. وفي هذا العهد أيضاً تُستفرغ المعدة من لقمـة

---

١) انظر: "اللمعات، اللمعة الثالثة، النكتة الثالثة" لبديع الزمان سعيد النورسي.

٢) الورع لابن أبي الدنيا ٤٧؛ الرسالة للقشيري ١٩٧.

٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٥٣/٨؛ القشيري، الرسالة للقشيري ١٩٦؛ صفة الصفوة لابن الجوزي ٥٢٥/٢-٥٢٦.

حرام دخلت دون علم ولأجله يُستفرغ الدمع أياماً.[1]

يروي أحد أولئك الأبطال وهو المحّدث الكبير والفقيه العظيم والزاهد الشهير ابن المبارك أنه رجع من مرو إلى الشام ليعيد قلماً استعاره فلم يرده على صاحبه.[2] وليسوا نادرين من عزموا على وقف أنفسهم لخدمة من يعتقدون أن لهم حقاً عليهم. والزاهد المشهور فضيل بن عياض هو أحد روّاد هذا الميدان. وكم من أبطال مثله في تلك الدنيا الوضيئة.. وتزخر كُتب الأولياء والطبقات والمناقب بحياة أمثال هؤلاء الدرر الذين تفوق حياتهم حياة الروحانيين.. وما هذه الصفحات المتواضعة إلاّ للتذكير بهم.

اَللّهم حَبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا

وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين،

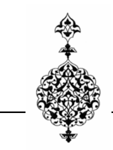
وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وآله وأصحابه المهديين.

---

١) الورع للامام أحمد ٨٤-٨٥؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ١٠٩، ١١١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٥/٥٦.

٢) الرسالة للقشيري ١٩٨.

العبادة، العبودية، العبودة



ترد العبادة والعبودية بمعنى؛ إقامة أوامر الله، واستشعار التذلل والرقّ والخضوع له تعالى. وعلى الرغم من أنهما بمعنى واحد لدى البعض، فإن الأغلبية يركزون على أن هاتين الكلمتين تختلفان في المعنى مثلما اختلفا في المبنى.

فالعبادة هي: قضاء الحياة بامتثال أوامر الله وتكاليفه. وتقابلها العبودية التي هي البقاء بشعور الرقّ لله. ويبين هذا الفرق بوضوح هو أن الذي يواظب على العبادات يطلق عليه اسم "العابد" والذي يقيم العبودية يسمى "عبداً". وهناك نظرات أخرى مختلفة في كتاب "تأملات حول سورة الفاتحة".[1]

وكذلك، فرق دقيق بين العبادة والعبودية، أن العبادة هي أداء كل تكليف من التكاليف المالية والبدنية بمشقة وصعوبة، مع غاية الخوف والرجاء الدائرين حول النية والإخلاص، بينما العبودية هي كل عمل وواجب لا ينطوي عند إنجازه على أنماط هذه الأبعاد.

وأعتقد أن ابن الفارض قد أشار في بيته الآتي إلى هذا الفرق:

---

١) كتاب للمؤلف المحترم، لم يترجم بعد إلى العربية.

وَكُلُّ مَقَامٍ عَنْ سُلُوكٍ قَطَعْتُهُ   عُبُودِيَّةٌ حَقَّقْتُهَا بِعُبُودَتِي

ومن جانب آخر عرّف قسم من الصوفية العبادة، بقيام العوام بواجب الرقّ لله، والعبودية هي الواجب الذي يؤديه أصحاب الشعور والبصيرة، أما العبودة فهي لصفوة الصفوة بإيفائهم التكاليف حقها. حيث إن العبادة: هي عمل لأصحاب المجاهدات، والعبودية: طور أرباب المكابدات الذين يقتحمون الصعاب التي لا تُقتَحم، والعبودة: حال المتوجهين إلى الحق سبحانه بسعة قلوبهم ووسع أرواحهم.

وبتوجيه آخر، فهناك من أرجع جميع ما ذُكر سابقاً إلى: "العبادة الذاتية المطلقة" و"العبادة الصفاتية المقيدة".

ويمكن أن نعبّر عن الأول أنه دوام استشعار العلاقات بين الخالق والمخلوق، والعبد والمعبود، والشاهد والرقيب، والمشَاهد والمراقَب، ودوام امتثال هذه الروح، مُوقفاً حياته على هذا المعنى في الشعور والفكر والطور والسلوك.

والثاني بأنه تفصيل هذا الإجمال، وإحياء هذا المعنى، بهيمنة الإرادة وتلوينها لهذه المشاعر والأفكار. وهذا يقسّم إلى الأقسام الآتية حسب الإرادة والعزم والنية والخلوص:

أ . العبادات التي تُنجَز رغبةً في الجنة وشوقاً إليها.

ب . التكاليف التي تُقام خوفاً من جهنم وخشيتها.

ج . المهمات التي تؤدّى بشعور المهابة والمخافة والمحبة.

د . الواجبات التي تُمثّل بمقتضى العلاقات بين العبد والمعبود، والخالق والمخلوق..

هذا وقد أطلق البعض على القسم الأول من هؤلاء اسم: التجار، وعلى الثاني اسم: العبيد، وعلى الثالث اسم: الصادقون، وعلى الرابع اسم: العشاق. ولعل قول رابعة العدوية بمثابة معيار في هذا الصدد، حيث قالت: "ما عبدتُه خوفاً من ناره، ولا حباً في جنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُه حباً وشوقاً إليه".

وأياً كان الأمر، فالعبودية بأي شكل من الأشكال، هي لونُ كرامة الإنسان، وأعظم مرتبة مُنحها. ولديمومتها التي في أساسها تتفوق -في معنى من المعاني- حتى على أعظم المراتب الإلهية التي تتقدمها لعدم ديمومتها. إذ لما ذكر الله تعالى ذلك الرسول الحبيب ﷺ، مرشد الكل والمقتدى الأكمل، في أفضل الأقوال (وهي الشهادة)، ذكر "عبدُه" ثم توّج هذه الجملة المباركة بـ"رسولُه".. وكذا عندما دعا سبحانه شرف نوع الإنسان، وفريد الكون والزمان ﷺ باسم المعراج ليشرّف به السموات، وضع في مقدمة دعوته (أَسْرَى بِعَبْدِه) تكرمةً له وإشارة إلى هذا التفوق الخاص لعبوديته. ولاسيما في هذه الرحلة السماوية، عندما تحول المكان إلى لا مكان، وغدا الروح رفيقاً حبيباً لذلك الجسم المبارك وأحاطت أشعة "سُبُحات وجهه سبحانه" المضيئة بألوان الترحاب من كل جانب في ذلك الاستقبال الرائع بين ألف تبجيل وتعظيم، فأُخذت "العبودية" إلى المقدمة في خطاب ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم: ١٠). فياله من مغزى عميق!..

ومولانا جلال الدين الرومي لا يعتزّ بأنه سلطان الكلام وأنه قد فاق زمانه، ولا بالعمق المحيِّر لفكره، بل يفتخر بعبوديته لله ويجيش قائلاً:

مَنْ بَنْدَه شُدَمْ بَنْدَه شُدَمْ بَنْدَه شُدَمْ

مَنْ بَنْدَه بَخِدْمَتِ تُوسَرْ اَفْكَنْدَه شُدَمْ

هَرْ بَنْدَه كِه آزَادْ شَوَدْ شَادْ شَوَدْ

مَنْ شَادْ اَزْ آنَمْ كِه تُرَا بَنْدَه شُدَمْ

أي: "أصبحتُ عبداً، أصبحت عبداً، أصبحت عبداً، فأنا في طاعتك خاضع متضرع. العبيد يسعدون عندما يحرَّرون، أما أنا فقد سُعدت بعبوديتي لك".

وهناك آخرون حمّلوا العبادة والعبودية معاني مختلفة منها:

– استشعار العبد بتقصيراته وارتعاشه منها حتى عند وفائه لعبوديته حق الوفاء.

– تزيين حياته بثوانيها وثوالثها بشعور العبودية تجاه ربوبيته الأزلية والأبدية سبحانه وتعالى بإعطاء الإرادة والسعي حقَّهما دون تقصير في البداية، والتبرّي من حوله وقوته لدى تقييم النتيجة.

– عَدّ الأشياء الوجودية بأنها ظل ضياء وجوده سبحانه والتصرف وفق ذلك. وعدم الافتخار بغصبها وتملّكها، وعدم التلبس بإظهار المسكنة بتجاهل نِعَم الحق تعالى وآلائه عليه.

– الشعور الدائمي بشرف الانتساب إليه تعالى في الوجدان. واعتبار كل شرف ومرتبة غيره ليس نسباً ولا انتساباً.

هذه وأمثالها هي بعض تلك الخصائص.

وعلى هذا يصح أن نقول: لا مرتبة ولا منصب أعلى من العبودية. فإن

كانت فهي الحرية التي هي بُعدٌ آخر من أبعاد العبودية أيضاً، حيث يشعر بها المبتدئ، ويحيا بها المنتهي ويتذوقها. وهي تجرد القلب من كل ما سوى الله والعلاقة معه والارتباط به. وأعتقد أن الحرية الحقة هي هذه من حيث القيم التي جُهزّ بها الإنسان.

وقد لفت النظر أحد أولياء الحق إلى هذا الأمر الدقيق فقال:

بَندْ بَكُسِل بَاشْ آزاد اُى پَسَر   چَندْ بَاشِي بَندِ سِيمُ وبَندِ زَر[١]

يعني: أيها الولد، فكّ السلاسل، وكن حراً، فإلى متى تبقى مكبلاً بالذهب والفضة".

وينبه جنيد البغدادي إلى أن المرء لا يصل إلى حقيقة العبودية لله ما لم يتحرر من أسر ما سواه تعالى.[٢]

وآخر يخطو خطوة أخرى ويخبر أنه حتى مستتبعات المشاعر والأفكار والسلوك والأطوار لا بد أن تكون مغلقة دون الأغيار، ويقول:

كُوس نَامُوس اَرْ زَنِي اَز چَرخِ اَنْجَمْ بَر گُزَر

چُون دَفِ رُسْواييست إِين پُر جَلال چَنْبرست

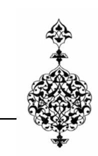
أي: "إن كنت تريد أن تدق طبل الناموس فتجاوز دولاب النجوم، لأن الدف المملوء إطاره بالأجراس هو دف الخزى والعار".

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص١٣/ب١٩.

٢) "إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية" (الرسالة للقشيري ٣٤٩).

اللّهم وفّقنا لما تحب وترضى، وصلّ وسلمّ على محمد المرتضى وآله وأصحابه ذوي الوفاء.



المراقبة

المراقبة هي وضع الشيء تحت الملاحظة، الانتظار، الترصد والعيش بشعور المترصِّد. ولدى أهل الحال هي: التوجّه إلى الله قلباً بقطع العلائق عمن سواه تعالى، واستدامة الحياة بإلجام النفس عن المنهيات، وتنسيق الحياة في ضوء أوامر الله تعالى إيماناً بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. ويمكن أن نعرّف المراقبة أيضاً أنها: السعي الحثيث وراء مراد الله، والمرور بحياتنا وسلوكنا على نمط جاد في توحّد الداخل والخارج تحت نظارة الله سبحانه. وهذا لا يتم إلاّ بالاعتقاد بأن الله مطّلع على جميع أحوال الإنسان، أي أنه سبحانه يسمع أقواله ويعلمها، ويعرف أطواره ويقدّرها، ويرى أعماله ويدوّنها. ويذكّرنا القرآن الكريم ببيانه المنوّر بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس:٦١).

فلئن كانت المراقبة انغلاق القلب كلياً تجاه ما لا يرضى به الله من خواطر غير لائقة وأفكار تافهة تبعد عن حضوره سبحانه، ومن ملاحظات مكدرة تتحكم في السلوك، وتنظيم جميع قنوات الروح المفتوحة إلى اللانهاية وفق الواردات الإلهية.. فالذي ينبغي علينا إذن هو تقييم هذا الفتح والغلق سلباً وإيجاباً تقييماً جيداً.

وأول خطوة في المراقبة هي: إيثار ما آثره الله تعالى وتفضيله على أعمق رغباتنا الداخلية، وتعظيم ما عظّمه الله تعالى وجعلُه فوق رؤوسنا، وتصغير ما صغّره الله تعالى ونَبذه من قلوبنا وخواطرنا.

ولا شك أن التفكر في سعة رحمة الحق سبحانه، يفجّر محبة الله وعشق عبادته. أما مهابته ومخافته سبحانه، فإنها تُفقد الشهية وتقطع الرغبة نحو المعاصي، وتدفع الإنسان إلى حياة حذرة متنبهة. وأما المراقبة فهي تصفي العبادات والطاعات غربلة دقيقة حتى لا يبقى إلاّ ما يريده الله سبحانه، كما يصفّي المنخلُ الأجسامَ. ذلك لأن المراقبة في الوقت نفسه هي بذل الإنسان جهده لئلا تتكدَّر مشاعره وأفكاره، حتى في أوقات انفراده وحده، لشعوره بأنه مشهود ومراقَب في كل آن.

وطريق المراقبة هو من أهم الطرق القصيرة الموصلة إلى الحق سبحانه ودونما حاجة إلى مرشد ودليل، فهي مطعّمة بعينات الولاية الكبرى. وبواسل هذا الطريق يمكنهم أن يتوجّهوا إلى الحق سبحانه في أي زمان ومكان، بعرضهم العجز والفقر فيُقبَلون إلى الخلوة بتذكرة الحاجة. وعندما يتأملون في الطبيعة كل آن من حياتهم يشعرون أن الله يراقبهم، فيجنّبون نظرهم عن الأغيار. وعندما يستمعون إلى الأشياء يكفّون آذانهم كلياً عن الأصوات التي لا تنطق باسمه سبحانه، ويسعون لإدراك كل ما يخصّه هو سبحانه، وعندما يتكلمون عن الوجود يغدون بلبلاً غريداً مفصحاً عن جماله وحسنه، ولا يأبهون بما لا يُقدر على ربطه به سبحانه، فيظلون صامتين بُكُماً نحوه. نعم، إن كانت العين لا تذكّر أنه البصير والأذن لا تذكّر أنه السميع واللسان لا

يذكّر بيانه البديع، فما الفرق بين هذه الأعضاء وقطعة لحم؟

ويعدّ مولانا الرومي المراقبة ستاراً وصيانة عن الرغبات الفاسدة والسلوك الرديء، وضماناً فريداً لرعاية حقوق الله، في قوله: "لقد نعــت الله نفــسه بــ"البصير" كي تكون خائفاً تجاه المفاسد، ووصف نفسه بــ"السميع" كي تسد شفاهك عن كل شيء فاسد.. وقال عن نفسه بأنه "العليم" ليُعلمــك علمَه بك ويحذّرك من الفكر الفاسد".

إن بداية المراقبة ومرحلتها الأولى: حصول اليقين بأن الله حاضر ونـــاظر ومطّلع على أحوالنا كلها، باستسلام قلبي لإرادته ومشيئته وتفضيل مراداته سبحانه على مراداتنا، والسياحة في أفق ﴿وَكَانَ اللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًـــا﴾ (الأحزاب:٥٢).

ومرحلتها الثانية: توجّه السالك إلى الله بحضور قلـــب، وانتظـــار ورود الفيوض الإلهية إلى قلبه بصبر وتمكين وتيقظ. ففي مثل هذا التوجّه لا حاجة إلى مرشد، وذكر، ورابطة، وإذا ما وجدت هذه الأمور مع الموافقة للآداب الشرعية فنعمّا هي.

وسواء أكانت المرحلة الأولى أم الثانية؛ إذا تمكن سالك طريق الحق مـــن استجماع ذاته وكيانه ممتثلاً بروح الإحسان الذي يوضّحه الحديث الشريف (أَنْ تَعْبُدَ اللّٰهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[1].. ورأى نفسه بتسليم تام أنه لا حول له ولا قوة وأنه عاجز فقير، لئلا تنقطع هذه الرؤية.. وأذعـــن بأنه وحده سبحانه نقطة استناد ونقطة استمداد فقال: "لا أستغني عنك خـــذ

---

١) البخاري، الإيمان ٣٧، تفسير القرآن، لقمان ٢؛ مسلم، الإيمان ١.

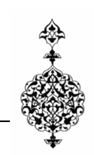
بيدي يا إلهي.. خذ بيدي".. فإنه بمقدار معرفته هذه يكون في طريق مراقبة سليمة وبدوره يمكن أن يعدّ في أمان.

فالذين يمضون حياتهم على هذا النمط من السلوك، تحدث في أرواحهم بمرور الزمان مَلَكة -ويمكن أن نعبّر عنها بحضور القلب أيضاً- فيظل الوجدان مفتوحاً دائماً بوساطة هذه المَلَكة للواردات الإلهية، وتبدأ الفيوض تسيل سيلاً إليه من حضرة الأحدية.

إن أهم واسطة للمراقبة هي المحاسبة -وقد بُحثت بحثاً مستقلاً- والتي تعني تفقّد الإنسان خفايا نفسه ووعيه للبحث عما بدر منه من سيئات وأخطاء، وإلجام حواس أخرى تريد التحكم في ذاته. إذ بطريق المحاسبة يمكن للفرد أن يجد الصواب في قلبه، فيمثّله في سلوكه.. ويتبين لديه بوضوح تام سر "سبحان من يراني ويعرف مكاني ويسمع كلامي". فمثل هذا الشخص يشعر بجميع كيانه وعموم أحواله أنه مراقَب بعلمه تعالى ومشيئته، فيرتعش منه.. وإذا به في كل طرفة عين يبحث عن مراده سبحانه ورضاه.

اَللّهم أرِنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه،
وصلّ وسلم على أشرف خلقك محمد سيد الأنام
وعلى آله وأصحابه ذوي الاحترام.

الإخلاص



الإخلاص هو الصدق، الصفاء، ما لا شائبة فيه، البعد عن الرياء. الكفّ عن كل ما يكدّر القلب، والعيش هكذا.. أو صفاء القلب، واستقامة الفكر، والبعد عن الأغراض الدنيوية في العلاقة مع الله، وإيفاءِ العبودية حقها.. هكذا عُرّف الإخلاص، بل يدور أغلب ما ذكره المشايخ الكرام فيما بعدُ من تعاريف حول ما ذكر.

الإخلاص في عبادة الفرد وطاعته، هو كفّه عن كل ما هو خارج عن أمره تعالى وإرادته وإحسانه، حافظاً للأسرار التي بين العبد والمعبود.. وقيامه بأعماله على أساس عرضها على الناقد البصير. وبتعبير آخر: هو قيام العبد بواجباته ومسؤولياته، لأن الله أمر بها، وابتغاء رضاه لدى أدائه لها، وتوجهه لألطافه الأخروية، لذا عُدّ من أهم صفات صفوة الصفوة الصادقين.

وعلى هذا الأساس، عُدّ الوفاء الصادق أصلاً ومنبعاً، والإخلاص زلالاً نابعاً منها. وقد بيّن ذلك سيد البيان الذي أوتي جوامع الكلم ﷺ بقوله: (مَن أخلص لله تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيعُ الحكمة على لسانه).[1]

---

١) انظر: المصنّف لابن أبي شيبه ٨٠/٧؛ المسند للديلمي ٥٦٤/٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ١٨٩/٥، ٧٠/١٠.

فالوفاء الصادق أُولى الأوصاف التي يتحلى بها عالَمَ الأنبياء عليهم الـــسلام. أما الإخلاص فهو أنور أبعاده. فهم منذ الولادة مُنحوا الإخلاص الذي يحـــاول غيرُهم الحصول عليه طوال حياهم. والقرآن الكريم يذكّرنا بذلك لدى ذكـــره إخلاص نبي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ (مريم:٥١).

ومثلما أن كلاً من الوفاء الصادق والإخلاص صفات حياتيـــة للأنبيـــاء الكرام عليهم السلام، فكل منهما أيضاً وصف ضروري كالماء والهواء لممثلي دعوة النبوة. فامتلاك هاتين الخاصتين، والطيران بهذين الجناحين النورانيين، من أعظم منابع قوهم. فالأُوَل يؤمنون أهم لا يقدرون على تقديم خطوة واحـــدة من دون إخلاص، والآخرون عليهم بأن يؤمنوا أهم لا يستطيعون ذلك.

وحقاً إن الوفاء الصادق والإخلاص عميقان إلى درجة أنّ أحد طرفيهما في قلب الإنسان والآخر لدى العناية الإلهية سبحانه، حتى أنه لم يـــشاهد أن بقي في الطريق ضائعاً من فتح أشرعة سفينته وخاض غمار هذه الأعمـــاق وطار بذلك الجناح. ذلك لأهم في ذمة الله. فإن ابتغاء رضاه سبحانه أفضل عنده من كثرة العمل ووفرة الثمرات. "لأن ذرة من عمل خالص أفضل عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة".[١]

والإخلاص عمل قلبي. وإن الله يقدّر الأعمال وفق الميول القلبية كما في الحديث الشريف: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِـــنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ).[٢]

---

١) اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي ٢٠١.

٢) مسلم، البر ٣٣.

والإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيراً والضحل عميقاً والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة. حتى يستطيع الإنسان بوساطتها أن يطلب أغلى ما في سوق الدنيا والآخرة. ويتمكن بفضلها أن يقابل بالاحترام والتوقير رغم كثرة الطالبين.

ولأجل هذه القوة الخفية للإخلاص، يقول الرسول ﷺ (أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ)[1] وينبه أن تكون الأعمال خالصة لله (أخلِصُوا أعْمَالَكُمْ فَإن اللهَ لاَ يَقبَلُ منَ الْعَمَلِ إلاَّ مَا خَلَص).[2]

فإن كان العمل جسداً فروحُه الإخلاص. وإن كان العمل جناحاً فجناحه الآخر الإخلاص. فلا جسد بلا روح، ولا يوصل إلى مكان بجناح واحد.

ويئن مولانا الرومي في كلامه الجميل:

بَايَدَتْ إِخْلاَص دَرْ جُملَه عَمل تَا پَذِيرَد طَاعَتَتْ رَبِّ أَجَل

چُونْكِه إِخْلاص مُرغِ طَاعَترا جَنَاح بِي جَنَاح كُيْ مِي پَرِي أَوجِ فَلاَح

أي: عليك بالإخلاص في أعمالك وأطوارك كلها كي يقبل الرب الجليل طاعاتك؛ لأن الإخلاص جناح طير الطاعة، فكيف تطير إلى ساحة الفلاح دون جناح.

---

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٤٢/٥؛ المسند للديلمي ٤٣٥/١.

٢) السنة للدار قطني ٥١/١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٣٦/٥؛ المسند للديلمي ٢٧١/٥؛ الأحاديث المختارة لضياء الدين المقدسي ٩٠/٨.

وكلام جميل آخر ليزيد البسطامي: لقد بذلت ما بوسعي فعبـــدت الله ثلاثين سنة. ثم سمعت هاتفاً يقول: "يا أبـــا يزيـــد إن خـــزائن الله مـــلآى بالعبادات. إن كنت تبغي الوصول إليه تعالى، استصغر نفسَك في باب الحق وكن مخلصاً في عملك" فانتبهت.

والإخلاص لدى البعض: التوقي عن ملاحظة الخَلق في العبـــادة والطاعـــة. وآخرون قالوا: نسيان رؤية الخلق كلياً. وآخرون: عدم تخطر الإخلاص نفسه.

نعم، الإخلاص لدى هؤلاء: إبعاد العمل عن كل ملاحظـــة وشـــائبة، ونســـيان جميع الحظوظ المادية والمعنوية بالمراقبة المستديمة.

والأصح في الإخلاص أنه: سرٌّ بين العبد والمعبود استودعه الله قلب مـــن أحبّه من عباده.[1]

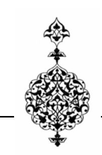
ويستوي في نظر من تنبّه قلبُه بـــالإخلاص، المـــدح والـــذم، التعظـــيم والتحقير، معرفة الناس أو جهلهم به أو لأعماله، بل حتى ترقـــب الثـــواب والأجر... كل ذلك غير وارد عنده، لذا فأحوال أمثـــال هـــؤلاء الخفيـــة والظاهرة سواء.

اللّهم اجعلنا من عبادك المخلِصين المخلَصين، وصلّ وسلّم على قدوة المخلَصين وآله وأصحابه المخلصين.

---

١) ورد خبر مسند: أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى، أنه قال: "الإخلاص سرٌّ مـــن سرّي استودعتُه قلب من أحببته من عبادي". أخرجه الحافظ العراقي في إحياء علوم الـــدين، البـــاب الثـــاني في الإخلاص. من الرسالة للقشيري ٣٣٠. وانظر: هذا المعنى في حديث قدسي: المسند للديلمي ١٨٧/٣.

الاستقامة



الاستقامة التي تعني السداد والاعتدال عُرّفت لدى أهل الحقيقة: تجنب الإفراط والتفريط في كل الأمور؛ في الاعتقاد، في الأعمال، في جميع المعاملات والأحوال والكلام، بل حتى في الأكل والشرب، مراعياً السير في طريق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فهؤلاء، يُبشَّرون في العقبى وتحتفي بهم الملائكة صفاً صفاً، فيبتهجون بهذه البشائر في يوم يخيّم فيه الخوف والهلع وتتوالى فيه العقبات من كل جانب، وذلك لإيمانهم بربوبية الله سبحانه وتصديقهم بوحدانيته جلّ وعلا، ولسلوكهم مسلك الأنبياء في إيمانهم وأعمالهم ومعاملاتهم. كما تخبر به الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

الاستقامة في مرتبة الطبع: إقامة التكاليف. وفي مرتبة الذاتية (الإنيّة): الاطلاع على حقيقة الشريعة. وفي مرتبة الروح: الانفتاح للمعرفة. وفي مرتبة السر: تذوق روح الشريعة. ونلمس الصعوبة البالغة في رؤية هذه المراتب ورعايتها في قول ذلك العظيم روحاً ومعنى ﷺ، حيث قال بمغزى عميق:

(شَيَّبَتْنِي هُودٌ)[1] مشيراً به إلى الآية الكريمة ﴿فَاسْـــــتَقِمْ كَمَـــا أُمِـــرْتَ﴾ (هود:١١٢). أوَ ليست مشاعره وفكره وأحواله وأطواره كلها كانت علـــى الاستقامة ؟ ويسأله صحابي جليل يريد النجاة والفوز بالسعادة الأبدية قائلاً: (يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: قُلْ رَبِّـــيَ اللهُ ثُـــمَّ اسْـــتَقِمْ)[2] فاختصر ﷺ في جملتين اثنتين من جوامع الكلم، الاستقامة التي هي جـــامع أسس العقائد والأعمال.

نعم، إن لم يكن سالك طريق الحق مستقيماً في حالته، ضـــاع ســـعيه وخاب جهده. كما يُسأل عن إضاعته للزمان من غير طائل.

الاستقامة شرط في البداية وزاد في الطريق للحصول على النتيجة، فهـــي منطلق الطريق. أما في نهاية السلوك فهي عوض معرفة الحق سبحانه وثمنها، وشكرٌ – يعدّ واجباً – لبلوغ معرفة الحق.

ومن أهم علامات الاستقامة: خلو الحياة من الروَغان في البداية، ومراقبة النفس في أثناء الطريق، والكفّ عن كل ما لا علاقة له بالله سبحانه من فكر وسلوك.

وما ألطف ما قاله أحد أولياء الحق:

كَسِي دَانَم زِ اَهْلِ اِسْتِقَامَتْ   كِه بَاشَدْ بَر سَرِ كُوي هِدَايت
بَا اَنْوَار هُوِيت جَان سُپرده   زِاُوسَـــاخِ طَبِيعَت پَاك مُرْدَه

أي: أعلمُ أن أحدَ رجال الاستقامة، قد أقام على رأس قرية الهداية، كـــان

---

١) الترمذي، تفسير القرآن ٥٧.

٢) مسلم، الإيمان ٦٢؛ المسند للامام أحمد ٣٨٥/٤.

يُودِع روحه وأسلمها وديعة إلى الأنوار الذاتية، فمات طاهراً من لوثات الطبيعة.

نعم، على العبد أن يكون طالب الاستقامة، لا طالب الكشف والكرامة، ذلك لأن الله هو الذي يطالب بالإستقامة والعبد مولع بالخوارق. فأيهما يُفضّل: ما يطلبه الله أم ما تعلقت به قلوبنا ونظل لاهثين وراءه؟

ولما قيل لأبي يزيد البسطامي: إن فلاناً يسير على الماء ويطير في الهواء، قال: والأسماك والضفادع كذلك تسبح في الماء، والذباب والطيور تطير في الهواء "ولو رأيتم أحداً فرش سجادته على الماء وهو يعوم أو تربع في الهواء، فلا تقتدوا به حتى تنظروا ما في أحواله من استقامة ومطابقة للسنة النبوية".[1] فيرشدنا بهذا إلى التواضع الجمّ على خط الاستقامة وميدان العبودية دون التحليق في أجواء الكرامات والخوارق.

الاستقامة، في طريق القربة (إلى الله) هي المرتبة الأخيرة لثلاث مراتب:

المنزل الأول: التقويم، يوفق السالك في هذه المرتبة على تأديب نفسه إلى حدّ ما بتوالي أدائه لأقسام الإسلام النظرية والعملية، حتى يجعلها جزءاً لا يتجزأ من طبيعته.

المنزل الثاني: الإقامة والسكون، يبتعد السالك عن المساوئ التي تخص عالم الأمر -كالرياء والسمعة والعجب التي لا تأتلف قطعاً مع العبودية- فيهذّب قلبه من الشرك وشوائبه.

---

١) انظر: حلية الأولياء لابي نعيم ١٠/٤٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٠١/٢. "قال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة".

المنـــزل الثالث: الاستقامة، هذا المقام هو مقام انفراج أبـــواب الـــسر لسالك طريق الحق، ونقطة قطب لنـــزول الواردات الإلهية باسم الكرامات والإكرامات. فالاستقامة بهذا المعنى، وبالشكل المتعارف بين أهل الحق، هي إدامة الحياة في دائرة "يد الله" ووفق "قدم صدق"،[1] منخلعاً في كثير مـــن الأوقات من العاديات، حيث إن هذا الإقليم إقليم الخوارق الذي تنـــزل فيه الألطاف الإلهية غدقاً... فالأزهار فيه لا تذبل، والمروج فيه لا تعرف القـــر والحر.. بل ربيع دائم مقيم يزهر. هذه الديمومة وعدم الموت تبيّنـــها الآيـــة الكريمة ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَـــدَقًا﴾ (الجـــن:١٦)، فورود (أَسْقَيْنَاهُم) بدلاً من (سَقَيْنَاهُم) يـــشير إلى هـــذه الحقيقـــة، أي إلى الدوام، كما أن (غَدَقًا) يعني الماء الغامر الكثير. وكذا الـــ(س) الموجودة في (اسْتَقَامُوا) الدالة على الطلب تذكّرنا بالآتي: أنتم لو طلبتم إقامة حيـــاتكم على التوحيد، وراعيتم العهود التي بينكم وبين الله ورسوله ﷺ، وحـــافظتم على الحدود الإلهية، سيسيل عليكم هذا النبع دون انقطاع.

وسيدنا الرسول ﷺ يقول مشيراً إلى هذه الحقيقة: (لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ)[2] وكذا يقول: (إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكَفِّرُ لِلِّسَانِ تَقُولُ اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا).[3]

---

١) مقتبس من الآيتين الكريمتين: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢) المسند للامام أحمد ١٩٨/٣؛ شعب الإيمان للبيهقي ٤١/١.

٣) الترمذي، الزهد ٦٠؛ المسند للامام أحمد ٩٦/٣.

وأخيراً لنستمع إلى تذكير حيوي من "أسعد مخلص باشا" إذ يقول:

الصدق والثبات ضروريان في الاستقامة
ثبت قدمك في المركز وطرف البركار في الدوران.

اَللّهم اهدنا الصراط المستقيم، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد
سيد المتقين وآله وأصحابه أجمعين.



التوكل، التسليم، التفويض، الثقة

التوكل هو مبدأ الأحوال التي تخص عالم الأمر أو السير الروحاني، بالاعتماد على الله والثقة به، ثم المضي قلباً في دائرة التبرّي من كل قوة وحول بشري، وفي النتيجة إحالة كل شيء إلى القدير المطلق وبلوغ الاعتماد التام على الله وجداناً في النهاية.. والذي يلي التوكل ويأتي بعده بخطوتين هو "التسليم".. وبعده بجولة هو "التفويض".. ومنتهاه "الثقة".

التوكل، يعني اعتماد القلب على الله والثقة به كلياً وشعوره بالنفور والامتعاض عن ملاحظة أي قوة ومصدر كان. ولا توكل إن لم يكن اعتماداً وثقة بهذا المقياس. إذ لا يوصل إلى التوكل الحقيقي طالما أبواب القلب مفتوحة للأغيار.

التوكل، رعاية الأسباب دون خلل ضمن دائرة الأسباب، ومن ثم انتظار تصرف القدرة المطلقة علينا، إذ بعده بخطوتين هي مرتبة "التسليم" التي وصفها كثير من أولياء الحق "كالميت بيد الغسّال"، وبعدها بأقدام يأتي مقام "التفويض" الذي هو إحالة كل شيء إلى الله تعالى وانتظار كل شيء منه. فالتوكل مبدأ والتسليم نتيجته والتفويض ثمرته. وعليه فالتفويض أوسع منهما وهو ملائم للمنتهين، لأن فيه ما هو أبعد من تبرّي الإنسان من حوله وقوته والذي هو

مرتبة التسليم والبلوغ إلى أفق (لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ) والشعور بما فيه من "كنز مخفي" كل آن، وامتلاك خزائن الجنة الخاصة وغناه بها.

وبمعنى آخر: إن سالك الحق يشعر بعجزه وفقره بتذكير ما في وجدانه من نقطة الاستناد ونقطة الاستمداد، وبعد إحساسه بهما يقول "لا أستغني عنك خذ بيدي يا إلهي.. خذ بيدي" ويتوجه إلى منبع القوة والإرادة والمشيئة.

فالتوكل هو اتخاذ الفرد ربه وكيلاً لأجل مصالحه، دنيوية كانت أو أخروية. أما التفويض فهو اسم للاعتراف بالأصالة التي وراء هذه الوكالة بشعور وجداني.

وبتعبير آخر: التوكل أن يعتمد الإنسان على الله وما عنده، ويوصد أبواب القلب دون سواه، ويمكن أن نعني بهذا طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية.

يقول المرحوم "شهاب" معبراً عن هذا المعنى:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي ٱلْأَمْرِ كُلِّهِ فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلاَ

وَكُنْ وَاثِقًا بِاللهِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ تَفُزْ بِمَا تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلاَ

وأعتقد أن سيدنا عمر رضي الله عنه أراد هذا المعنى في رسالته التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، جاء فيها: "أما بعد، فإن الخير كلَّه في الرضى. فإن استطعتَ أن ترضى، وإلاّ فاصبر".[1]

ومن زاوية أخرى فالتوكل اسم للاعتماد على الله، وهو حال الناس عامة

---

١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٧٠.

والتسليم هو حال المتنبهين إلى الحياة القلبية والروحية؛ أما التفـــويض فهـــو عنوان عدم التعلق بالأسباب والتدبير، وهو حال أو مقـــام يخـــص أخـــص الخواص. فسالك الحق الذي يسيح في سماء التفويض، حتى لو كان منشغلاً ظاهراً بالتدبير والأسباب، فهذا الاشتغال من ضروريات وجوده في دائـــرة الأسباب، ومن لوازم مأموريته تجاه الحق تعالى. إذ بخلاف ذلك لـــو اتخـــذ الأسباب مرتكزاً ومستنداً حقيقة، فإنه يتردى من مرتبة بازٍ سماوي إلى دابّة حشرية تزحف على الأرض.

تذكر كتب المناقب الحادثة الآتية المتعلقة بهذه الملاحظة: أن أحد أوليـــاء الحق لدى انفعاله الشديد في أثناء اتخاذه التدبير ضمن دائرة الأسباب، سمـــع هاتفا يهتف به:

لاَ تُدَبِّرْ لَكَ أَمْرًا إِنَّ فِي التَّدْبِيرِ هَلْكَى

فَوِّضِ ٱلأَمْرَ إِلَيْنَا نَحْنُ أَوْلَى لَكَ مِنْكَا

فإن "ترك التدبير" الذي يعني التجرد من جَلَبة الأسباب وعدم فسح المجال للوسائط في القلب، عمقٌ عظيم، لا يطاله عامة الناس ولا يقـــدر عليـــه إلاّ الروّاد الأفذاذ الذين يستمسكون بعلاقتهم مع الحق سبحانه وهم بين الخلق.

إن عدم إعطاء التأثير الحقيقي للأسباب مع التوسل بها هو "توكلٌ" لعامة الناس، و"تسليمٌ" لمن انتبه إلى ما وراء حجب الأشياء، و"تفـــويضٌ وثقـــةٌ" لأهل السكينة والأمان كلٌّ حسب درجته. وما ألطف ما يقولـــه الرســـول الحبيب ﷺ عندما يربط الإرادة والجهد والعمل والتفويض والتوكل معاً: (لَوْ

أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).[1]

وكل فرد يأخذ حظاً من فهم هذا الكلام النبوي حسب درجته:

١- العوام يفهمون منه: الاعتماد على الله بمعناه العام. كما تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم:١٢) ويذكره مولانا الرومي مقتبساً من الحديث الشريف:

گَرْ تَوَكُّل رَهْبَرَسْت — اين سَبَب هَمْ سُنَّت پَيْغَمْبَرسْت

گُفت پَيْغَمْبَرْ بَآوازِ بُلَندْ — بَا تَوَكُّلْ زَانُوي اُشْتُر بَبَند[2]

أي: مهما كان التوكل مرشداً ودليلاً، فرعاية الأسباب سنة نبوية. فقد نادى الرسول ﷺ اعقِلها وتوكّل.[3]

٢- أما الذين يمضون حياتهم في سفوح القلب والروح ويتبرّأون من حولهم وقوتهم مستسلمين إلى حول الله وقوته، فيفهمون منه: حال الميت بيد الغسّال، وتذكّرنا به الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

٣- أما الذين يجولون في ذرى الفناء في الله والبقاء بالله، فهؤلاء يفهمونه

---

١) الترمذي، الزهد ٣٣؛ ابن ماجة، الزهد ١٤؛ المسند للامام أحمد ٣٠،٥٢/١؛ كتاب الزهد لابن المبارك ١٩٧ (والنص منه).

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٥٠/ب٩١٢.

٣) (جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل). الترمذي، صفة القيامة ٦٠؛ الصحيح لابن حبان ٥١٠/٢.

"تفويضاً" كسيدنا إبراهيم ﵇ الذي قال: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ،[1] أي علمُه بحالي يُغني عن سؤالي. أو يفهمونه "ثقة" كما هو الحال لدى مفخرة الإنسانية ﷺ الذي قال ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠) في ثقة تامة واطمئنان بالغ حينما سقطت ظلال الأعداء على فم الغار وارتجت جنبات " ثور" بتهديداهم الرهيبة التي أرعبت الجميع. والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

التفويض أسمى المراتب، والثقة أعلى المقامات، فمن بلغ هذه المرتبة وفّى هذا المقام حقه، لا يذوب بعقله ومنطقه وعقيدته، بل أيضا بجميع مشاعره الظاهرة والباطنة في أوامر الحق تعالى وإشعاراته، حتى يصبح مرآة مجلوة لله تعالى.

ولهذه المرتبة التي تفوق المراتب، أماراها الخاصة بها، نذكر منها:

١- السكون والطمأنينة برؤية التدبير ضمن التقدير.

٢- العلم بأن إرادته ظلٌ للإرادة الحقيقية والتوجه إلى الأصل.

٣- استواء القهر واللطف لديه وإبداء الرضا بجميع كيانه بالقضاء.

و"صاحب المنهاج" يرسم خطوط التفويض كالآتي:

وكّلتُ إلى المحبوب أمري كلَّه   فإن شاء أحياني وإن شاء أتلَفا

وكلام جميل آخر من "واصف اندروني":

لابد أن سيظهر حكم القدر

---

١) انظر: البخاري، تفسير القرآن آل عمران؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٠/٢؛ حلية الأولياء لابي نعيم ١٩/١.

ففوّض الأمر إلى الحق ولا تتألم ولا تتكدر.

ومن أجمل ما قيل في التفويض هو ما قاله إبراهيم حقـــي في قـــصيدته "تفويض نامه" – رسالة التفويض – التي مطلعها:

الحق تعالى يجعل الشرور خيرات

لا تظنن يفعل غير ذلك

فالعارف يشاهده

لنرَ مولاي ما يفعل

ما يفعله هو الأجمل

كن متوكلا على الحق

وفوّض الأمر إليه تُرِح نفسك

كن صابرا راضياً

لنرَ مولاي ما يفعل

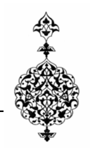
ما يفعله هو الأجمل".[١]

ربّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

١) معرفتنامه لإبراهيم حقي (تركية) ص ١٤٩/١.

الخُلق



الخُلق هو المزاج، الطبع، السجية. فهو أهم غاية للخَلق، والبُعد الحقيقي للخَلق الجبلّي، وتصرّف إرادة الإنسان على حقيقة "الخَلق" مستهدفاً الأخلاق الإلهية. فمن أحسن استعمال هذا التصرف وألبس الخَلق لباس "الخُلُق" سهلت عليه جميع الأعمال الصالحة.

نعم: الخَلق والخُلق يأتيان من جذر واحد. ولا يتباينان في الأساس من حيث البنية. إلاّ أن الخَلق، يُرى بالبصر، ويُدرَك بالحواس الخارجية، لما له من معنى تغلبت عليه المادة المتعلقة بالهيئة والشكل والهيكل. بينما الخُلق، هو أصل ومحتوى ومعنى يُدرَك بالقلب، ويُشعر بالأحاسيس ويُمثّل بالروح.

الإنسان مجهول بواجهته الخارجية، لا يُظهر هويته الحقيقية إلاّ طبعُه ومزاجُه وسجيتُه. والناس مهما ظهروا بمظاهر مختلفة، فإن طبعهم وسجاياهم لا بد أن تكشف عنهم في يوم من الأيام. وقد عبّر عن هذا شاعر جاهلي بقولٍ عارفٍ:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ　　وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[1]

وبتعبير آخر، إن الخُلق يصحح جميع تضليلات المظاهر وخداعات

---

١) انظر قول زهير بن أبي سلمى هذا في: خزانة الأدب للحموي ٢/٤٩٢.

الأشكال فيكون مترجماً لخفايا ذات الإنسان نفسه. وفي الحقيقة حينما يُذكر "الخُلقُ" تُذكر معه الأخلاق الحسنة، ولكن لما كان بعض الخُلق يصبح مَلكة بمرور الزمان، فيتحول الخير وكذا الشر إلى جزء من عمق طبيعتنا، فيرد تباعاً تقسيم آخر هو: "الأخلاق الحسنة" و"الأخلاق السيئة"، إلاّ أننا هنا نقـــصد "الأخلاق الحسنة" وحدها.

إن أوثق معيار للتصوف هو "الخُلق الحسن" فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في التصوف، أما الحالات الخارقة والمقامات المحيرة والتصرفات الفائقة على طاقة البشر، حتى لو عدّت أزاهير الخُلق الحسن وثمراته فلا قيمة لها ما لم تقترن بالأخلاق الحسنة.

أمَا يقول صاحب الشريعة ﷺ :(خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً)[1] عنـــدما سئل: أي المؤمنين أفضل؟

ولِمَ لا، فإن الله سبحانه وتعالى، قد وصف أفضل عباده وأكـــرمهم، في مقام التسلية والأمان والثناء بـــ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٢) مع عظيم آلائه وعميم ألطافه عليه، بمعنى: إنك على خُلق عظيم بحيث لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه بمداه القرآني ومرتكزه الإلهي. فيلفت الأنظار إليـــه بأخلاقـــه الرفيعة السامية، وبمزاياه الروحية العالية، أي: بخُلقه الذي يُعد غايـــة خِلقتـــه، ومنتهى هدفه ومعناه الحقيقي.. أي بخُلُقه القرآني الذي بـــدأ بـــأول إنـــسان وتكامل حتى عصر النور واختتم به.

---

١) ابن ماجه، الزهد ٣١؛ المسند للامام أحمد ٢٧٨/٤. وفي الباب أحاديث كثيرة؛ انظر مـــثلاً: البخـــاري، الأدب الرضاع ١١، الإيمان ٦؛ أبو داود، السنة ١٦.

إن ما نقوله من حقيقة، وهي الخُلق الذي يأتي بمعــنى رســوخ الــدين والعيش به وامتثال القرآن دون خلل، يؤيده جواب أمنا عائشة رضــي الله عنها على استفسار سعيد بن هشام: (يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ بَلَى قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَــانَ الْقُرْآنَ).[1]

ومن جهة أخرى، فالكلمات التي تشكل الآية المنــزلة، تذكّر بالذات: أن هذه الأخلاق هي أخلاق ذات أصالة إلهية، قرآنيــة، وفــوق الإدراك، وتشير إلى تجلي هذه الأخلاق وظهورها، وفضلا عن خصوصيتها بالمخاطب الكريم، فإن خُلقه قرآني عميق الغور لاهوتي السعة، لا يقاس بــأي نظــام خلقي آخر قط، وأن هذا الخلق السامي الرفيع فوق الإدراك، المــشار إليــه بالتفخيم في تنوين كلمة "خُلُقٍ". مما يبين بوضوح أنه لا نظير له بين الناس لا سابقاً ولا لاحقاً، فهو نبي الخُلق الجميل بل أجمل من كل جميل.

نعم، إنه من حيث مادته ومعناه، وظرفه ومظروفه، وخَلقــه وخُلقــه، مفتوح للصالحات كلها، إذ شُرّف بفطرة، وسجايا ومَلكات، مهيأة لامتلاك الخيرات جميعها ومستعدة لأنواع العظمة كلها. ثم سار إلى "أعلــى عليــي الكمالات" مقدراً أفضل تقدير لمواهبه الأولى هــذه، ولم يكتــف بالــسير وحده، بل تنبهت جميع الألطاف الإلهية التي تجلت فيه بالأصــالة، وجميــع الفيوض القدسية المقدسة بــقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١) فأخذ بأيدي معاصريه ذوي الأرواح الطاهرة وهــم

---

١) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ أبو داود، الصلاة ١٣٦؛ النسائي، قيام الليل وتطوع النهار ٢.

صفوة الصفوة، ورفعهم أيضاً إلى ذرى شواهق تترتب على تبعيتهم.

وفي لسانه جواهر الأقوال:

١. (خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا).[١]

٢. (إنّ العبدَ لَيبْلُغ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عظيمَ درجات الآخرة).[٢]

٣. (أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلُقٌ حَسَنٌ).[٣]

وفي يده وصفة ذات أسرار لجعل الإنسان إنساناً كاملاً، فجال بالذين يتبعونه وساح بهم في الآفاق التي تجول فيها الملائكة.

وقد لُخصت علامةُ حسن الخُلق، القولي والفعلي، بالجمل الآتية: عدم الإيذاء .. وغض الطرف عمن آذوه، وتناسيهم حتى لو أبصرهم.. ودرء السيئة بالحسنة.. ولا جرم أن الذي بُشّر بحقيقة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٢) لهو أفضل مثال لهذا. فهو لم يمتعض ممن وقف قبالته وقال له: اعدل[٤].. ولا ممن آذاه بأخذه بحجز ردائه[٥].. ولا ممن نثر التراب على وجهه[٦]... ولا ممن افترى على زوجته الطاهرة[١]... بل ناهيك عن

---

١) الترمذي، الرضاع ١١؛ أبو داود، السنة ١٦؛ المسند للامام أحمد ٢/٢٥٠، ٩٩/٦.

٢) المعجم الكبير للطبراني ٢٦٠/١؛ المسند للديلمي ١٩٧/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢٤،٢٥/٨؛ كشف الخفاء للعجلوني ٢٦٠٢٦١/٢.

٣) المصنف لابن أبي شيبة ٢١٢/٥؛ المسند لعبد بن حميد ٤٥٢؛ المعجم الكبير للطبراني ٢٥٣/٢٤، ٧٣/٢٥؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٧٥/٥ .

٤) البخاري، الأدب ٩٥، المناقب، ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢.

٥) البخاري، فرض الخمس ١٩؛ مسلم، الزكاة ١٢٨.

٦) البخاري، التاريخ الكبير ١٤/٨؛ المعجم الكبير للطبراني ٣٤٢/٢٠؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢١/٦.

امتعاضه منهم، عادهم في مرضهم،[2] وحضر تشييع جنائزهم[3] ذلـــك لأن الأخلاق الحسنة لون طبيعته وبعدُ خِلقته.

كم ممن يظهرون بخلق جميل، وليونة الطبع، و دعوى الإنسانية، ولكـــن الأخلاق الحسنة واللين في حياهم لا تعدو صورة مزيفة وبلورة قابلة للكسر حالاً. إذ يكفي لإبراز وجوههم الحقيقية، وفكرهم الحقيقي، غضب بسيط، وشدة قليلة، وتعرض خفيف.

لكن المزيّن صدراً بالأخلاق الحسنة، لا يبدل طوره حتى لـــو وضـــع في جهنم، بل يعيش هناك أيضاً حليماً سليماً، يحاور الزبانيـــة ويـــسامرهم.. يتحمل كل ما أصابه بصدر رحب وقلب واسع.

إن القلب المفتوح للأخلاق الحسنة شبيه بمكان واسع فسيح. وحتى لـــو كانت همومه تسع الدنيا فإنه يستطيع أن يجد موضعاً ليـــدفن فيـــه غيظـــه وحدته. أما ذوو الأخلاق السيئة، ضيقو الصدر فهم حمقى بل أشد حماقـــة من الغراب أمثال "قابيل"، فلا يجدون قبراً في الأرض الواسع الرحب ليدفنوا حدهم وغيظهم وأحاسيسهم الذميمة.

وننهي هذا الفصل قائلين:

" كمال الإنسان بالأخلاق

نظام العالم بالأخلاق ".

---

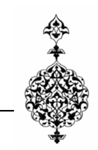
١) البخاري، الشهادات ١٥؛ مسلم، التوبة ٥٦.

٢) أبو داود، الجنائز ٤؛ المسند للامام أحمد ٥/٢٠١؛ المعجم الكبير للطبراني ١/١٦٣.

٣) البخاري، تفسير سورة التوبة ١٢؛ مسلم، المنافقين ٢-٣.

اللّهم عفوَك وعافيتَك ورضاك وتوجّهَك ونفحاتِك وأُنسَك وقُربَك. وصلّ وسلم على من أرسلته رحمة للعالمين وآله وأصحابه الغرّ المحجّلين.

التواضع



التواضع هو التذلل، عكسُه التكبّر. ويمكن أن نعرّفه أيضاً بأنه: شعور الإنسان بموقعه الحقيقي أمام الحق سبحانه، والسلوك وفقه، وتقييم مكانته لدى الخلق من زاوية هذا الفهم، وعدّ نفسه كأحد من الناس، أو كأي جزء من أجزاء الوجود. وأيا كان التعريف فمتى ما تقبل الإنسان -بروح متواضعة- أن تكون نفسُه عتبة الباب، موطئ البيت، حجر الرصيف، حصاة الجداول، تبن السنابل، تمكّن أن يعبّر كما عبّر "الإمام آلوارلي":

الكلّ حسنٌ إلاّ أنا

الكلّ قمح والتبن أنا.

فيكون مرفوع الرأس، مرموقاً مقبولا لدى أسمى المقامات من أهل الأرض والسماوات. أمَا يقول الصادق المصدّق ﷺ في حديثه الطيب الجميل المسند إليه (مَنْ تَواضَع للهِ رَفعَه اللهُ ومَن تَكّبر وَضَعه الله)[1] بمعنى أن الكبير والمتكبر والمتواضع والوضيع يتناسبا تناسبا عكسياً.

ويرى البعض أن التواضع هو أن لا يرى الإنسان في نفسه قيمة. ويقول البعض الآخر: هو احترام الناس بما يليق بإنسانيتهم ومعاملتهم بإنكار الذات..

---

١) المعجم الأوسط للطبراني ١٤٠/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٣٥٢/١٠. وانظر: أحادث مشابهة في المسند ٧٦/٣؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ١٥٦؛ المسند لأبي يعلى ٣٥٨/٢.

وآخرون: أن يعدّ نفسه أشرّ الناس ما لم يتغمده الله بعنايته سبحانه عناية فائقة. وآخرون: اتخاذ موقف تجاه أي نأمة داخلية للأنانية في نفسه صغيرة كانت أم كبيرة، وبذل الجهد لخنقها في موضعها. فكل واحد من هؤلاء له فهمه وطرز تلقيه الخاص، بيد أن الأخير يتعلق بالمقربين والمخلَصين أكثر.

قال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال -من نصب خباءته في مقام القرب-: لمّا أتتني الوفود بالسمع والطاعة، دخلتْ في نفسي نخوة -حاشاه أن تكون نخوة كما نفهمها نحن نوعاً من الكدورة- فأحببتُ أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها.[1] وكذا حمله الدقيق على ظهره. ولوم نفسه على المنبر[2] وسكوته عمّن عاتبه[3].. كل ذلك من قبيل كسر النفس والتواضع.

ورؤي أبو هريرة ﷺ وهو أمير المدينة المنورة، وعلى ظهره حزمة حطب، وهو يقول: "طرّقوا للأمير، أي افسحوا للأمير طريقاً".[4]

وقيل: ركب زيد بن ثابت ﷺ فَدَنا ابنُ عباس (حبر الأمة) رضي الله

---

١) الرسالة للقشيري ٢٤٤.

٢) روي أن عمر بن الخطاب رقى المنبر وجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس لقد رأيتُني وما لي من أكال يأكله الناس إلا أنَّ لي خالاتٍ من بني مخزوم فكنتُ أستعْذِبُ لهن الماءَ فَيُقَبِّضْنَ لي القبضات من الزبيب. قال ثم نزل عن المنبر فقيل له ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال إني وجدتُ في نفسي شيئا فأردت أن أطأطِئَ منها. الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩٣/٣.

٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣١٤/٦؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢٨٤/٤.

٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٣٥٥/٣؛ مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٠/٢؛ الرسالة للقشيري ٢٤٥.

عنهما ليأخذ بركابه، فقال: مه يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبّلها، وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ.[١]

ومرّ الحسن بن علي رضي الله عنهما بصبيان معهم كِسَرُ خبز فاستضافوه فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم.[٢]

وقيل: تشاجر أبو ذر الغفاري وبلال الحبشي رضي الله عنهما، فعيّر أبو ذر بلالاً بالسواد. فشكاه إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر إنه بقي في قلبك من كبر الجاهلية شيء، فألقى أبو ذر نفسه، وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه، فلم يرفع حتى فعل بلال ذلك.[٣]

وأمثال هذه الحوادث كثيرة، كلها نماذج للمحوية والتواضع.

إن من يستمع إلى كتاب الله الجليل والسنة المطهرة لا تبقى لديه أية شبهة من أن العبودية الحقة هي التواضع والمحوية لكثرة حثهما على التواضع. فقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان: ٦٣) صوت خالص زكيّ لهم، و﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:٥٤) نَفَسٌ رقيق لطيف تفَجّر في قلوبهم وانعكس على سلوكهم. وأيضاً ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ (الفتح: ٢٩) التفاتة وتكرمة لهم تفوق التصور.

---

١) تقبيل اليد لابن المقري ٩٥؛ الإصابة لابن حجر ١٤٦/٤؛ الرسالة للقشيري ٢٤٤.

٢) الرسالة للقشيري ٢٤٧.

٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٠/٢؛ الرسالة للقشيري ٢٤٧.

وينشر المثل الكامل للإنسان ﷺ درراً نفيسة أمام أنظار قلوبنا، منها:

١. (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).[١]

٢. (أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ).[٢]

٣. (مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ).[٣]

٤. (اللّهمّ اجعلني شَكورا واجعَلني صَبورا واجعلني في عَيني صغيراً وفي أعيُن الناس كبيراً).[٤]

وأمثال هذه الدرر كثيرة وكثيرة، أمَا قضى ﷺ حياته المباركة على هذا النمط ؟ فلنذكر نتفا منها:

أ . كان ﷺ يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم.[٥]

ب . وكانت الأمَةُ تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.[٦]

ج . وكان ﷺ في بيته في خدمة أهله.[١]

---

١) مسلم، الجنة ٦٤؛ أبو داود، الأدب ٤٨؛ ابن ماجة، الزهد ١٦.

٢) الترمذي، صفة القيامة ٤٥.

٣) المسند للامام أحمد رقم الحديث ١١٢٩٩.

٤) المسند للديلمي ٤٧٣/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١٨١/١٠.

٥) (عن أنس بن مالك ﷺ أنه مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وقال كان النبي ﷺ يَفْعَلُهُ). البخاري، الاستئذان ١٥؛ مسلم، السلام ١٥.

٦) الشفا للقاضي عياض ١٣١/١، ١٣٣.

د . ويشترك في العمل مع الآخرين.(٢)

ه. وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة، ويعلف البعير.(٣)

و. وكان يأكل مع الخادم.(٤)

ز. ويجالس المساكين.(٥)

ح . ويمشي مع الأرامل(٦) والأيتام(٧) في حاجاتهما.

ط . ويعود المريض، ويشيّع الجنائز، ويجيب دعوة العبد.(٨)

فبدءاً بالرسول الكريم ﷺ إلى سيدنا عمر وسيدنا عمر بن عبد العزيز ﵄ ثم إلى الألوف ومئات الألوف من الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وأرباب القلوب العظام في هذا العصر.. كلهم ساروا على النهج نفسه.. وأقروا: "إن مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع. أما الناقصون القاصرون

---

١) (عن الأسود بن يزيد سألتُ عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يَصنَعُ في البَيْتِ قالتْ: كان يكون فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ فإذا سمِعَ اْلأذانَ خَرَجَ). البخاري، النفقات ٨، الأدب ٤٠؛ الترمذي، صفات القيامة ٤٥.

٢) المسند للامام أحمد ٣٨٣/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام ٢٤/٢.

٣) الترمذي، الشمائل ٧٨؛ المسند للامام أحمد ٢٥٦/٦.

٤) (عن النبي ﷺ قال: إذا أتَى أحدَكُم خَادِمُه بِطعامِه فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِيَ حَرَّهُ وَعِلاَجَهُ). البخاري، الأطعمة ٥٥؛ مسلم، الإيمان ٤٢.

٥) الشفا للقاضي عياض ١٣١/١.

٦) (عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ : اَلسَّاعِي عَلَى اْلأَرْمَلَةِ والمسكين كَالْمُجاهد في سبيل الله أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ). البخاري، النفقات ١؛ مسلم، الزهد ٤١.

٧) (قال رسول الله ﷺ أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيم في الجنةِ هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفَرَّجَ بينهما شيئا). البخاري، الطلاق ٢٥؛ مسلم، الزهد ٤٢.

٨) البخاري، تفسير سورة التوبة ١٢؛ مسلم، المنافقين ٣.

فميزان الصُغر فيهم هو التكبر"[1] وبينوا الطريق إلى الإنسان الكامل لمـــن لم يفقدوا مواهبهم الفطرية.

إن التواضع الحق هو أن يحدّد المرء موقعه تجاه عظمة الحق تعالى ولا تناهيه، بأنه صفر ولا شيء إلى المطلق غير المحدود، ويملّك ذاته هذا المعنى. فالكاملون الذين توغل هذا الفكر في طبعهم، وبه بلغوا فطرة ثانية، هم متواضـــعون في علاقاتهم مع الناس وفي محويّة معهم مع الرزانة التامة. أجل، إن الذين حـــدّدوا موقعهم أمام الله سبحانه، هم في توازن دائمي سواء في حياتهم الدينيـــة أو في علاقاتهم ومعاملاتهم مع الناس أو في مراقباتهم النفسية الخاصة بهم:

١. فهم في تواضع ومحويّة تجاه الدين، فلا إشكال لهم، لا بمنقولـــه ولا بمعقوله. لأنهم في استسلام تام له وإذعان بكل ما ثبت بالبيان القرآني الـــنير والسنة الصحيحة والحسنة، لا يعارضون ما بلّغه الرسول ﷺ ولا سيما مـــا ثبت من أفعاله، حتى لو رأوا ما يخالف العقل والقياس والذوق والـــسياسة. علماً، ليس في روح الدين ما يخالف العقل القويم والقياس الصحيح والذوق السليم والسياسة الشرعية.

وعلى هذا الأساس، فما يقال: "يُرجَّح العقلُ على النقل إذا تعارضا" لا حظّ له من التواضع. فكما أنه ثرثرة أنانيين لا يعرفون المحمل الحقيقي لهـــذا الكلام، فإن فكراً: "يُقدِّم الرأيَ والقياسَ على الـــنص" انحـــراف. والأذواق والكشوفات والكرامات الخارجة عن طريق السنة الشريفة استدراج.

---

١) الكلمات، اللوامع لبديع الزمان سعيد النورسي.

٢. وهم كذلك يعتقدون أنه لا سماح حتى لأصغر البدائل في تمثيل ما عُرّف بالتبليغ؛ لذا فهم منغلقون كلياً على ما هو خارج عن بيان الشارع الجليل. وإذا ما عرضت لأذواقهم ومداركهم ملاحظات مختلفة يؤوّلونها بقصر باعهم في الأمر ويجابهونها:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحًا   وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ[1]

٣. وهم كذلك مدركون تمام الإدراك أن لا خلاص في السبل المخالفة للكتاب والسنة. ويجدون أعظم منابع قوتهم في العبودية لله. وفي الحقيقة لن يكون العبد عبداً لله حقاً ويكون لما سواه مسترقاً، فالذين لا يستطيعون النجاة من ذل العبودية لغير الله لا يُنتظر منهم العبودية الخالصة لله. وما أجمل ما قاله بديع الزمان النورسي: "أيها الإنسان! إن من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة: أن لا تحسبنَّ ما سوى الله تعالى أعظمَ منك فترفعَه إلى مرتبة العبادة، ولا تحسَبنَّ أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبّر عليه. إذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية".[2]

٤. إنهم لا يكلون ثمرات سعيهم إلى أنفسهم قطعاً، ولا يعدّون ما تفضل الله عليهم من قدم للامتحان تقدماً على غيرهم، ولا يجعلون بذل الجهد -بأية نية كانت- وسيلةً للتكبّر على الآخرين. ولا يعتمدون على حُسن ظن الناس بهم وتوجّههم إليهم ولا ينتظرون العِوَض، بل يعدّون حبّ الناس وتوقيرهم لهم ابتلاء من الله. فلا يستغلون إحسان الحق عليهم وسيلة تحكّم

١) للمتنبي في ديوانه ٤/٢٤٦.

٢) اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثانية لبديع الزمان سعيد النورسي.

بالناس، لما يرون من أن ألطاف الله بهم وسائل منّة وأذى بمن حولهم.

الخلاصة: إن التواضع هو الباب الرئيس لقَصر خُلُق الله. فهو أيضاً في مقدمة الوسائل للتقرب إلى الحق وإلى الخلق. فالوَردُ ينبت في التراب. والإنسان محصول الأرض لا السماء. والمؤمن أقرب ما يكون إلى الله في السجود عندما يكون الرأس والقدم معاً في موضع واحد.[1] وقد كُتبت في مستهل الدعوة السماوية الموجهة إلى سيدنا محمد ﷺ، كلمة (عَبْدِهِ) رمزاً لتواضعه ومحويته.

اللّهم وفّقنا إلى ما تُحب وترضى،
واجعلنا من عبادك المتواضعين. آمين

١) انظر: مسلم، الصلاة ٢١٥؛ النسائي، التطبيق ٧٨؛ المسند للامام أحمد ٤٢١/٢.

الفتوة



الفتوة تعني الشباب، البسالة. ومعناها العرفي؛ جامعٌ لمــزيج مــن المعــاني والفعاليات،كالكرم والسخاء والعفة والأمانة والوفاء والرحمة والعلم والتواضــع والتقوى.. وغيرها من الحقائق. وهي مقام من المقامات التي يمر عليها ســالك الحق، ولونٌ من ألوان الفقر والفناء، وصوتٌ من أصوات الولاية.

والفتوة عنوان الانقطاع التام على خدمة الآخرين، وتحمّل أنواع الأذى والآلام دون إبداء أي ضجر، وهي بُعد عميق لسعة حُسن الخُلق، ولونٌ آخر للمروءة.

وأصل الفتوة، من الفتى، وهو الشاب الحديث السن. وعند البعض: هي رمز التصدي لأي نوع من أنواع الفساد، وعنوان العبودية الخالصة. والترجمة البليغة والبيان الصداح لهذا المعنى هي الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِــرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَــا رَبُّ الــسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٣-١٤).

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠) فيبين قوة رجل الفتوة الحق، وتأثيره في المجتمع الذي يعيش فيه، وهو الــذي همّته الإنسانية قاطبة، وأمة وحده، وشخصية تفوق الفردية.

أما ما ورد من كلمة فتى في قوله تعالى: ﴿وَدَخَـــلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾ (يوسف: ٣٦) و﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (يوسف:٦٠) فهو ليس في معرض الإشادة بشجاعتهم وفتوهم، بل هم شباب اعتياديون وربما أقل من ذلك، والأصح أنهم خدام مأمورون.

ولقد ذكر الكثيرون أقوالاً كثيرة حول الفتوة منذ عهد النـــور إلى الآن. فهي لدى بعضهم: ألاّ تنافر فقيراً ولا تعارض غنياً[1].. وآخرون قـــالوا: أن تنصف وتنتصف[2].. وآخرون: إمرار العمر في عداء شديد مـــع الـــنفس.. وغيرهم: نسيان الفرد نفسه والتفكير بمن تبعه متـــضرعاً إلى الله في الـــدنيا والآخرة بـــ(أمّتي، أمّتي).. وآخرون: القيام ضد أي باطل كان وكسر كل ما يسدّ الطريق إلى المعبود الحق من الأصـــنام.. وآخـــرون: تحمّـــل الأذى والمساءة التي تعود إلى نفسه وانتفاضته انتفاضة الأسد الهصور في الحقوق التي تخص الله سبحانه.. وآخرون: التأوه والأنين لأصغر تقـــصير يـــصدر مـــن شخصه، وغض الطرف عما لدى الآخرين من آثام.. وأن يرى نفـــسه في أدنى مراتب العبودية، لدى بحثه عن مراتب الولاية للآخرين.. وأن تُقرّب مَن يَقصيك، وتُكرم من يؤذيك، وان يكون في المقدمة عند الخدمة والعمل وفي منتهى المؤخرة لدى أخذ الأجرة.

هذا وإن هناك من أرجع هذه الأوصاف إلى أربعة أسس، حسب بيـــان سيدنا الحيدر الكرار رضي الله عنه:

---

١) قاله الجنيد، الرسالة للقشيري ٣٦١.

٢) قاله المحاسبي، الرسالة للقشيري ٣٦١.

١- العفو عند المقدرة.

٢- الحلم والأناة عند الغضب والحدة.

٣- الإحسان والإنصاف حتى للأعداء.

٤- الإيثار ولو في الخصاصة.

وفي الحقيقة إن حياة سيدنا علي ﷺ قد نسجت نسجاً دقيقاً على هذه الأسس.

أجل، إن معاملته بحق ابن ملجم[١] وعفوه عن المستسلم له وتألمه الشديد لدى سماعه بمقتل خصمه من الصحابة.[٢] وقضاء عمره بالإيثار، حتى كان يلبس ثوب الصيف في عزّ البرد والشتاء [٣] فكان ﷺ مثالاً للفتوة في أحواله كلها، وفتى حقاً حتى قال عنه الرسول الأعظم ﷺ: (لاَ فَتَى إِلاَّ عَلِيٌّ وَلاَ سَيْفَ إِلاَّ ذُو الْفِقَار)[٤] فقد وُلد طاهراً مطهّراً، وعاش نزيهاً منزّهاً، شجاعاً باسلاً، وارتحل عن الدنيا دون أن يتلوث بشيء منها. فقد كان متبعاً اتباعاً تاماً للجواب الذي تلقاه سيدنا موسى ﷺ من الحق تبارك وتعالى حول سؤاله عن الفتوة، حيث قال لكليم الله: "تعيد نفسك طاهرة كما تسلَّمْتها طاهرة".

نعم إن أبرز أمارة للفتوة وأصلح مرقاة إلى الإنسان الكامل هو: توجيه

---

١) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ١١٨.

٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/١٥٠.

٣) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/١٢٢.

٤) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٣٦٧؛ عون المعبود للعظيم آبادي ١٠/٢٦٤؛ ميزان الاعتدال للذهبي ٥/٣٩٠.

جميع لطائف الروح المهيأة خِلقة لتقبل التوحيد وفكر الإسلام، إلى التوحيد الحقيقي، والانفتاح لسعة القلب ورحابتــه متجــاوزاً الحظــوظ النفــسية والجسدية، مع الانغلاق التام على كل شيء سوى التوسل بالأسباب الذي هو من ضروريات توظيفه في الدنيا، وصدّ كل ما يمكن أن يزعــزع رؤيــة الحق تعالى من فكر وشعور منذ البداية. فمن عجز في البداية عن إبراز هذه الفعالية، و لم ينسلخ عن ميول النفس والهوى والشيطان والميــل إلى الــدنيا ومحبتها وحظوظ النفس لن يبلغ ذروة الفتوة.

طريق كنــز الفتوة يمر من جبل (قاف)
أين منه من يتعب في الســهل البسيط

رَبَّنَا آتِنَا مِن لدُنكَ رَحمةً وَهيّئْ لَنَا مِنْ أَمرِنَا رَشَدًا، وصلّ وسلم على سيدنا محمد المقتدى وعلى آله وصحبه ذوي الإحسان والوفاء.



الصدق

الصدق الذي يرد بمعنى التفكير الصائب، الكلمة السديدة، السلوك القويم، هو كون سالك الحق يكفّ نفسه عن كل ما لا يطابق الواقع، مخططاً حياته وفق الصدق والاستقامة، حتى يكون مثالاً أميناً للصدق والوفاء.. وبتعبير آخر جعلُه الصدقَ جزءاً من طبيعته، ومَلكةً في مشاعره وتفكيره وكلامه وسلوكه، بدءاً من حياته الشخصية إلى معاملاته مع الآخرين، ومن شهادته باسم إعلان الحق، إلى مزاحه وهزله، كي يصدُق عليه قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) متحرياً الصدق في محيطه الذي يعيش فيه، ولدى أصحابه، حتى يُطلق عليه عند الله "صدّيقاً" كما ورد في الحديث الشريف. وبخلاف ذلك فالذي يعيش كاذباً سواء في تصوراته وتفكيره أو في سلوكه ومعاملاته، ويُمضي حياته بما لا يطابق الواقع، يطلق عليه في الملأ الأعلى "كذّاباً".[1]

الصدق أقوَم طريق موصل إلى الحق سبحانه، والصادقون هم المرشحون المحظوظون لهذا الوصال... الصدق روح العمل ولبّه، وأصوب محكّ لاستقامة الفكر.. وبالصدق يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، وسكان

---

١) انظر: البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر ١٠٣-١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠ .

الجنان من أهل النيران.. الصدق صفة نبوية لمن ليسوا بأنبياء. وبفضل هـذه الصفة يبلغ الخدمة مرتبة المشاركة مع السادة في النعم نفسها.

وقد أثنى الله سبحانه على الذي لبّى هذه الرسالة الإلهية في أول ظهورها وصدّق بها، وصدّق مبلّغها، بصفته الصدق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر:٣٣).

الصدق هو أن يصون الفرد تكامل عمله وسلوكه، وأن يقول الحق حتى في مواطن الهلكة، التي لا ينجيه إلاّ الكذب، لئلا يقع في مباينة السر والعلانية والظاهر والباطن. وإن وقع فيها قضاءً وقدراً يضطرب متلويا ومتقلباً من حال إلى حال كي يتطابق فكره مع عمله وتصرفه، حتى يصفه الجنيد بقوله: "الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة".[1]

إن أدنى مراتب الصدق هو استواء السر والعلانية، والباطن والظاهر في الأحوال كلها. تليها مرتبة، الصدق في الشعور والتفكر والتصور والنيات. وعلى هذا فالصادقون هم أبطال لا يحيدون عن الصدق والاستقامة في جميع أقوالهم وأحوالهم. والصدّيقون هم أولياء الحق –حقاً– مسدَّدون نحو الحق في خيالهم وتصوراتهم ومشاعرهم وتفكيرهم، بل حتى في ملامحهم وسيماهم.

إن توجيه جميع المَلَكات والقابليات، في السلوك والعزم والوفاء والعمل والتعامل، هو صدق كامل ووفاء خالص، وصفة نبوية في الوقت نفسه، حتى يقول الله بحقهم في كتابه المبين: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم:٤١) ملفتاً النظر إلى هذا الوصف الرفيع (الصدق)، إذ

---

١) الرسالة للقشيري ٣٣٦.

الذكر مطلقاً يُصـــرف الى كمالـــه.

الصدق يتقدم جميع صفات الأنبياء العظام عليهم السلام، وهـــو أقـــوى محرك ومؤثر في مسلك الدعوة إلى الإيمان والقرآن في كل عصر، كما أنـــه أوثق بطاقة اعتماد في العالم الآخر لكل مؤمن، وأنفذ وثيقة ومستند له. حتى يلفت ربُّنا الجليل نظرَنا إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿هَـــذَا يَـــوْمُ يَنفَـــعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (المائدة:١١٩).

فالصدق هو الذي أوصل الأنبياء والأصفياء والمقربين إلى أعلى علـــيين، وذروة سنام القمم، وغدا لرقيهم المعنوي برقاً وبراقاً ، والكذب هو الـــذي أردى بالشيطان وأعوانه إلى أسفل السافلين. والأفكار إنما تحـــوم بأجنحـــة الصدق فتبلغ أفق القيم والجدارة. وأنواع السلوك القويم إنما تنشأ وتترعـــرع في أرض الصدق والوفاء.

والدعوات والتوسلات إنما تقبل وتُستجاب بقدر أدائها بالصدق، حيث تبلغ عرش الرحمة كأنها مقترنة بالاسم الأعظم. نعم، الصدق يؤثر كتـــأثير إكسير الاسم الأعظم. ولما سئل أبو يزيد البسطامي عن الاســـم الأعظـــم قـــال: أروني اسماً أصـــغر من الأســـماء الحسنى لأريكم الأعظـــم منـــها وأضاف: "إنما جعل الاســـم الأعظم مؤثـــراً هو الصدق، فإذا ما دعي أي اســـم من الأسماء الحسنى بصدقٍ فهو اســـم أعظم".[1]

الصدق هو الذي أسطع نورَ التوبة على جبهة آدم عليه السلام... والصدق هو الذي أصبح سفينة نجاة لنبي الطوفان (نـــوح عليه السلام) يـــوم غرقـــت الـــدنيا

---

١) حلية الأولياء لابي نعيم ٣٩/١٠.

بالطوفان... والصدق هو الذي جعل النار المتأججة لسيدنا إبـــراهيم ﷺ (برداً وسلاماً). نعم، الصدق مفتاح ذو أسرار لفتح مغاليق ما وراء أســتار الوجود، فيرفع الذين يراوحون في العاديات إلى خوارق العادات. فالــذين يديمون سياحتهم بالصدق لا ينقطع بهم السير، والذي يستعمل ذلك المفتاح لا توصد دونه الأبواب. وكم هي جميلة هذه الترنيمة التي ترنم بها ســلطان العاشقين مولانا الرومي لبيان هذه الملاحظة العميقة:

صِدْقِ عَاشِقْ بَرْ جَمَادِي مِي تَنَدْ   چه عَجَبْ بَر دِلِ إِنْسَانِي زَنَدْ

صِدْقِ مُوسَى بَر عَصَا وُكُوهْ زَدْ   بَلكه بَر دَرْيايِ پُرُاشْكُوه زَدْ

صِدْقِ أَحْمَدْ بَر جَمَالِ مَاه زَد   بَلكِه بَر خُورْشِيدِ رَخْشَانْ رَاهْ زَد[١]

يعني: إن صدق العاشق يؤثّر حتى في الجمادات، فلِمَ العَجَب من تأثيره في قلب الإنسان؟ وإن صدق سيدنا موسى ﷺ قد أثّر في الجبل والعصا، بــل حتى في ذلك البحر المتلاطم العظيم (يشير إلى ما هو ثابت بالآيات الكريمــة من تحول عصا سيدنا موسى ﷺ إلى حية تسعى في جبل الطور،[٢] وانفتاح اثنتي عشرة طريقاً بضربها في البحر).[٣] أما صدق سيدنا أحمد ﷺ فقد أثّر في جمال القمر بل حتى في تلك الشمس الساطعة.[٤]

وقد ربط القرآن الكريم بآياته المختلفة، كون المؤمن مؤمنا حقاً، بمــدى

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٥/ص٨٢٥/ب٢٧٧٤-٢٧٧٥-٢٧٧٦.

٢) انظر: سورة طه: ١٧-٢٠.

٣) انظر: سورة الشعراء: ٦٣.

٤) إشارة إلى معجزتي انشقاق القمر وسكون الشمس.

تنسيقه لكلامه وسلوكه وعالمه الداخلي بل جميع أطواره وفق الصدق، ومدى نسجه لها جميعاً حول الصدق. وكذلك أكدت الآيات الكريمة أن هذا التنسيق والتنظيم بالصدق هو أساس سعادة الدنيا والآخرة. وإليكم بعض الجواهر البراقة من البيان الصدق:

١. ﴿وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠).

٢. ﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٨٤).

٣. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢).

٤. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤-٥٥).

نعم، لقد أشارت هذه الآيات الكريمة وبهذه العناوين: مدخل الصدق، مخرج الصدق، لسان الصدق، قدم الصدق، مقعد الصدق، إلى الطريق القويم الممتد من الدنيا إلى العقبى. أشارت إلى طريق طويل، وإلى زاد الطريق، وإلى نتيجة الطريق.

وحيث إن الدنيا كلها تعمل للآخرة كنظام مهيب، وكمعمل عظيم، فهم عندما يباشرون بعمل، ويسافرون إلى بلد، أو يهاجرون إلى موطن، أو يحلون في أرض، يتحرّون الصدق في جلوسهم وقيامهم، ويلاحظون في أطوارهم، مدخل الصدق، مخرج الصدق، لسان الصدق، قدم الصدق، مقعد الصدق. فيعيشون مستهدفين الآخرة مستمطرين الألطاف على حظوظهم.

إن كون المرء صادقاً في النية والقصد يتقدم كـــل شـــيء... فـــالتفكير الصادق، والقرار الصادق، والسلوك الصادق هو أُولى مراتـــب الـــصدق. وكذلك، يشترط لمن عزم على الصدق، عدم تراجعه عن قـــراره وعزمـــه، واجتنابه كل ما يخل بتفكيره ويثنيه عن عزمه.

والمرتبة الثانية: هي الرغبة في البقاء في الدنيا والحيـــاة فيهـــا، لـــيس إلاَّ للالتزام بالحق ورفع شأنه، ولنيل رضاه سبحانه وحده. ولهذا أمارات، منها: ألاّ يشهد من نفسه إلاّ النقصان والتقصير، ودون الرضـــوخ لزينـــة الـــدنيا وإغراءاتها. وعدم العدول عن الطريق أو تغيير اتجاهه بسبب تخوفه عن الفتن الدنيوية.

المرتبة الثالثة: جعل الصدق معرفةً وجدانيةً كاملة، وانعقاد طبيعة الإنسان دوماً في جميع أطواره بالصدق. وهذه مرتبة عظيمة، هي مقام الرضا، وتعبّر عنه الكلمات الطيبة الآتية: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْـــلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً).[1]

نعم، إن أعظم الصدق هو الرضى بربوبية الله سبحانه وبدين الإســـلام نظاماً إلهياً، وبسيد الأنام ﷺ مرشداً ورائداً. فالطريق إلى الإنسان الحق يمـــر من تحمل هذه المسؤولية الثقيلة والعسيرة جداً.

لنختم كلامنا بهذا البيت الجميل:

---

١) مسلم، الإيمان ٥٦؛ النسائي، الجهاد ١٨؛ المسند للامام أحمد ٢٠٨/١.

إنما يليق الصدق بالإنسان ولو أُكره.

فالله هـــو المعين للصادقين.

اللّهم اجعلنا من الذين قالوا رَبُّنا اللّهُ ثم استقاموا.

وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المستقيمين.



الحياء هو الخجل، الحِشمة. وفي الاصطلاح الصوفي، اجتناب ما لا يرضاه سبحانه خشية منه ومخافة ومهابة. فاستناد هذا الحس إلى شعور الحياء المغروز في طبيعة الإنسان يجعل ذلك الشخص رابط الجأش وأكثر انسجاماً وموافقة للأدب والاحترام. ولا شك أن إنماء مثل هذا الحس، حس الحياء، عسير لدى المحروم منه أساساً، أو لدى المحيط الذي حرمه منه أو الأشخاص الذين أضاعوه.

ويمكن أن نقسم الحياء وفق ما يُفهم من الإشارات المذكورة أعلاه إلى:

١. الحياء الفطري، ويطلق عليه أيضاً الحياء النفسي، الذي يمنع الإنسان من اقتراف ما يعيبه أو يُستَعار منه.

٢. الحياء الناشئ من الإيمان، الذي يشكّل عمقاً مهماً للإسلام.

وما أن يتغذى الحياء الفطري بالحياء الموجود في روح الدين الإسلامي، حتى ينمو ويشبّ مشكّلاً سدّاً مانعاً عظيماً تجاه العار والعيوب. في حين لو أنفرد الإنسان بإحداها، قد يتزعزع تحت تأثير بعض الأحوال والشروط، وينقلب على عقبيه وربما ينهار كلياً.

نعم، إن ما في طبيعة الإنسان من حسّ التضايق والتحرج لا يدوم إن لم

يربّ بالشعور الإيماني الذي توضّحه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّهَ يَرَى﴾ (العلق:١٤) وبمفهوم الإحسان الذي تعبّر عنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا﴾ (النساء:١) ذلك لأن وجود الحياء ونموه ودوامه مرتبط بالإيمان. وفي الصحيح: (مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ).[1] وفي حديث آخر أنه ﷺ قال: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).[2] وعلى هذا يصح أن نقول: إن الحياء الفطري، -كالنوى الخيرّة الاخرى المخبوءة- في طبيعة الإنسان، ينمو ويستوي على سوقه بنسبة تغذّيه وتقويته بمؤثرات المعرفة التي تجعل الإنسان إنساناً، حتى يصبح بُعداً للحياة القلبية والروحية، ويقيم سداً مانعاً لكثير من نزوات النفس الطائشة. وبخلافه أي إن لم يُنَمَّ هذا الشعور بالإيمان والمعرفة، و لم يُقوّ بشعور الإحسان، ودُفع إلى الضمور والعماء بالانغماس في متاهات نفسانية، فلا محالة من وقوع ما يندى له الجبين في مستوى الفرد والمجتمع. والرسول الكريم ﷺ فخر الإنسانية، ومثال الحياء، ينوّه إلى هذا الأمر في قوله ﷺ : (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ).[3]

الحياء والحياة كلمتان متناظرتان، ومن هذا القرب فإن حياة القلب لا تكون إلاّ حسب ما فيها من قوة خُلُق الحياء الذي ينشأ وينمو بوابل من

---

١) البخاري، الإيمان ١٦؛ مسلم، الإيمان ٥٩؛ أبو داود، الأدب ٦.

٢) مسلم، الإيمان ٥٧،٥٨؛ النسائي، الإيمان ١٦. وانظر: مع اختلاف طفيف: البخاري، الإيمان ٣؛ أبو داود، السنة ١٤.

٣) البخاري، الأنبياء ٥٤، الأدب ٧٨؛ أبو داود، الأدب ٦؛ إبن ماجة، الزهد ١٧.

مطر الإيمان والمعرفة. نعم، إنما تستمر الحياة وتدوم بمقوماتها وكـذا يوجـد الحياء ويحيا بمقوماته، وإلاّ فلا محالة ينقرضان.

سُئل الجنيد عن الحياء، فقال: "رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد مـن بينهما حالة تسمى الحياء".[1] أي أنه حالة قلق برؤية آلاء الله سبحانه المادية والمعنوية التي تنـزل علينا بجنب تقصيراتنا ونواقصنا تجاهه سبحانه.

والحياء لدى ذي النون المصري هو الشعور بالتوحش الدائم في القلـب من الأطوار غير اللائقة، والعودة إلى مراقبة توجهاتنا.[2]

ولدى آخر: تنظيم الإنسان لحياته وفق علمه باطلاع الله علـى الـسر والعلانية، واتخاذ معاملاته سبحانه له أساساً في حياته. فقـد ورد في الأثـر الآتي: "كان سليمان الداراني يقول قال الله عز وجل إنّك إن استحيَيتَ مني أنسيت الناس عيوبَك".[3] ومن المفيد أن نذكّر هنا بقول الله سبحانه لسيدنا عيسى عليه السلام وهو : "يَا عِيسَى عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظَتْ بِهِ فَعِظِ النَّـاسَ وَإِلاَّ فَاسْتَحِ مِنِّي".[4]

وهناك تقسيمات أخرى مختلفة في موضوع الحياء، نذكر منها:

حياء "الزلة" المترشح من أطوار سيدنا آدم عليه السلام، لحين مجيء الأمر بالغفران.

وحياء "التقصير" كحياء الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفتُرون،

---

١) الرسالة للقشيري ٣٤٥.

٢) الرسالة للقشيري ٣٤٢: "الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى".

٣) شعب الإيمان للبيهقي ٦/١٥٠؛ تاريخ دمشق لإبن عساكر ٣٤/١٥٠.

٤) الزهد لإبن أبي عاصم ٥٤؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/٣٨٢؛ المسند للديلمي ١/١٤٤.

ومـــع ذلك يقولون "ما عبدناك حـــق عبادتك".[1]

وحياء "الإجلال" لأرباب المعرفة الذين يقولون "مـــا عرفنـــاك حـــق معرفتك" مع بالغ عمقهم في التعظيم.

وحياء "الهيبة" لأرباب الروح والقلب الذين يستشعرون بـــه، فيحيـــون سائحين في أفق التجرد عن رغباتهم الشخصية.

وحياء "المنّة" لأصحاب اليقين الذين يعيشون كل آن في تلونات البُعـــد في القُرب والقُرب في البُعد، فيستشعرون منتهى القُرب مع أنهم في منتهى البُعد.

وحياء "عدم الوفاء" النابع من القلق من عدم إيفاء حق المحبـــة اللائقـــة بالمحبوب الحقيقي سبحانه.

وحياء "الإخلال بالإخلاص" لمن يحملون همّ عدم الاختيار الجيد عنـــد مقام الدعاء والطلب.

وحياء "الغيرة" للأرواح العالية التي تستشعر أنها في أحسن تقويم، فـــلا يقدر على ملاءمة هذه الحظوة مع أعمال تافهة لا تناسبها.

فالمرتبة الأولى للحياء، حياء يتولد من نظرة الإنســـان إلى نفسه بنظـــر الحـــق ســـبحانه. فإن محاسبة الإنسان لنفسه بمقاييس الله الرقيـــب عليـــه وموازينه يـــتـــولـــد منها حياءٌ مطبوع بالحـــذر، بحيث يعدّ مثل هـــــذا الإنسان حياً بمشاعره وأفكاره على الـــدوام.

المرتبة الثانية: حياء يتناسب تناسباً طردياً مع مشاعر القُربة والمعية الإلهيـــة،

---

١) المعجم الكبير للطبراني ١٨٤/٢؛ المستدرك للحاكم ٦٢٩/٤؛ شعب الإيمان للبيهقي ١٨٣/١.

وهذا ميسّر لمن يسيح في أفق ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤) وقد قال سيد السادات ﷺ: (اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ).[١]

المرتبة الثالثة: تتحقق بحدس في أعماق الشهود للحياة الروحية والقلبية، وتستمر إلى الأبد تحت جناح السير الروحاني في طريق الوصول إلى هدف ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (النجم:٤٢). إذ حظ الإنسان ونصيبه من الإنسانية الحقة هو بقدر حظه من الحياء، فإن عجز سالك الحق عن التوجه وتنظيم سلوكه في جميع محاولاته، الإيجابية والسلبية، وفق الآخرة والغيوب، وعجز عن التفاني التام في المحوية ومن العيش في أدب جمّ، فإن وجوده عارٌ – من زاوية– بالنسبة إليه، وحمل ثقيل بالنسبة لغيره. وعلى هذا قيل:

فَلاَ وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ　　　وَلاَ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ [٢]

الحياء خُلُق إلهي وسر من أسرار الله سبحانه، فلو عرف الناس أينما تعلق الحياء، لكانت حركاتهم وسكناتهم أكثر دقة وحساسية. وننقل هذه الواقعة لتنوير ما ذُكر:

يحاسب الله يوم القيامة شيخاً فيقول: لم اقترفت هذه الذنوب؟ فينكر الشيخ ذلك بأنه لم يذنب. ويقول له أرحم الراحمين: خذوه إذن إلى الجنة. فيستفسر

١) الترمذي، الرقائق ٢٤؛ المسند للامام أحمد ٣٨٧/١.

٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ٢٦/٢.

الملائكة: يا رب إنك أعلم بما أذنب. فيقول الله لهم: ولكنه من أمـــة محمـــد، نظرت إلى شيب رأسه ولحيته فاستحييت أن أُطلعه على ذنوبه. وحسب روايـــة كنـــز العمال: أن جبريل عليه السلام عندما أخبر النبي ﷺ الخبر بكى، "فقيـــل: يـــا رسول الله ما يبكيك؟ قال: "بكيتُ لمن يستحي الله منه ولا يستحي من الله".[1]

الخلاصة:

إِنَّ الْحَيِيَّ مِن أَسْمَاءِ الْإِلَهِ وَقَدْ   جَاءَ التَّخَلُّقُ بِالْأَسْمَاءِ فاحظَ بِهِ[2]

اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع

ومن دعـــاء لا يُسمع ومن نفس لا تشبع.

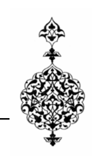
وصلّ اللّهم على خير خلقك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين آمين.

---

١) كنـــز العمال لعلي المتقي ٦٧٣/١٥، الحديث ٤٢٦٨٠.

٢) انظر: أبو داود، الحمام ١، الوتر ٢٣؛ النسائي، الغسل ٧. (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا).

الشكر



الشكر هو الامتنان، الرضا تجاه الإحسان، أياً كان ذلك الإحسان. وفي الاصطلاح هو استعمال ما مُنح به الإنسان من شعور وتفكر وأعضاء وجوارح في الغايات التي خُلقت لأجلها. والشكر مثلما يوفّى بالقلب واللسان يوفّى كذلك بجميع الأعضاء.

الشكر باللسان؛ يتحقق بالاعتراف بأن أنواع اللطف وأشكال النعم كلها آتية من الله تعالى، ونفي لجميع منابع القوى والقدرات والإحسان الموهومة. نعم، إنه سبحانه هو الذي قدّر الحسنات والخيرات وأعدّ أسبابها من المبدأ إلى المنتهى، كما أنه هو الذي أرسلها أيضاً في وقتها المناسب. وحيث إن الله سبحانه هو قاسِمُها ومجريها وموجِدُها، وخالِقُها في موعدها ومعدّها أمامنا سفرات سماوية، فهو في النتيجة أحق بالشكران والامتنان. إذ التغافل عن الله سبحانه والتعلق بالأسباب، والانقياد وتوجيه الامتنان لها، يشبه مَن يُغرق الخادم الذي يضع السفرة أمامنا بالرشوة والإتاوات، ويتغافل عمن هيأها وأرسلها إلينا، فينطبق عليه فحوى الآية الكريمة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧). نعم، فهؤلاء هم الجهلاء الناقصون ناكرو الجميل العاجزون من حيث المعرفة والعلم عن رؤية ما وراء الأسباب فينظرون إليها وحدها.

الشكر بالقلب؛ هو معرفة جميع النعم الظاهرة والباطنة المنتفَع بها، من الله تعالى، ومن ثم توجيه الحياة وإقامتها وفق هذا المفهوم. وهذا الشكر القلبي في الوقت نفسه يؤسس الشكر الذي يُؤدّى باللسان والجوارح، كما هو مضمون الآية الكريمة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:٢٠) التي تبين أبعاده النوعية، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤) الذي يشير إلى أبعاده الكمّية اللامتناهية.

أما الشكر بالجوارح فهو استعمال كل عضو وكل لطيفة وفق الغاية التي خُلقت لأجلها، وأداء ما يخصّ كلاً منها من العبودية والطاعة.

وهناك من يرى أن شكر اللسان هو بالأوراد والأذكار، وشكر القلب هو باليقين والاستقامة، وشكر الجوارح هو بالعبادات والطاعات. وحيث إن الشكر متعلق بالإيمان والعبادة تعلقاً وثيقاً، فقد قال عنه الأفاضل ناظرين لشموله: أنه نصف الإيمان، والصبر نصفه الآخر وقرنوهما معاً.

ولقد أمر الله سبحانه في كلامه الجليل، بالشكر في مواضع كثيرة وعدّه غاية الأمر والخلق كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] ووعد الشاكرين بالجزاء الحسن وتوعّد العاقين بالعقاب كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤) و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧). زد على ذلك فقد أطلق سبحانه

---

١) انظر السور: البقرة: ٥٢،٥٦،١٨٥؛ آل عمران: ١٢٣؛ المائدة: ٦،٨٩؛ الأنفال: ٢٦؛ النحل: ١٤،٧٨؛ الحج: ٣٦؛ القصص: ٧٣؛ الروم: ٤٦؛ فاطر: ١٢؛ الجاثية: ١٢.

وتعالى على نفسه إسم (الشَّكور)[1] وربط سبيل بلوغ المنبع الأصل للـــنِعَم كلها بالشكر، وأثنى على من له القدح المعلى في الشكر ســـيدنا إبـــراهيم بـــ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ (النحـــل:١٢١) وعلى سيدنا نوح: بـــ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْـــدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:٣).

وعلى الرغم من أن الشكر عمل جليل ورأسمال ثمين، فإن العاملين بـــه بمعناه الحقيقي ليسوا كثيرين حسب فحوى الآية الكريمة: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣). ومع أن الذين يكون الشكر ديدنهم يتقلبون دائماً بـــه، بل يقضون أعمارهم كلها شاكرين، بنفحات قوله ﷺ (أَفَلا أَكُـــونُ عَبْـــدًا شَكُورًا)[2] إلاّ أن عددهم قليل جداً.

نعم، إن رائد الشكر وفخر الإنسانية ﷺ كان في مقدمة هـــذا العمـــل، الجليلُ قدره والقليلُ العاملون به. إذ كان ﷺ شاكراً في أحواله كلـــها، في قيامه وقعوده، ويوصي بالشكر كل مَن أتاه، بل كان ذكره الدائم صـــباح مساء، هذه الكلمات النورانية: (رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُـــسْنِ عِبَادَتِكَ).[3] وحيث إن الشكر هو امتنان المرء للمنعم الذي أنعـــم عليـــه، وتوجهه إليه بالمحبة والود، وإقراره بأن الأفضال كلها منه تعالى فقولـــه ﷺ هذا، هو أوجز تعبير عن الشكر.

نعم، هناك من يشكر على الخبز والطعام، وعلى الأولاد والعائلة، وعلى

---

١) انظر السور: فاطر: ٣٠،٣٤؛ الشورى: ٢٣؛ التغابن: ١٧.

٢) البخاري، التهجد ٦؛ مسلم، المنافقين ٧٩-٨١، الترمذي، الصلاة ١٨٧.

٣) النسائي، السهو ٦٠.

المسكن والمأوى. وهناك من يشكر مع ما سبق، على الوجود والصحة والعافية، وهناك من يتقدم خطوة إلى الأمام فيشكر على الإيمان والعرفان والأذواق الروحانية والاطمئنان. وهناك من يشكر على الشعور بالحمد والمنة لله. فالإنسان بهذا المعنى الأخير إذا ما دخل في دائرة الشكر الدائمة (الدائرة الصالحة) باتخاذ عجزه وفقره رأسمالاً له، يكون من الشاكرين حقاً. وقد روي في حديث شريف: (أن سيدنا داود ﷺ قال: إلهي، كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله إليه: الآن قد شكرتني).[1] واعتقد أن هذا هو ما يراد التعبير عنه بـ:(مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يَا مَشْكُورُ).

إن الشكر الحقيقي يتحقق بمعرفة النعمة معرفة تامة. لأن منبع النعمة والثناء الجميل للمنعم مرتبط على الأغلب بمعرفة النعمة. إن ما يؤكد عليه دائماً هو أن ما يهيؤه الإيمان والإسلام ويبيّنه القرآن الكريم هو الخط الممتد من معرفة النعمة إلى قبولها، ومنه إلى الحق سبحانه. نعم، إن ألطاف الله سبحانه علينا إنما تُعرف أكثر وتتوضح أكثر بنور الإيمان وبمعايشة أوامر الإسلام، فتتحول إلى حالة يُحسّ بها ويُستشعر، وعندها يتبين أنها من عطاءِ الله سبحانه، رحمةً لعجزنا وفقرنا وبناءً على احتياجنا، تفضلاً منه تعالى من دون مقابل. وهذا ما يفجّر فينا مشاعر الثناء الجميل على المنعم بتلك الألطاف والآلاء. فنوفي حقّ واجبِ الشكر والثناء المنبعث بانفعال في أعماق روحنا امتثالاً بحقيقة الأمر الإلهي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١).

وفي الحقيقة إن في كل إنسان شعوراً بالامتنان تجاه مَن يحسن إليه. ولكنه

١) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي ٣٩٨/١، ٣٤٣/٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤١/٢، ٣٥٠/٣.

لا يستشعر بالنعم التي تُغدَق عليه، وهو غارق فيها، كالأسماك الـسابحة في أعماق الماء، لحين تيقظ هذا الشعور فيه وتوجيهه إلى المنعم. بل أكثر مـن هذا كثيراً ما يحيل تلك النعم إلى أسباب تافهة حوله. فإن أطلقنا على عـدم رؤية النعم التي تحيط بنا، اسم العمى والصمم وانعدام الشعور، فإن إحالة ما لا يُحصى من النعم التي ننالها إلى الأسباب العمياء والصماء التي لا شعور لها انحرافٌ بلا شك. فقوله ﷺ: (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَـثِيرَ)[1] أو (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ)[2] ينظر إلى الشق الأول ويذكّر بأهمية الشكر المطلق. أما الشق الثاني فتبينه الآيات الكريمة مذكّرة بالتوحيـد الحقيقي: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْـكُرُوا لَهُ﴾ (العنكبوت:١٧).

وعلاوة على ذلك يمكن أن ندرس الشكر ضمن هذه الأقسام الثلاثة، من حيث الخصائص التي تشكّله:

١. شكر تجاه ما ارتضاه الجميع من نِعم، العوام منهم والخواص، المسلم وغير المسلم. فيحبونها ويرغبون فيها. هذا الشكر واضح جـداً لا داعـي للإطالة فيه.

٢. شكر تجاه ما يبدو غير محبوب ظاهراً، أي وجهه الظـاهري ثقيـل كريه، وإيفاء هذا النوع من النعم حقه من الشكر عسير، إلاّ من يستطيع أن يطّلع على ما وراء ستار الأحداث، فهو لطف إلهي، يتلون صاحبُه بألوان من الرضى والقبول.

---

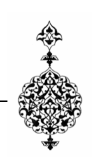
١) المسند للامام أحمد ٤/٢٧٨، ٣٧٥.

٢) أبو داود، الأدب ١١؛ الترمذي، البر ٣٥؛ المسند للامام أحمد ٢/ ٢٥٨، ٢٩٥، ٣٨٨، ٣/٣٢، ٧٤.

٣. شكر الذين يقضون حياتهم في مدار المحبوبية، فلا ينظرون إلى الـــنعم إلاّ من زاوية المنعم، بإحساسهم ألطافه وآلائه بعظمته سبحانه. ويحيـــون في الحظوظ العميقة للشهود.. فعبوديتهم ترنيمة أخرى للذوق، وحياتهم القلبية طوفان آخر للعشق والشوق، وعلاقتهم مع الحـــق ســـبحانه، في حظـــوظ الشهود العميقة ضمن نظام تمكين آخر. فهؤلاء يقيدون الموجود، ويصيدون المفقود. ويتلوّنون في كل آن بألوان الفيوضات المقدســـة والقدســـية الـــتي كسبوها، ويسبرون الأعماق في طريق سيرهم. ويقـــذفون بـــشِباك النظـــر لاقتناص الواردات، فيصيدون ويمتلؤن ويفيضون.

اللّهم اجعلنا من عبادك المخلَصين المحبوبين المقرَّبين، وصلى الله على سيد المخلصين المحبوبين المقربين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الصبر



الصبر يعني احتمال الأذى والألم أمام الحوادث والوقائع التي يصعب تحملها ويتعسر تجنبها. والقرآن الكريم يأمر بآياته الجليلة بالصبر، صراحةً كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ﴾ (البقرة:٤٥) و﴿اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ (آل عمران:٢٠٠).. أو ينهى عن ضده كقوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾ (الأحقاف:٣٥) و﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ (الأنفال:١٥).. أو يثني على أهله كقوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ (آل عمران:١٧).. أو إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦).. أو رفع درجات الصابرين بمعيته سبحانه لهم كقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣).. أو إرشاده لهم كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾ (النحل:١٢٦).. أو بشارتهم بالتسلي وإحراز درجات في العقبى كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦).. أو تذكيرهم بنصره ومدده كقوله: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ..﴾ (آل عمران: ١٢٥).. وأمثالها من الآيات البينات التي تقرر أن الصبر عمل قلبي جليل، يلفت الله سبحانه وتعالى إليه الأنظار بأوجهه المختلفة.

وإذا نظرنا إلى الصبر من زاوية أخرى؛ فإن الشكر نصف الإيمان،

ونصفه الآخر هو الصبر.[1] ومما يؤيد هذا المعنى اللطيف، ما قاله سيد الأنام ﷺ في حديث شريف ذي مغزى عميق: (عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلاّ لِلْمُؤْمِنِ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).[2]

هذا، وينقسم الصبر، من حيث ما يُصبَر عليه، إلى الأقسام الآتية:

١. الصبر على أداء الطاعات، بمعنى تحمل مشاق العبودية لله.

٢. الصبر عن اجتناب المعاصي، أي تجاه ما تهشّ له النفس من وسائل الإثم.

٣. الصبر على البلايا الأرضية والسماوية، والذي يتضمن الرضا بقضاء الله وقدَره.

٤. الصبر على نهج الاستقامة والحفاظ عليه دون تغيير وتبديل، تجاه مفاتن الدنيا.

٥. الصبر على الزمن فيما يحتاج إلى زمان ووقت.

٦. الصبر على لواعج شوق الوصال لحين بلوغ أمر ﴿ارْجِعِي﴾ (الفجر:٢٨).

بعض هذه الأقسام متعلقة بإرادة العبد (أي كسبية) إلاّ أن البعض الآخر لا دخل للإنسان فيه قطعاً.

ولقد بُحث الصبر ضمن ستة أقسام من حيث كيفيته وتحققه:

---

١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ٤/١٠٩.

٢) مسلم، الزهد ٦٤.

١. الصبر لله، أي لأجله تعالى، وهو أُولى مراتب الصبر.

٢. الصبر بالله، أي العلم بأنه تعالى هو المصبِّر، وهو أسبق بخطوة من الأولى.

٣. الصبر على الله، بعدم الاستعجال تجاه التجليات الجمالية والجلالية للحق تعالى، قائلاً: (لله في كل شيء أسرار وحكم).

٤. الصبر في الله، أي استواء القهر واللطف في الطريق إلى الله (لا يفرّق بين حال النعمة والمحنة). لهذا الصبر ميزة خاصة، ويسبق الأقسام الأخرى.

٥. الصبر مع الله، أي البقاء معه تعالى مع مراعاة أسرار المقام الذي هو فيه من حيث خصوصية المعية والقرب.

٦. الصبر عن الله، وهو صبر عشاق الحقيقة، الذين عزموا على التحمل عن الوصال وهم بين الخلق.

وعلاوة على ما سبق، فمن قائل: إن الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. ومن قائل: إنه لا يفرق بين حال النعمة والمحنة.. ومن قائل: العيش رغم طبعه ونزعات نفسه.. ومن قائل: استطابة القهر واللطف على سواء.. ومن قائل: تلقي ما جاء به الكتاب والسنة كبطاقة دعوة إلى الجنة.. ومن قائل: التضحية بالغالي والنفيس في سبيل المحبوب. ولكلٍ مما سبق محمِله الخاص وفهمه المعين.

وعلى هذا يطلق على من يتحمل تبعات أية مسألة كانت بـ "الصابر"... وعلى من أصبح الصبر مَلَكَة لديه بـ"المصطبر"... وعلى المكتمل في الصبر بسكون وراحة وجدان بـ "المتصبّر" و المعتاد على الصبر

القادر عليه بـــ"الصبور" وعلى كثير الصبر، أكثر من المعتاد بـــ"الصبّار".

فضلاً عن أننا نرى أن المفسرين الإشاريين يذكرون الصبر بربطهم بـــين بعض الآيات من القرآن الكريم فيقولون مثلاً في قولـــه تعـــالى: ﴿اصْـــبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ (آل عمران:٢٠٠) أي:

اصبروا: بنفوسكم على طاعة الله تعالى، وصابروا: بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا، بإدامة العشق والاشتياق لله تعالى.

أو: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

أو قصدوا، بـــ"اصبروا"، اســـتقامة الـــشعور والفكـــر تجـــاه الـــنعم. وبـــ"صابروا" عزم التحمل تجاه الشدائد والمصائب. وبـــ"رابطـــوا" إدامـــة الرابطة مع الله رغم كل شيء.

ومعنى آخر لدى أرباب الحقيقة: إن الصبر هو معرفة كل شيء مـــن الله تعالى، خيره وشره، فإن كان ما يبدو للعقل من الفعل حسناً شكر وإن كان مكروها رضي.

هذا وليس من الشكوى عرض الإنسان حاله على الله تعالى عند نـــزول المصائب التي لا يمكن دفعها، أو عند القيام بالتكاليف الشاقة، أو عند الخوف من ارتكاب الآثام التي وقع فيها الكثيرون.. فهذه كلها تـــضرع وتوســـل وتوكل وتسليم، كل حسب نيته؛ فمثلاً تفجّع سيدنا أيوب عليه السلام لربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣) وتـــأوّه ســـيدنا يعقـــوب عليه السلام بـــ: ﴿إِنَّمَا أَشْـــكُو بَثِّي وَحُـــزْنِي إِلَى اللّهِ﴾ (يوسف:٨٦). كل ذلـــك دعاء وتضرع ذو بُعد استعطافي. ولهذا أثنى سبحانه على سيدنا أيوب بقوله:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤) أوَ ما قبل الله كلامه المترع بالتوكل والتسليم شكراً في ذات الصبر؟

إن الصفة المميزة التي لا يبلغها أحد، للرسل العظام - في المقدمة- والأنبياء الكرام والأصفياء والأولياء، هي أنهم قد عاشوا الصبر وامتثلوه بأنواعه وأشكاله، وعاشوا بين الناس بالصبر عن الله رغم ارتباطهم المتين مع الله سبحانه. أمَا يقول فخر الإنسانية وشمس سماء النبوة وسيد السادات ﷺ لما سُئل: (أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً قَالَ الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ).[1]

نعم، الصبر حال أصحاب الذرى وهو منبع قوة لسالكي طريق الذرى.

فالذين بلغوا الذروة ونالوا هذا المقام يمتثلون - بمقتضاه- جميع أنواع الصبر وبأفضل صورة لقاء هذه الحظوة، أما مَن قُدّر لهم بلوغ الذروة فإنهم يبلغون بالتحمل وتشغيل محرك الصبر والمعاناة ما بلغه غيرهم بألف نوع من أنواع العبادات. كما ورد في الحديث الشريف (إن الرجل لتكون لـه ثمّ الله المنـزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها).[2]

ولهذا يصح القول: كما أن البلاء رحمة كامنة تجاه ثقل المسؤولية وتبعاتها وضغط المعصية، فالموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه هذه الأمور هو لبّ تلك الرحمة. ولب هذا اللب وأساسه هو ألاّ يدري أحد بهذا الحمل الثقيل ولا بهذا التحمل والصبر.

---

١) الترمذي، الزهد ٥٦؛ ابن ماجة، الفتن ٢٣؛ الرقاق للدارمي ٦٧.

٢) الصحيح لابن حبان ١٦٩/٧؛ المستدرك للحاكم ٤٩٥/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢٩٢/٢؛ شعب الإيمان للبيهقي ١٦٤/٧.

وما أجمل ما يقوله "فضولي" بهذا الخصوص:

لا تتأوه من بلاء العشق وأنت العاشق

فلا تنبّه الأغيار بآهاتك وأنّاتك

نعم، على الإنسان أن يحترق كالموقد الساكن في موضعه دون إظهار غمّه للأغيار. فيثبت في مكانه منسحقاً تحت ثقل كالجبال، دون أن يبث أحزانه لغيره.

ويلخص مولانا جلال الدين الرومي في مثنويه الصبر ضمن هذه المقاييس بالآتي:

"حبة الحنطة لكي تكون غذاءً للإنسان وقوةً ممدة له، وعلاجاً لمرضه، ونوراً لبصره، وركيزة لحياته، لا بد أن تُدفن تحت التراب وتجري عليها عمليات لتتحول شطأً حتى تستوي على ساقها ثم تُحصد وتُسحق في البيدر ويعزل عنها التبن، وتطحن في الطاحونة وتعجن في المعاجن، وترمى في النار لتصبح خبزاً يؤكل، ثم تمضغ تحت أسنان الإنسان وتنزل إلى معدته".

وكذلك الإنسان لكي يكون نافعاً للإنسانية يلزم أن يمرر من أنابيق مختلفة ويصفّى دفعات، وإلاّ يظل في الطريق دون تحقيق ما هو مجهز به من القابليات الإنسانية.

بَنْدَه هَمَانْ بهْ كِه بَلاَكَشْ بُوَدْ

عُودْ هَمَانْ بهْ كِه دَرْ آتَشْ بُوَدْ [1]

---

١) ديوان شمس تبريز لمولانا جلال الدين ٣٦٢، الغزل رقم ٩٩٤، ص١٢٨٤.

أي: العبد الحق هو من يتحمل البلايا، وعود الخشب الجيد هو الـــذي يحترق جيداً.

والصبر بجميع أنواعه ذروة في العبودية، وذروةُ هذه الذروة الرضـــا، ولا مرتبة تفوق الرضا عند الله كما أعتقد.

اللّهم إني أسألك الرضا بعد القضا وبرد العيش بعد الموت

ولـــذة النظر إلى وجهك وشـــوقاً إلى لقائك.

وصلّ وسلم على سيدنا محمد الراضي الْمَرْضِيّ

وعلى آلـــه وأصحابه ذَوي القدر العليّ.

الرضا



الرضا هو عدم اهتزاز قلب الإنسان للبليّات التي تصيبه، ومقابلة تجليات القدر بارتياح ضمير. وبتعبير آخر: بقاء جهاز الفؤاد والوجدان في سكون واطمئنان مما يتألم منه الآخرون ويمتعضون منه. وفي هذا الصدد توضيح آخر هو أن الرضا ارتياح القلب واطمئنان النفس بقضاء الله وتقديره ومعاملاته بتحمّل آلامها وشدائدها وغموضها حسب تلقيات نفوسنا.

إن طريق الرضا إرادي ابتداءً، ولكنه هدية إلهية فوق الإرادة والاختيار، حيث إنه موهبة الحق سبحانه لمحبيه. ولهذا لم يؤمَر به كالصبر في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل ذُكّر كوصية فحسب.[1] وفي الحقيقة أن ما يروى كحديث: (مَن لم يرضَ بقضائي ويصبر على بلائي، فليلتمس رباً سواي)[2] معلول من حيث قواعد الحديث. ويرى قسم من أهل الله أن الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل والتسليم، وآخرون يرون أنه ليس كسبيا بل هو وارد يظهر أحياناً ويغيب أخرى، كأحوال السالك الأخرى.. وآخرون وفيهم الإمام القشيري يرون "أن بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من جملة

---

١) انظر السور: التوبة:٦٢؛ المتحنة:١؛ البينة:٨.

٢) المعجم الكبير للطبراني ٣٢٠/٢٢، المعجم الأوسط ٢٠٣/٧، ١٩٢/٨؛ شعب الإيمان للبيهقي ٢١٨/١.

المقامات، وأما نهايته فهي من جملة الأحـــوال وليست بمكتسبة".[١]

أما الحديث الشريف الوارد عن رسول الله ﷺ: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَـــنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً)[٢] فيشير إلى أن مبدأ الرضا إرادي متعلق بكسب العبد ونهايته هبة إلهية مرتبطة بمشيئته الخاصة سبحانه.

فالرضا بألوهيته سبحانه، هو محبته وتعظيمه، والتوجه إليه، ورجاء كـــل شيء منه وحده.. والرضا بربوبيته، مقابلة ما قدّره سبحانه لنا ودبّر برحابة صدر، وعدم الاستعجال عند الصدمة الأولى التي تبـــدو مؤلمـــة، واختيـــار الصمت لحين انقضائها، والإيمان به والتوكل عليه في تـــصرفه في العبـــاد، والارتياح بكل ما يفعل به ويقدره له.

أما الرضا بنبوة الرسول ﷺ، فهو كمال الانقياد له، والتسليم المطلق له. وتفضيل هديه وهدايته على هوى الإنسان ونزواته، وتسليم قيـــاد منطقـــه وزمام عقله إلى أمره، وجعل ذكائه مرآةً لفطنته النبوية الواســـعة المحتـــضنة للوحي الإلهي متوجهاً إلى الأصل دون الظل.

أما الرضا بالإسلام، فيلخص استناداً إلى الآية الكريمة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْـــرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمـــران:٨٥) وهو جعل الدين حياةً للحيـــاة الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية.

وقد يدفع البحث عن مثل هذا الرضا الإنسانَ في بعض الأوقات وتحت ظروف خاصة، إلى الانفراد والاغتراب، رغم أنه يعيش بين الناس. ولكـــن

---

١) الرسالة للقشيري ٣٠٩.

٢) مسلم، الايمان ٥٦، المسند للامام أحمد ٢٠٨/١.

الحقيقة هي أن الواصلين إلى المعية الإلهية والسائرين على نهج النبي ﷺ، لا يظلون منفردين ولا يغتربون، إذ لا استيحاش ولا انفراد لمن يحيا في جو من "الأنس بالله". بل باغترابهم الموقت يتقربون أكثر فأكثر إلى الحق سبحانه، ناهيك عن الاستيحاش والانفراد. فكلما اغتربوا هبّت عليهم نفحات الأنس أكثر فطربوا وانشرحوا واستشعروا نسائم الخلود. وقد سمعنا كثيراً قولهم بانفعال "اللّهم زدني اغتراباً، ولا تكلني إلى ظلم ما يبعدني عنك. وأنزل معيتك في قلبي".

وكما ذكرنا آنفاً أن حقيقة الرضا منحة إلهية وأسبابه متعلقة بإرادة الإنسان، فلا يبلغ الإنسان أفق الرضا إلاّ بعمق الإيمان وجدية العمل، وسعة الشعور بالإحسان وبمروره من فصول التوكل والتسليم والتفويض.

ولما كان الحصول على الرضا عزيزاً وكسبه بإرادة الإنسان صعباً، فلم يأمر به الله سبحانه مباشرة، وإنما أوصى به وندب الخلق إليه وأثنى على الذين بلغوا تلك المرتبة ورفع من شأنهم.

وإذا أخذنا الأمر من زاوية الأسباب، فالبلوغ إلى مرتبة الرضا يتطلب؛ الجد في معاملات العبد مع ربه، وأخذ النعم التي تُغدق عليه من دون طلب وسائلَ شكر وتحدثاً بالنعمة، والتعالي على أنواع الحرمان برحابة صدر، وأداء حق مسؤولياته بانشراح تام حتى لو كان يتقلب تحت قبضة الاستيحاش والانفراد والانقباضات، وقبول أوامر الحق سبحانه ونواهيه بسرور وحبور كأنها دعوة إلى "ليلة زفاف"... وأمثالها من الأسس، إلاّ أن أهم ركن للرضى من حيث المبدأ هو توجّه الفرد إلى الله في قيامه وقعوده

بشعوره وفكره وسلوكه، والانتباه له والانشراح بــه، وإنــشاؤه وســائل متجددة كل يوم للوصول إلى معرفة أعمق للألوهية.

والرضا والمحبة لهما أهميتهما في العقبى وما بعدها لاحتضان سعتهما الدنيا والعقبى. بينما تأثير الخوف والرجاء على الإنسان أمر دنيوي. فتنحصر أهمية هذين الشعورين في دفع خيبة الأمل والشعور بالأمان التام، ولا وجوه لهمـــا في الآخرة إلاّ ثمارهما.

والرضا منبع مهم للاطمئنان سواء في الدنيا أوالآخرة. ولا يعني هـــذا أن الذين بلغوا هذه المرتبة قد تخلّصوا كلياً من الآلام والمكاره، بل في طريق الرضا أمور تسع الدنيا ظاهرُها كريه ومفجع، إلاّ أن أبطال الرضا يتلقونَها رحمـــة، فتُقْلَب السمومُ التي يتجرعونها ترياقاً والمشاق التي يتعرضون لها تبادل عـــشق بين محبوبين، وموادّةً رابحة بينهما.

وفي الحقيقة أن طريق الرضا أقصر الطرق وأكثرها أمنا رغم ما فيها من مصاعب ومشقات. إذ يمكن أن يوصل الإنسان أحيانـــاً بجملـــة واحـــدة وبنفحة واحدة إلى ذرى كمالات الإنسان. والأمر هكذا، سواء كـــان السالك مندفعاً من جهة إلى أخرى بكل قواه ونشاطه، أو مطالعاً الكون كتاباً مفتوحاً أمامه، وهو يتنفس أنفاس الحق تعالى في كل شيء، أو كان مهيض الجناح تحيطه المحالات ويجول بنياته في سماء غاياته، ولو في بيتـــه وهو على كرسيه يتأمل لتحقيق اهدافه السامية.

ونتيجة الرضا سرور وانشراح ساحر يهبّ من رضـــا الـــرب الجليـــل يتناسب طردياً مع عظم آمال الإنسان ورجائه. فهذا ليس ذوقـــاً يحـــصّله

القرب، ولا لذة تُشعرها العبادات والطاعات، ولا تلذذا وجدانيا نابعاً من الصراع مع الآثام، بل هو حلاوة روحانية ملونة بالأمل وعمق الرجاء ومطبوعة بالتمكين والحذر.. فهو نفحة رحمة، وتوجّه خاص منه تعالى مباشرة إلى مقام الرضا.

ومرتبة الرضا، من حيث إنها توجّه النظر جميعه إلى الحق تعالى فإن اتخاذها وسيلة للأذواق واللذائذ والحظوظ أو أنواع من الاستشفاف والترقبات، قلة احترام واستخفاف بذلك المقام الذي أساسه الصفاء والنقاء. وفي الحقيقة يصح أن نرى الشيء نفسه في جميع الأحوال والمقامات التي ذكرناها ضمن الأعمال القلبية. نعم، إن حبّه سبحانه، وترقب رضاه في كل الأحوال، ينبغي أن يكون لأجله وحده وليس لأي سبب من الأسباب. ولقد قال أبطال عالم الروح والقلب منذ القدم إلى يومنا هذا أقوالاً مشابهة ومتممة ومتقاربة حول الرضا فمثلاً:

يقول ذو النون المصري: علامة الرضا هي ترك العبد إرادته بتفضيل إرادة الحق سبحانه قبل قضائه الأشياء، والعلم بأن الخيرة فيما اختاره الله، بعد قضاء الأشياء، وعدم الانزعاج بل يظل حبه في جيشان وهو يتلوى في قبضة المصائب.[1]

ويقول الحسين بن علي رضي الله عنهما: كفّ العبد عن كل ما يخالف إرادة الله واختياره، وعدم تمني أي شيء سواه.[2]

---

١) "ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء". الرسالة للقشيري ٣١١. وانظر أيضاً: كشف الخفاء للعجلوني ١/٤٧٨.

٢) "من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له، لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له". الرسالة للقشيري ٣١١.

ويرى أبو عثمان: أن الرضا هو تلقي تجليات الحـــق ســـبحانه الجماليـــة والجلالية بالارتياح، وقبول الجلال عينَ الجمال والجمال عين الرحمة.[1] حيث يشير بيان الرسول ﷺ المنوّر إلى هذا: "وَأَسْـــأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ".[2]

نعم، إن الرضا على قضاء الله وحكمه ولمّا يتحقق بعدُ هو عـــزمٌ علـــى الرضا، أما الرضا الحق فهو الرضا عند صدمة النازلة وتحمّلها.

ونذكر أدناه بعض الملاحظات التي يمكن إرجاعها إلى الأقوال الـــسابقة حول الرضا:

١. عدم الانزعاج من أي حكم وتقدير مصدره الألوهية والربوبية.

٢. تلقّي كل ما يرد من الله بانشراح وسرور.

٣. الارتياح إلى رياح القدر أينما هبّت.

٤. المحافظة على ضبط موازنة القلب وتوازنه حتى تجاه أفجع الحـــوادث وأشدها.

٥. عدم التوجّع من المصائب متفكراً بتقدير الله في لوح الحقيقة المحفوظ.

هذا ويمكن الاسترسال في البحث عن أمور أخرى في هذه الأسس الثانوية التي تخص الرضا، إلاّ أننا ننهي هذا الفصل ولا نـــزيد لئلا نشتت الموضوع.

الرضا لدى عامة الناس، هو عدم الاعتـــراض علـــى التقـــدير الإلهـــي والتجليات بحقهم.

---

١) نفسه ص ٣١١ حيث قال: "الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا".

٢) النسائي، السهو ٦٢؛ المسند للامام أحمد ١٩١/٥.

والرضا لدى الذين بلغوا الأعماق في المعرفة هو استقبال ما قــضى الله وقدَّره بالترحاب.

أما رضا أرباب القلوب والروح الذين استعلوا على أنفسهم فهو ترصّــد إرادته وتوجهه تعالى فحسب صارفاً النظر عن نظرات نفسه وفكره.

فالآية الكريمة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِــيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠) تتضمن المراتب كلها وهي بماهية جواب على الأمور التي تتوجه إلى جميعها تقريباً.

نعم، يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن بلوغ مرتبة الرضا مقيّد بتوجّــه النفس إلى الله تعالى، هذا التوجه لا يُقيَّم باعتبار علاقتنا بالزمــان والمكــان وأبعادنا الدنيوية والأخروية، بل بتجلي الحق سبحانه وتوجّهه الذي يــسمو على الأزمان والأمكنة. ولهذا يصح أن نقول: إن هذا التوجه سيتجلى بأبعاد اللُّطف.. ففي الدنيا بالتوكل والتسليم والتفويض.. وفي أثناء الوفاة باطمئنان القلب والانبساط إلى الرب الجليل.. وما بعد البعث بأخذ مكانته بين عبــاد الله الصالحين ودخول الجنة.

وإذا أخذنا من زاوية أخرى رضا الناس وعوامهم، نجد أنه مقابلة ربوبيته تعالى بارتياح، والانغلاق التام عما سواه بحثاً أو توجهاً، ونسج الحياة حول حقائق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٦٤) وكذلك ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَــمُ﴾ (الأنعام:١٤). الرضا بهذا المفهوم ذو أهمية بالغة لكل مؤمن حيث يفيد التوحيد الحقيقي في الوقت نفسه. والرضا بهذا المستوى يتحقق بهيمنة محبته ســبحانه

على القلب، حتى لا يبقى موضع لمحبة أخرى، بل تكون محبة الأغيار أيضاً لأجله وفي سبيله، وتتخذ المحبة شكل العبادة.

والرضا في الدرجة الثانية، هو رضا أرباب المعرفة، ويطلق عليه أيضاً "الرضا عن الله" وهو استقبال القضاء والقدر بانشراح صدر، من دون أن يدع مجالاً لأدنى انحراف في إبرة بوصلة القلب ولو في أقل زمان.

فبينما الأول يعدّ اقتراباً عامياً للرضا، يُعدّ هذا معاملة القلوب المجهّزة بالمعرفة مع الحق سبحانه.

أما الرضا في الدرجة الثالثة، فهو رضا الأصفياء، ويلخص بـ"الرضا برضاه تعالى".

فمَن شُرّف بهذا المقام فلا غيظ ولا سخط لأجل نفسه، ولا شعور بالفرح والسكينة لأجل نفسه، بل يعيش في أذواق ولذائذ الفناء في ربه، متخلياً عن مشاعره وأفكاره ورغباته.

فالرضا في الدرجة الأولى، فرض، لإنه إرادي ويفيد التوحيد، وكذا مبدأ في سبيل القربة إلى الله.. أما الثانية فهو بمثابة واجب، إذ هو دوام المرتبة الأولى وأساس المرتبة الأخيرة من حيث القربة.. وأما الثالثة: فهو هبة إلهية أكثر مما هو كسبي، وعُدّ من النوافل التي هي عين القربة.

ويمكن القول أيضاً أن الأخيرة من هذه الدرجات تضم الأولى والثانية كذلك، لأن الأصل والأساس هو كون العبد في طريق الرضا، والعيش في جو الرضا. أما التكامل مع الرضا والتحول إلى الرضا فهو نتيجة وثمرة.

وبتعبير آخر إن المرتبتين الأوليين متعلقتان بأسماء الله وصفاته تعالى، أما الثالثة فمتعلقة بما يترتب عليها من ثواب وجزاء وتجل وواردات ومقابلة. واعتقد أن الآية الكريمة النيرة: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:٨) تشير إلى هذه الأمور الثلاثة معاً. والحقيقة نفسها يبينها الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف: (ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً).[1]

ونرى أنه بالملاحظات الآتية يمكن تغذية الشعور والفكر لبلوغ الرضا بالشعور والفكر، ويمكن أن تذلل بعض صعوبات ومشقات هذا الطريق العسير، ويمكن تعديل الاعتراضات الجسمانية والدنيوية إلى حد ما:

• الإنسان أمام تقدير وتجليات الحق سبحانه ما هو إلاّ نموذج وصورة ليس له حق التدخل فيما تعهّد به من دور يؤديه لا في كيفيته ولا في شكله.

• كل ما يصيب الإنسان قُدِّر وفق ميوله كشرط عادي، ولا يقدر على تبديله إلاّ الخالق سبحانه.

• الانسان بكل ما يملك عبد لله ومُلكه، فلا يتدخل العبد في تصرفات سيده.

• إن كان الإنسان يحب الله حق الحب، عليه أن يهش بما يرد منه زهرةً كانت أم شوكةً.

• قد لا يدرك الإنسان نتائج ما يصيبه، لعل فيه مصالح كثيرة تسع الدنيا. والآية الكريمة صريحة في هذا ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

---

١) مسلم، الإيمان، ٥٦؛ المسند للامام أحمد ٢٠٨/١.

وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦).

• المسلم هو من استسلم لله، لذا سخطه على إجراءاته تعالى غير وارد إطلاقاً.

• قبل كل شيء المؤمن إنسان يحسن الظن دائماً، فكيف يسخط على إجراءات ربه فيسيء الظن وهو المأمور بحسن الظن.

• الرؤية الحسنة، والرويّة الحسنة والتأويل الحسن تجاه ما يصيب الإنسان من القدَر تملأ جوانحه بالطمأنينة والانشراح.

• لئن كان إيفاء حق المسؤوليات التي علينا في الدنيا، أو المسائل التي نتعرض إليها، يشكل أساساً لحياتنا الأخروية، ألا ينبغي علينا أن ننجزها حباً وكرامة كما ننجز واجب التعليم والتربية ؟

• إن رضا العبد بما يرد من ربه، يعني رضا الرب عنه.

• إن العيش الذي يدور مع الرضا حيث دار يذيقنا نشوة الجنان ولو كنا من حيث مشاعرنا في جهنم، في حين الانزعاج تجاه ربوبيته تعالى يسبب الغم والكدر والتشتت.

• تحري الرضا وأسبابه، دعوة لا تُردّ للإمدادات الإلهية.

• إن كان غل القلوب وغش الناس، سوء أدب تجاههم، فكيف باستشعاره مع إجراءات الله سبحانه ؟ إنه ذنب لا يغتفر، ولا يسمح أدبنا التعبير عنه.

• إن الرضا بتجليات الحق سبحانه وقدره، أهم وسيلة للسعادة، ينـــور هذا، الكلام الطيب الذي قاله الصادق المصدوق ﷺ: (مِنْ سَعَادَةِ ابْـــنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللهُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْـــنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللهُ).[1]

• إن استشعار الإنسان بالرضا والانشراح بإجراءات الله سبحانه، يمـــلأ قلبه بنسائم إلهية سامية (لاهوتية)، بينما السخط يملأه بأوهام شيطانية.

• إن الذين يعيشون في فلك الرضا، كأنهم يجعلون من أعمارهم نسيجاً رائعاً للشكر. بينما المتذمرون بعدم الرضا يسحقون حتى أفضل أعمالهم بين رحى الكفران فتذهب هباءً منثوراً.

• إن عدم الرضا والسخط على إجراءات الحق سبحانه، من أكثر منافذ الشيطان تأثيراً على الإنسان وقلّما ينجو منه مَن كان في مثل هـــذه الحالـــة النفسية.

• كفى بك شرفاً أن أهل السموات يشاركونك في رضاك وانشراحك بمعاملات الحق سبحانه معك.

• الراضي يعني متّبع الهدى، والساخط يعني متّبع الهوى.

• الراضي بحكم الله لنا يعني تفضيل إرادتـــه ســـبحانه علـــى إرادتنـــا الشخصية، فهل من داعٍ للتعبير عن الوجه المخالف ؟!

• إن جميع الطاعات والعبادات ثمرات مشاتل الرضا، بينمـــا المعاصـــي

---

١) الترمذي، القدر ١٥؛ المسند للامام أحمد ١٦٨/١.

ثمرات الحرمان منه.

• الرضا ينقذ الإنسان من الخصام الداخلي مع ربه. وغني عن البيان ما في ذلك من سوء أدب.

• إن شعور الرضا بالحق سبحانه، تعبير عن الإيمان به والتوقير له لقوله ﷺ :(عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ).[1]

• أول عصيان لله على الأرض، بدأ بعدم رضا الشيطان عمّا هو مقدّر له.

• لا مرتبة أعلى للإنسان من مرتبة الرضا، ولو كانت هناك مرتبة تفوقها لأنزل الله محبيه فيها بعد نيلهم "الحسنى". بينما النعمة الخالدة التي لا نهاية لها هي ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

• الرضا بني على أسس مهمة للدين، إذ يستند إلى التوكل، وترفرف حقيقتُه بأجنحة اليقين، وينال لبُّه الخلود بالمحبة، وخميرتُه شاهدة الوفاء الصادق وبيان فعلي للشكر.

• الرضا مصعد سحري يرفع الإنسان في دفعة واحدة إلى أوج الكمالات، فالذين استقلّوه يصلون هدفهم بسرعة تفوق الزمان.

• المحبة، الإخلاص، الإنابة، الأوبة زهرات يانعات على سفوح الرضا. ومن العبث البحث عن هذه الأوصاف في القلوب التي لم تنقطع إلى رضاه سبحانه.

إن جزاء الأعمال التي تُؤدّى بالحواس الظاهرية، قليل حتى لو تضاعفت تلك الأعمال، لأن الكمية تحسب بقوالب. بينما جزاء الأعمال القلبية كالرضا وما

---

١) المسند للامام أحمد ١/٤٥٢،٣٩١.

فيه بُعد الرضا يتناسب طردياً مع وسعة القلب، فهو فوق التصورات.

الرضا أعظم مرتبة عند الله سبحانه، وأرقى ما فيها هي الصفة المشتركة لمن هم في أرفع مقام. فالخط الواصل من سيد الأنام ﷺ إلى الأنبياء الآخرين (عليهم السلام) ومنهم إلى الأصفياء والأولياء.. جميع هؤلاء الأفذاذ بلغوا تصفيات التسابق الأخيرة فيتنافسون في الإخلاص واليقين والتوكل والتسليم والتفويض لبلوغ الهدف.

فكم ركبوا أكتاف الشدائد وكم تحمّلوا الصعاب والأهوال وكم اقتحموا غمرات أنهار الدماء والجروح بلوغاً إلى هذا الهدف!

فهذه أنّات مكابد منقطع إلى الرضا:

اَي جَفَايِ تُـــو زِدَوْلَت خُوْبتَر

وَانْتِقَامِ تُـــو زِجَـــانْ مَحْبُوبْتَرْ

عَاشِقَم بَرْقَهرُ وُ بَر لُطْفَشْ بَجِد

بُو العَجَب مَن عَاشِقِ هَرْ اِينْ دُوضِد[1]

وَالله اَرْ زِينْ خَار دَرْ بُسْتَان رَوَم

هَمْچُو بُلْبُل زِينْ سَبَبْ نَالاَنْ شَوَمْ

اِينْ عَجَبْ بُلبُل كه بُكَشَايَدْ دَهَانْ

تَاخُورَدْ او خَارْ را بَا گُلِسْتَان[2]

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٧٧/ب١٥٦٦.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٧٧/ب١٥٧٠.

"أيها الحبيب، جفاؤك أحلى من السعادة والجاه، وانتقامك أحبّ من الروح.. وإني لشديد العشق لقهره ولطفه، فما أعجب أنني عاشق الأضداد.. فوالله لو رحلت من شوك البلاء هذه إلى بستان الصفاء سأنوح كالبلبل، فيا عجبا كلما فتح البلبل فمه قال: شوك.. بستان.

وللشاعر الحروفي "نسيمي" قول جميل في هذا الصدد:

لا أتراجع عنك أيها الحبيب

فأنا العاشق المكابد

ولو قطعتَ قلبي إربا لا أتراجع عنك

ولو شقوني كزكريا من الرأس إلى أخمص القدم

ولو وضعتَ أيها النجار في مفرق رأسي المنشار لا أتراجع عنك

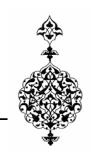
ولو حرقوني ونادوا رمادي من النار

لا أتراجع عنك أيها الستار.

نعم إن مقام الرضا مقام فوق مقام الجمع والفرق، إذ أنفاس هذا المقام هي: "طاب قهرُك كما طاب لطفُك".

اللّهم وفقنا إلى ما تحب وترضى، وصلى الله على سيدنا سيد المرضيين وعلى آله وأصحابه المخلَصين. آمين

الانبساط



الانبساط هو التوسع، الانتشار، التعمق في الداخل، استعلاء المرء على طبائعه. ولدى أربابه: انفتاح القلب للجميع، وإرضاؤهم، بطيب اللسان وطلاقة الوجه، ضمن إطار الحدود الشرعية.. ومن حيث العلاقة مع الله سبحانه، هو هيمنة حالة من مزيج الخوف والرجاء على ذات الإنسان بحيث إن ذوي القلوب الواصلة إلى هذا المستوى، يكتمون أنفاسهم في هيبة الحضور، ثم يطلقونها بنشوة نسائم الحضور وبهجة سروره، فكلما شهقوا اقشعروا وكلما زفروا انشرحوا.

وعلى هذا يمكننا أن نقسم الانبساط إلى قسمين، من حيث علاقاتنا بالناس وعلاقاتنا بالحق سبحانه:

١- الانبساط ضمن علاقاتنا بالناس: مع الاحتفاظ بارتباطنا بالله، هو تعامل الفرد مع الناس كفرد من الناس، أي بمستوى إدراكهم وعقولهم. فقد كان سيد الأنام ﷺ لدى تعامله مع من حواليه، لا يتكلف بل كان يمازحهم أحيانا، ويلاطفهم بنكات ملؤها الحكمة، على حسب ما يتحمله مستواهم وإدراكهم. ويهش لأولئك الرجال الذين يعيشون في مراقبة الله، فيدفعهم إلى الابتسام والانبساط والانشراح. ذلك لأن "القلب كالمرآة، قد يكدّرها الجدّ

أحياناً، ولا تصقل إلاّ بمزاح لطيف رقيق يزيل تلك الكدورات". كما قالـه صاحب المنهاج.

٢- الانبساط ضمن ارتباطنا به سبحانه: هو استنشاق هبّات نسائم الانبساط، والعيش بالخوف والرجاء معاً في الروح، بحال يفوق الأحوال. فالخوف والرجاء اللذان هما من أحوال النفس، عنوانان على علاقة المبتدئين بالله في ارتباطهم به سبحانه. أما الانبساط الذي هو حال العارفين حقاً فهو بُعدٌ آخر لحياة القلب وحالةٌ خاصة بأرباب القلوب. وأحوال الذين لم يبلغوا الانبساط بعدُ والتي تبدو كأنها انبساط، كثيراً ما تسوقهم بما يحصل لديهم من ألفة معرفية، إلى تخريب الحذر والحيطة وإلى اللامبالاة الذي يعدّ سوء أدب مع الله سبحانه.

والانبساط يظهر في مقام كون المرء مرآة مجلوّة لأسماء الله وصفاته الجليلة، وذلك بعد انسلاخه من الرغبات الجسمانية وتخلّصه من تأثير النزعات البدنية. وسواء أطلقنا على هذا المقام اسم مرتبة الجمع أو المحو، فالنتيجة لا تتبدل، فهو نقطة ذات أسرار، حيث إن الشخص يتشكل بنسائم من الحق سبحانه، ويتسربل بألوان تسمو على الألوان. وعندما يبلغ الواصلون هذه النقطة لا يستطيعون كتمانها قطعاً. أما تكلم المبتدئين – غير الواصلين- جزافاً عن الانبساط فوقاحة.

"إن كان نديم السلطان يدلّ وينبسط، فلا تنهض أنت لمجاراته، لأنك لا تملك ذلك السند والضمان. فيا من يعجز عن النجاة من قيود هذا العالم الفاني أنّى لك أن تعرف المحو والسكر والانبساط!"..

لتهنأ روحك أيها الرومي مولانا. فأنّى يعرف الـــروحَ عبـــدةُ البـــدن والجسد! وأنّى يعرف الروحانيات واللدنيات حبيسُ البدن!

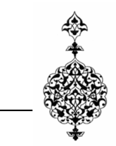
وليُسأل الذين اكتوت قلوبُهم بنار الحق سبحانه خمسين مرة، عـــن آلام الصدور المحترقة والانقباضات والانبساطات المتسربلة بألوان الماورائيات.

اللّهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر

والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

القصد والعزم



القصد يعني: التوجّه، الثقة، الاستقامة، العمل نحو هدف معين، التفكـــر باعتدال دون إفراط وتفريط، العيش باعتدال وجعله نهجاً للحياة.

والقصد لدى أربابه: قطع علائق القلب عما سواه تعالى نيلاً لمحبته تعالى وهو المحبوب الحقيقي، وكسباً لرضاه. ويمكن الربط بين هذه المفاهيم. فقـــد قال "إبراهيم حقي":

القلب بيت الله طهره عما سواه

ففي الليالي ينـــزل الرحمن إلى قصره.

.بمعنى عليك أن تصون القلب الذي هو بيت الله عن كـــل مـــا ســـواه، ليُشرّف صاحبُه الحق بالرحمة قصر تجليه. ففي عباراته هذه توكيد على النية والثبات في سبيل تحقيق هذا التوجه الرفيع والهدف السامي، ويبسط أمامنا – بنظر علوي – المسافة البعيدة جداً والقريبة، والطويلة جداً والقصيرة، الممتدة من القصد إلى العزم ومنه إلى الهدف.

وفي الحقيقة هناك طريق مهم واحد فقط للبقاء في الـــسكينة والاطمئنـــان وللحيلولة دون التعرض لضيق القلب والروح الناجم من الإفراط والتفريط. وهو اتخاذ رضا الحق سبحانه ومحبته أساساً. والعيش بحياة تُنسج نسجاً بديعاً علـــى

هذين الأساسين. "إن قلباً خالياً من الحبيب، ومن طلب الحبيب، لا نجاة له من الضيق والقلق. وإن رأساً خاليا من حب الحبيب، لا تبحث فيه عن المعنى واللب، لأن ذلك الرأس ليس إلاّ جلداً". كما قاله جلال الدين الرومي.

فذوو الأرواح التي عزمت على السفر إليه تعالى، لا يمكنهم أن يغفلوا ولو للحظة واحدة عن السفر، وعن تصور السفر، والمعاني والغايات الجليلة التي تُستهدف في ذلك السفر.

فلو زاغ بصرهم مرة إلى الأغيار، ونادَوهم بـ"حبيب"، ناحوا وأنّوا طوال العمر. ألا إنها لشقاوة عظمى من لم يتعرف على طريق الحق سبحانه، فإذا ما تعرّف عليه وعرفه فالبقاء في سواه خسران وخيبة، وما أفدحه من خسران وما أعظمه من خيبة!

القصد أولاً يولَد في سفوح القلب ويترعرع، ويتفجّر أنهاراً في وديان الحس، ثم يغلِّف ويلف ذات الإنسان وجميع كيانه وأنّيته. فيبين له الهدف المقبل بيان إشارات المرور. فالقصد بهذا المعنى، نيّة بشعور، وهو البذرة التي نثرت على روابي القلب. لذا فالروح المشدودة بهذه النية واليد التي نثرت هذه البذرة، إن كانت مسندة بالتأييد الإلهي، ففي كل هبّة وفي كل همّة، تفتح في رحم الزمان مئات من أبواب الخير والبركات. فمن دخل بالقصد باباً دواراً، التقى العزم بعد خطوتين، وما أن يدخل ذلك المجال حتى يمضي سابحاً نحو الهدف.

والعزم يمكن أن نعرّفه أيضاً بأنه القرار الذي يخلُص إليه المرء في أي شأن كان. فإذا ما قرر صدّ الأبواب في وجه جميع البدائل، وثبت على ما يتبعه

ويطلبه لتحقيق ما هو مكلف به بجدّ وبشعور بالمسؤولية.

العزم يلي القصد وبُعدٌ أكثر عمقاً للإرادة، وفي الوقت نفسه هو المرتبة الأولى للسمو إلى سماء التوكل والتسليم، ويلخص القرآن الكريم بكلامه الساحر هذا في بضع كلمات في الآية الكريمة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران:١٥٩). نعم إذا ما قُطعت هذه المرتبة الأولى بالتوكل وعُززت وثُبِّتت بالتسليم، تستوي أمامه التلال، فلا عوج ولا أمت في الطرق، ويبلغ الإنسان مقصوده كأنه يطير في السماء.

القصد والعزم -بالأعماق التي تخصهما- بُعدان من أبعاد الإرادة، وأساسان مهمان لها.

فالسالك الذي نوى سياحة طويلة، مضطر للمرور بمنزل القصد والعزم لأخذ التأشيرة، فإذا ما حازها بدأ بالسفر الحقيقي. ثم تنقلب الإرادةُ - تحت جناحي القصد والعزم وفي عمق ذي أسرار- إلى المراد حتى تذوب فيه، فإذا القصد والعزم اللذان هما عبارة عن تصميم ومخطط، يتحولان إلى عناوين اعتباريين وينمحيان.

ينبه الحبيب المصطفى ﷺ بأن كل من يتسامى لأجل البلوغ إلى الله، فوق ما هو مكلف به، يأتيه الله سبحانه. نعم يأتيه، ويتجلى بأن يكون بصره الذي يبصر به وأذنه التي يسمع بها، ولسانه الذي يتكلم به.

فالوصال بجناحي القصد والعزم لمن هم في الطريق بقاء ضمن الفناء. بينما لذوي الأرواح الذين اجتازوا الطريق ونالوا المراد، بقاءٌ في بقاء، ودائرة صالحة للخير تولّد الخير لا يجدون حتى أثراً للألم قط. وأكثر من ذلك تشرق

الآلامُ هناك في أُفق اللذة وتأفل هناك. فتندمج أنواع القهر بأنواع اللطـــف معاً.

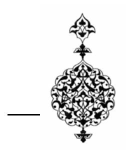
فالروح الواصلة إلى هذه النقطة تردد دائماً "طاب قهرُك كمـــا طـــاب لطفُك" وتملأ ما في يدها من كأس الرضا بكوثر الجنة وتشرب منه وهنأ.

اللّهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك العزيمة في الرشد

وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإرادة، المريد، المراد



الإرادة هي قابلية الطلب، الرجاء، القدرة على تحقيق الرغبات والطلبات، أو الترجيح بين شيئين. وقد عُرّفت لدى الذين يحيون في مستوى القلب والروح بأنها استعلاء على مطالب النفس، وعصيان على الرغبات البدنية، وإيثار رضاه تعالى على مطالبه ورغباته، والفناء فيه سبحانه وفي مراده في كل الأمكنة والأزمنة.

والمريد، هو المتجرد عن حوله وقوته، المستسلم المنقاد لإرادة القدير المطلق الذي بيده مقاليد كل شيء، من الذرات إلى المجرات.

أما المراد، فهو الروح السعيد المشحون بما يريده تعالى، المنغلق كلياً عما سواه، فلم تبق لديه رغبة ولا شهية غير رضاه تعالى، فغدا مرادَ الله ومطمحَ نظره سبحانه.

والإرادة هي أول منزل لسالكي الحق، وأول محط للذين نشروا أشرعتهم نحو الخلود، وذلك حسب حقيقة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام:٥٢؛ الكهف:٢٨). فالذين توجهوا إلى اللامتناهي يمرّون بهذا الميناء وبهذا المدرج للطيران، وبقوته العمّركزية (القوة الدافعة عن المركز) يرتفعون ويسيرون نحو الهدف.. هذا السير يتناسب طردياً مع صفاء

الشخص ودرجة علاقته بالمادة وقوة الدفع للمركز. وحسب توفيق الحق سبحانه وقوة إرادة الفرد، يقطع بعضهم هذه المسافة بسرعة المشي على الأرض، وبعضهم بسرعة القمر الصناعي، والصاروخ، والضوء. وبعضهم يقطعونها بما يفوق جميع مقاييس الكم.. فالمعراج للنبي، ونهاية المراتب للولي والسير والسلوك للدرويش.. أمثلة ساطعة على الإرادة المعززة بتوفيقه سبحانه والمريد والمراد.

هناك علاقة بين المريد والإرادة، لكنها علاقة اشتقاق لغوي على الأكثر. فكما أن الأسباب أصبحت أمام نظر العقول السطحية، ستاراً للعزة الإلهية وعظمتها، فإن إرادة الإنسان كذلك التي هي وجود إضافي، ظل لظل إرادة مَن هو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج:١٦). وكما أن الظل تابع للأصل، فالإرادات المخلوقة تابعة للإرادة الخالقة، فما يُتوهم في الظل من لمعات وحيوية وجاذبة لا تختلف عما هي في الصور المنعكسة على المرايا، إلاّ أنه ليس يسيراً إدراك المبتدئين لهذا.

فالمريد لن ينجو من "الفرق"، ما لم يربط إرادته بالإرادة المطلقة، فيبلغ أفق المراد، وما لم يرتفع من البدن إلى الروح، ومن الجسم إلى القلب، ومن الفكر إلى الوجدان، إذ يرى الإرادة شيئاً وصاحبَ الإرادة شيئاً آخر والمراد شيئاً آخر.

نعم، إن السالك مريد في بداية الطريق، ومراد في نهايته.. فهو مريد لدى سعيه لتمليك طبعه العبودية، وهو مراد عندما تبلغ علاقته مع الحق سبحانه حالة لا تنفك عن الفطرة.. وهو مريد لدى بحثه عن طرق التحبب

والرجاء، وهو مراد عندما يرى آثاراً منه تعالى في كل شيء، فيشرع بنسج بديع من الذوق الروحاني ذهاباً وإياباً بمكوك المعرفة والمحبة.

وضمن هذه المسافة الشاسعة بين بداية علم اليقين إلى نهاية حق اليقين ابتداءات وانتهاءات نسبية كثيرة. فمثلاً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥) بالنسبة للكثيرين انتهاء، ولكنه ابتداء بالنسبة إلى الحظوة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح:١).. وكذا قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٤٣) نهاية بالنسبة لمقامه، ولكنه يعدّ ابتداء حسب أفق قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم:١٧).. وهكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢) الذي هو تعبير عن إدراك للمعية، لا يقاس مع الحقيقة السامية في قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠).

نعم، إن الأساس في المبدأ، هو الصدق والوفاء والعزم.. وفي المنتهى، الجدية، التمكين والأدب. فالذين قصّروا في المبدأ يظلون في الطريق، بينما في المنتهى يعاتَبون ويؤنبون.

إن من أهم المنابع المغذية للإرادة هو الحساسية والدقة في أداء التكاليف، مع التوسل والتضرع إليه تعالى. وأسبق من هذا، هو أن العناية الإلهية مرتبطة بالأخذ بالنوافل بدقة متناهية كي تكون عين الإنسان التي يبصر بها وأذنه التي يسمع بها ولسانه الناطق بها ويده التي يبطش بها.[1]

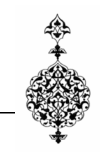
---

١) انظر: البخاري، الرقائق ٣٨؛ المسند للامام أحمد ٢٥٦/٦.

اللّهم ألهمني رشـــدي وأعذني من شــــر نفسي،

اللّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وصل اللّهم على سيدنا محمد المختار وعلى آله وأصحابه المقربين الأبرار.

اليقين



اليقين يعني النجاة من الشك والشبهة، وتمليك الروح علماً قاطعاً وصائبا وصحيحا لا تردد ولا ريب فيه قط. فاليقين، والإيقان، والاستيقان، والتيقن، إنما هو مقام معنوي يعيشه سالك المعرفة لدى ارتقائه في سياحته الروحانية. فهذا المقام يخص الموجودات التي لها درجات، كالمرتبة والترقي والانبساط، ولا ينصرف الذهن قطعاً إلى العلم الإلهي الذي لا درجات فيه ولا مراتب ولا رقي ولا انبساط، إذ الأسماء الإلهية توقيفية مقطوع بها باليقين، وقد عُلِّم من قبل الشارع - حسب الواردات التي وهبت له - الذي هو لسان الغيب الفصيح، وبُلِّغ ما هي هذه الأسماء، فلا نصادف فيها اسم "الموقن" ليكون مصدراً لليقين. وثانياً: أن اليقين يُستعمل لمن يتصف بالشك والشبهة والتردد، بينما الذات الإلهية منزّهة ومقدسة عن هذه الأمور.

واليقين لدى أهل الحقيقة، هو العلم بأسس الإيمان ولا سيما قطبه الأعظم (التوحيد)، بعلم لا احتمال لنقيضه قطعاً، وقبوله وإدراكه واستشعاره، وجعله جزءاً لا يتجزأ من ذات الإنسان، بلوغاً إلى أُفق العرفان. وقد عُرّف أيضاً أنه مشاهدة الغيوب، ومراقبة ما وراء الأشياء وكتمان

الأسرار، عن طريق "اللطيفة الربانية" مستغنياً عن الـــدلائل والـــبراهين في الإيمان. وأرى من الأفضل أن يطلق على اليقين ، الوصول إلى نقطـــة هـــي أقصى ما تُوصِّل إليها باستعمال جميع منابع المعرفة وسبل المشاهدة والمراقبة، والتي هي ابتداء من جهة وانتهاء من جهة اخرى.

فرجل الحقيقة البالغ تلك النقطة كثيراً ما يفتح أشرعته نحو الخلود، فيصل أفق المعراج قلباً، وروحاً أفق ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَـــا طَغَـــى﴾ (الـــنجم: ١٧)، فيجول بين مجرّات التجليات الإلهية المتوهجة، ويُكرَّم بلسان ينطق بـــ "الآية الكبرى" وببصر يشاهدها وبسمع يسمعها.. أي أنه يحظى بما تفيده معـــاني جميع الموجودات صغيرها وكبيرها، نتيجة مطالعته لكتاب الكائنات مطالعة منظمة، وتنفيشه الأشياء مكرراً إياها كالحلاج الماهر.. ويحرز انكشافاً لما لا يوصل إليه من أسرار فيما وراء الأستار، وذلك بما يُقـــدّم الله لمـــشاهدته في الآفاق والأنفس من لوحات العبر الواحدة تلو الأخـــرى.. وينـــال تجليـــاً "للكنـــز المخفي" بطول موجة التنـــزل، والذي لا يمكن قطعه بطاقة البشر، ولا يمكن الإحاطة به، يناله في القلب بإمرار حياته في إقليم الإلهامات المنور المطلسم.. ويغنم التعرف على ما يشعره منشور الوجدان البلوري ويـــشير إليه، والذي يعكس -من دون تكسر أو تحويل- الواردات التي هي بماهيـــة الضوء المترشح من هذه المنابع، يعكسه علـــى العـــين والأذن واللطـــائف الأخرى. لذا فإن إدراك هذه الحظوة والاستشعار بها وتذوقها والتلذذ بها، لا يُكرَّم به إلاّ القريبون من الله بمعنى خاص جداً.

إن أقل اليقين، قويّ إلى حدّ يملأ القلب نوراً، وينفي عنه غبار الـــشك

ويمسح ضباب التردد وينفخ في عالم الإنسان الداخلي أنساماً تفوح بالسرور والاطمئنان والروح والريحان. وكما قال ذو النون المصري: اليقين يفجّر القلب بآمال أبدية ورغبات أخروية، هذا الشعور الرفيع يثير فكر الزهد وينميه.. فربوع الزهد مجالات للفكر مفتوحة للحكمة، فالروح الذي يحلق بالزهد ويبلغ الحكمة يسدد النظر نحو العقبى ويجعلها مهيمنة عليه. فالذين يقصدون العقبى دون انقطاع هم في معية الحق سبحانه مع أنهم في أوساط الناس.[1]

إن بداية اليقين، برزخُ إزاحة الستار، وبعد خطوتين منه المكاشفة، وبلوغ القلب إلى الامتلاء بالتجليات الإلهية، والانغلاق إزاء جميع الشبهات والشكوك، حتى أن ممن بلغوا هذه النقطة قالوا: لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً.[2] وبعد هذا الإقليم الذي تظهر فيه حقيقة الأشياء بما هو فوق الألوان والكيفيات بنَفَسين اثنين، هناك المشاهدة وهي أفق السياحة في عالم المواهب التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

واليقين من حيث المبدأ كسبي وأقصد به تعلق الإرادة الجزئية بالميل والتصرف فيه كما هو لدى أئمة أهل السنة، ومن حيث المنتهى والنتيجة بديهي، ولطفي، ولا بد له من تأشيرة المعرفة. فتظهر المعرفة؛ باقتران إحسان

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٢٨٩.

٢) ينسب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه. انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/٢٠٣؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٨٦.

الله سبحانه بزاوية النظر، والنظر السديد، والنية الخالصة، وتعارف السالك مع الأدلة، فتتبلور وتتنور جميع أعماق الذات. وإذا بالأنوار تغدق على الروح من الجهات الأربع، وينبثق الفجر على أضواء تترى في آفاق الوجود. وتسطع المغارب سطوع المشارق. فيرى كل فرد حسب استعداده نفسَه كنقطة محاطة بالأنوار في أعماق روحه.. ويشاهد نضوب بحر اضطرابات الكثرة وفناءه. ويدرك أن كل شيء قد انقلب إلى زمزمة الوحدة وترنمها فيتذوقها ويعيش بها.

نعم، إن اليقين من حيث ابتداؤه، فيه شيء من الضبابية والغبش، ولهذا يهبّ عليه القلق وعدم الاستقرار. أما من حيث نتيجته فهو حضور واطمئنان بالغ يفوق التصور. فالذين يعجزون عن رؤية هذا الفرق بين المبدأ والمنتهى، قد يلتبس عليهم الأمر بأن في اليقين خطرات، وفي الحضور التوطن والأمان. بينما المسألة هي مسألة المبدأ والمنتهى. أما الخطرات فهي واردة لكل أحد كما يفهم من فحوى الحديث الشريف (إِلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ)،[1] وأما التوطن والأمان فهو بواكير عنايته سبحانه التي ربّاها وأنشأها في مشاتله الخاصة.

وقد بحث اليقين ضمن ثلاثة أقسام لدى أرباب التصوف، في ضوء ما تشير إليه آيات الذكر الحكيم:

١. علم اليقين: هو الوصول إلى أقوى إيمان وأقطع إذعان فيما يتعلق بأمور مستهدفة، بوصاية الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة.

---

١) البخاري، الرقائق ١٨، المرضى ١٩؛ مسلم، المنافقين ٧١٧٨؛ أبن ماجة، الزهد ٢٠.

٢. عين اليقين: هو مرتبة الوصول إلى معرفة تفوق التعريف، يكسبه الروحُ ، بالكشف والمشاهدة والإدراك والاستشعار.

٣. حق اليقين: هو الحظوة بمعية ذات أسرار، من دون ستار ولا حائل، تتجاوز التصورات، ومن دون كمية ولا كيفية. وقد فسر بعضهم هذه الحظوة بفناء العبد من حيث ذاته وأنانيته ونفسه، وقيامه بذات الحق سبحانه.

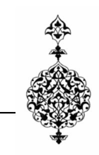
ويمكن أن نعبّر عن هذه الأمور الثلاثة بمثال بسيط وهو: معرفة الإنسان بالموت قبل موته هي "علم اليقين"، ورؤيته الملائكة الآتين لقبض روحه وارتفاع الغشاوة عن بصره وشهوده بعض الحوادث فوق الطبيعة في أثناء سكرات الموت هو "عين اليقين". وتذوقه طعم الموت الخاص به هو "حق اليقين". وعلى هذا فأي علم قاطع اكتسبه الإنسان بطريق الاستدلال العلمي، في أي موضوع كان، هو علم اليقين. وبلوغه ببصره وسمعه وحواسه السليمة الأخرى إلى المعرفة هو عين اليقين. والعرفان الذي يرد وجدانه مباشرة وينبعث منه حتى يغشى جميع حواسه الظاهرة والباطنة، مستغنياً عن الأدلة والبراهين هو "حق اليقين".

أما تطبيق اليقين ولا سيما حق اليقين على الحقائق المجردة، فكما ذكرنا آنفاً، فهو مسألة حالية وذوقية كلياً. وأي كلام أكثر من هذا يفوق حدّنا.

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه،

وصلّ وسلّم على صاحب اليقين الأتم سيدنا محمد الأكرم

وعلى آله وصحبه أجمعين.



الذكر

الذكر هو التخطر، الاستذكار. ولدى الصوفية هو تكـــرار اســـم "الله" وصفاته واحدة واحدة، أو بضع منها معاً. ويؤدَّى الذكر منفرداً أو جماعـــة بأي اسم كان، ففي بعضها يذكر اسم "الله" وفي أخرى يذكر "لا إلـــه إلاّ الله" وفي أخرى يذكر أسماء أخرى وصفات أخرى، وذلك حسب تعـــيين المرشد والدليل.

والذكر كالشكر تماماً، وظيفة ودَين العبدية، يؤدّى بجميـــع الأركـــان باللسان وبالقلب وبالبدن وبالوجدان.

فذكر اللسان هو؛ في موضع ذكر الله بجميع أسمائه الحسنى وبجميع صفاته الجليلة وأن يكون صدّاحاً بحمده والثناء عليه والانفعال بالتسبيح والتحميد.. وفي موضع قراءة كتاب الله الكريم واللواذ بريادته والترنم بآيات الله التكوينية في كتاب الكائنات بمعناها الحرفي،[1] وإعلان عجز الإنســـان وفقره بلسان الدعاء والمناجاة.

وذكر الوجدان هو ذكر الله بجميع أركان الوجدان وفي مقدمته اللطيفة

١) أصل دلالة (الحرف) نحويا أنه غير مستقل بنفسه، في حاجة مستمرة إلى غيره، فقراءة الكائنـــات بـــالمعنى الحرفي يعني: أنها غير مستقلة بنفسها، بل هي في حاجة مستمرة إلى خالقها، مفتقرة في بقائهـــا إلى إرادتـــه سبحانه. (المترجم)

الربانية، أي ذكره تعالى قياماً وقعوداً بأخذ الدلائل على وجوده سبحانه، والتفكر في أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة التي تتلمع في كتاب الوجود والتي تهمس فينا كل آن همسات متنوعة. ومن ثم التفكر في أحكام ربوبيته التي تسع العالم أجمع، وفي المسائل المتعلقة بمسؤولياتنا تجاه هذه الأحكام، من أوامر ونواه، ووعود ووعيد، وثواب وعقاب، والبحث عن أسرار الوجود وعما وراء أستاره، بطرق الأنفس والآفاق، والمشاهدة المتكررة لمحاسن أخروية تتفتح الواحدة تلو الأخرى، في ثنايا هذا البحث أمام البصر والبصيرة. وتصور أن كل شيء من الذرات إلى السيارات نبضٌ ينبض باسم "عالَم القدس" وترجمانٌ لعالم اللاهوت يشع نوراً، ومنفذٌ "لحقيقة الحقائق". وهذا هو الذكر القلبي. فالذين يدركون الوجود ويتحسسونه أنه حي نابض، والذين يستطيعون أن يستمعوا إلى عالم اللاهوت وهو يتكلم كالخطيب، والذين يوفّقون إلى مشاهدة تجليات الجلال والجمال من خلال هذه المنافذ، يتذوقون أذواقاً روحانية لا عين رأت مثلها ولا أذن سمعت، حتى أن ساعة من هذه الحياة ضمن هذه الزمزمة الذوقية تعادل مئات السنين. نعم، إن هذه السياحة القدسية، بتلك اللانهائية اللذيذة تدوم متنهدة بالواردات والحظوظ المعنوية وتستمر في دائرة صالحة. وفي النقطة التي تغمر أنوار "سُبُحات الوجه" الجهات كلها، تفوق مشاهدات الإنسان ذاته وتتجاوزه. فكل فرد من أرباب القلوب يجد نفسه في لجّة الذكر -سواء كانت مشاهداته موافقة بذات الأمر أم لا- وإذا به يردد الأسماء الإلهية، بما يستشعره من أشياء باختياره أو بدون اختياره.

والذكر أحياناً يرغو ويزبد حتى يغشى ذات الإنسان. ففي مثل هذه الحالة، حالة الاستغراق، لا تبقى علامة للذكر ولا عنوان للذاكر. فيداوم بعضهم على كلمة التوحيد بقولهم: لا موجود إلاّ هو، وآخرون يقولون: لا مشهود إلاّ الله، وآخرون: لا إله إلاّ الله، وآخرون ضمن شعورهم الفطري وبمقاييس كلية يلاحظون بعد "لا" جميع الأسماء الحسنى، فيمرّون إلى "إلاّ الله" ويداومون على ذكر كلمة التوحيد في مثل هذا الشعور الكلي والنظرة الكلية.

ولعل الثواني التي تمر في مثل هذا الجو، جو القربة وجو المعية -تلك الثواني المنورة المتفتحة على الواردات- أكثر بركة وتوجهاً للأبدية من سنوات مظلمة ومقفلة عن الواردات. ويروى كلام طيب كحديث شريف إشارة إلى هذه المباركية "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل".[1]

والذكر البدني هو تحويل الأوامر الإلهية ونواهيها إلى حياة تُمارَس وتُعاش، بحيث يستشعر الإنسان في وجدانه كل ما هو مكلف به فيأتمر بأوامره بشوق عظيم وينتهي بنواهيه مع الشعور العميق بالمسؤولية. وإن عمق ما يؤدّى من ذكر باللسان بصورة عامة نابعٌ من هذا الذكر الثاني، فيأتي على صورة صوت لا يموت ينبعث بقوة دافعة من المركز. والذكر البدني على الأكثر هو حملةُ عرض حاجاتنا إلى القدرة الإلهية والقوة الإلهية والغنى الإلهي وذلك بطَرق باب الألوهية، بحثاً عن سبل القبول إلى ذلك الديوان الرفيع بأسلوب الإعلان عن عجزنا وفقرنا البشري.

---

١) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٩٧؛ كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٢٦.

نعم، إن الذاكر، والمصرّ على الذكر، يؤخــذ إلى حفــظ الله ســبحانه وحمايته ويؤوى في محاضن عنايته حــتى أن الأمــر الإلهــي ﴿فَــاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢) يعبّر عن كيفية ذات أسرار وهي تحوّل العجــز إلى القوة بعينها والفقر إلى الغنى بعينه.

أي ما أن تذكروا الله بالفكر والعبادة، يذكركم بالتشريف والتكــريم.. وما أن تترنموا به في الأدعية والمناجاة، يستجيب لكــم بإغــداق ألطافــه عليكم.. وما أن تديموا علاقاتكم معه سبحانه رغم مــشاغلكم الدنيويــة الكثيرة، يشرّفكم بالإحسان بعد أن يزيح عنكم مشاكل الدنيا والعقبى.. وما أن تشرّفوا به أوقاتكم التي تنفردون بها وحدكم، يكون "جليسا أنيساً" لكم حيثما تُدفعون إليه من انفراد واغتراب.. وما أن يكون لسانكم رطباً مــن ذكره في أوقات راحتكم، يرسل إليكم أنسام الرحمة أمام الحوادث الممــضة لكم.. وما أن تنطلقوا في أرجاء العالم تعرّفونه، ينجــيكم مــن ذل الــدنيا والعقبى.. وما أن تكونوا مخلصين لله في أعمالكم، يكرمكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1].. وبهذا يرقى الذاكر، بالــذكر وبالرغبة في الذكر وبذل الجهد فيه ونيله، وإذا بالله سبحانه يعمّق أكثر هذا اللطف، لطف الهداية والتوفيق، بإحساناته الخاصــة. وإن الأمــر الإلهــي ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) يذكّر بهذه الدائرة الصالحة بــين الذكر والشكر، أي السير من الذكر إلى الشكر ومنه إلى الذكر.

إن الذكر لبّ العبادات جميعها، ولبّ هذا اللبّ هو القرآن الكــريم. ثم

١) انظر: البخاري، بدء الخلق ٨، تفسير سورة السجدة، التوحيد ٣٥؛ مسلم، الإيمان ٣٩، الجنة ٥،٦.

الكلمات المنورة الصادرة عن صاحب الشريعة ﷺ. والذكر بجميع أشـــكاله الجهرية والخفية، عملية نقل ضياء "سُبُحات الوجه" المتحلقة في مجال الحواس والتفكر والشعور، إلى البدن، وتمليكه الروح.

والذكر، عنوان للإعلان عن الحق سبحانه للإنس والجـــن تجـــاه نعمــه الظاهرة والباطنة، وما أن ينقطع هذا الإعلان حتى لا تبقى حكمةٌ لوجـــود الأرض وما عليها. ألا يربط بيان النبي ﷺ قيام الساعة بعدم بقاء من يقـــول على الأرض: الله...الله.[1]

إن طريق ذكر الله - بأي شكل كان - هو أقوى الطـــرق وأســـلمها للوصول إلى الحق سبحانه. وبدونه يتعسر الوصول إليه تعالى. نعم، إن ذكر الوجدان له بشعور، ومرافقة اللطائف له كل آن، وكون اللسان ترجماناً لهذا الانسجام الجاذب زادٌ لا ينفد وذخيرةٌ مباركة طيبة لسالك الخلود.

نعم، إن ذكر الله لهو سياحة رائعة في عروج القربة، بحيث ما إن يبـــدأ اللسان والشعور والقلب بذكر الله معاً، يجد الإنسان نفسه في لحظة واحدة أنه في مصعد ذي أسرار يصل به إلى إقليم تُحلّق فيه الأرواح، فيشاهد مـــا يشاهد من فرجات أبواب السماء ما يخص الغيوب والماوراء.

ليس لذكر الله وقت معين. فالصلاة التي هي سيدة العبـــادات وعمـــاد سفينة الدين تقام في أوقات مخصصة، وأوقات أخرى لا تجوز فيها الـــصلاة. أما ذكر الله فله الحرية المطلقة في السير في أجزاء الزمان، وليس مقيداً بـــأي حال من الأحوال، كما هو مضمون الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا

١) (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ فِي الأَرْضِ اللّٰهُ اللّٰهُ). مسلم، الإيمان ٢٣٤.

وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:١٩١) فليس له حدّ لا زماناً ولا حالاً.

لا أتذكر في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح أمراً أكثر ترغيباً وحثاً من الذكر. وفي الحقيقة أن الذكر بمثابة الروح والدم في جميع العبادات، من الصلاة إلى الجهاد. إلاّ أن ذكر كل شخص هو حسب تأثير ما يذكر على مشاعره، وهذا ما يطلق عليه الصوفيون بـ "المشاهدة" أو "سكينة القلب". فبعضهم يصل إلى الله في قلبه بذكره له بطريق ذي أسرار. وبعضهم يدركونه سبحانه في وجدانهم "كنزاً" ويكونون دائماً في المعية الإلهية بما في أعماقهم من نقطة استناد واستمداد. فالذين هم في هذا المستوى، كل ذكر جديد هو جهالة، لأنه وسيلة للانقطاع. ولعل العبارة الآتية تعبير عن الذين هم في هذا المستوى من الفهم:

اَللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَذْكُرُهُ   وَكَيْفَ أَذْكُرُهُ إِذْ لَسْتُ أَنْسَاهُ[1]

اللّهم اجعلني لك ذكّاراً لك شكّاراً لك رهّابا

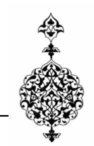
لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أوّاهاً منيباً.

وصل اللهم على سيدنا محمد الذكّار

وعلى آله وصحبه المخبتين المنيبين.

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٣١/٦.

الإحسان



الإحسان لغةً على ضربين: الأول: "أحسَنه" أي أجاد صنعه، أتقنه، عاملَ بشعور الإحسان، استهدف الكمال.. والآخر: "أحسن إليه" أي أنعم عليه، فعل ما هو خير للآخرين. فكلا المعنيين أُخذا بنظر الاعتبار في القرآن الكريم والسنة الشريفة. فأشار في مواضع إلى أحدهما وفي أخرى إلى المعنيين معاً. وقد أشير إلى هذا لدى ذكرنا لشعور الإحسان لسيدنا يوسف على نبينا وعليه السلام.

والإحسان لدى أهل الحقيقة، عمل قلبي يمثّل بالقيام بالتروّي والتفكير الصائب بحساسية دقيقة خارقة وفق مقاييس الحق، والتخطيط لأمور حسنة جيدة، والتمسك بأمور جيدة وحسنة... وكل ما يتعلق بالعبودية من سلوك وطور، مستشعراً عرضه على الله سبحانه.

ولأجل الوصول إلى الإحسان يُشترط بناء الشعور والتفكير والتصور على إيمان صحيح، وترسيخ حقيقة الإيمان بأسس الإسلام، وصبغها بصبغة ربانية بمقاييس القلب الكريمة السديدة. أما الشعور بضرورة الإحسان إلى الآخرين وإلى أي شيء أخر، فهو طور طبيعي للقلب الذي تكامل بمراقبة الحق سبحانه.

نعم، إنه بحسب حقيقة أن الإحْسَانَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)،[1] هو عمل كل شيء متقناً، ومن دون قصور أو نقص حيث إنه سيُعرض على أنظار "الشاهد الأزلي"، إيماناً واستشعاراً بأبعاد الإرادة والحس والشعور واللطيفة الربانية. فهذا هو الأساس والقاعدة والأفق الذي لا بد من بلوغه لدى أرباب الحقيقة.

أما الإحسان للآخرين شعوراً وفكراً وسلوكاً، فهو ظهور شعور الإحسان المتكامل في روح الإنسان وفيضانه وانتشاره وهو نتيجة طبيعية للشق الأول وهو تعبير الوجدان المنظم وفق الإحسان لما نظم لأجله. فهذا المعنى، أي جهة الإحسان المتوجه إلى الناس، دستوره (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه)[2] وبُعدُه الكوني الشامل لجميع المخلوقات هو (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ).[3]

إن شعور الإحسان بمثابة مفتاح سري لفتح دائرة صالحة. فالذي يفتح ذلك الباب ويدخل إلى ذلك الممر المنير كأنه قد صعد السلّم السيار، فيجد نفسه في عروج علوي ساحر. وفضلاً عن هذه الحظوة، إذا ما أعطى إرادته حقها واستمر في سيره فإنه يصعد في كل خطوة مرتبتين معاً. واعتقد أن البيان الإلهي ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) يذكّر بهذا.

---

١) البخاري، الإيمان ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

٢) أنظر: البخاري، الإيمان ٧؛ مسلم، الإيمان ٧١.

٣) مسلم، الصيد ٥٧؛ الترمذي، الديات ١٤؛ أبو داود، الأضاحي ١١١.

فقد قرأ سيدنا الصادق المصدّق ﷺ (هَلْ جَزَاء الإحْسَانِ إِلاّ الإحْسَانُ) ثم قال: هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاءُ من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة).[1]

إن شعور الإحسان كالسحب المثقلة بالأمطار، فما أن تحيط بأقطار تلال القلب، إلاّ وتنـزل الألطاف الإلهية غدقاً. فيجد الإنسان نفسه في دائرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦)، ويعيش متذوقاً لذائذ كونه إنساناً. وفي هذا الموضوع، واردات إلهية آتية من منبع الفضل واللطف، تتجاوز واردات العمل والسلوك وتترتب على النيات الخالصة للقلوب. وهذا يفوق تصورنا وتفكيرنا أيضاً.

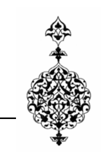
إن أصدق وسيلة توصل الانسان إلى الحق سبحانه هي القلب، وأعظم عمل قلبي هو الإحسان. فالإحسان أسلم طريق للتوجه إلى ربوع الإخلاص، وأصوب واسطة للوصول إلى روابي الرضوان، وهو شعور التمكين تجاه الشاهد الأزلي. فيشدّ الرحال إليه سبحانه يومياً مئات الألوف من المجهّزين بالإيمان المجنّحين بالعمل، الغارقين في التقوى. ولكن قد لا يصل إلى تلك الذروة إلاّ بضعٌ منهم أو لا يصل أحد. فالذين لم يصلوا إليها عليهم أن يستمرّوا في كدّهم. والذين وصلوها يدركون قبح ما لا يحبه الله، ويحسون به وينغلقون دونه، ويستشعرون أيضاً ما يستحسنه الله سبحانه فيكون جزءاً ضرورياً لفطرهم، ويتكاملون معه، فيستنشقون "المعروف".

---

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٢/١؛ المسند للديلمي ٣٣٧/٤،؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٧٩/٤.(٤٨٠/٧)

اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللّهم اقسِم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، وصل وسلم على سيدنا سيد المحسنين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

البصيرة والفراسة



البصيرة تقابل في كتب اللغة والقواميس: الإدراك، الفطنة، الدليل، الشاهد، وفي كتب التعريفات والمصطلحات: انفتاح عين القلب، سعة الإدراك، استشفاف النتيجة ورؤيتها من البداية، مَلَكة تقييم الأيام الآتية مع اليوم المعاش.

وتكسب البصيرة لدى محاورة أرباب القلوب إحاطة وعمقاً آخر، كالآتي:

البصيرة منبع العرفان الوحيد في دلالة الإلهام والتفكير، وهي المرتبة الأولى لإدراك الروح كُنه الأشياء، فهي شعور وجداني يشخّص ويرى القيم الروحية في المواضع التي يتعسر على العقل تجاوزها لتعلقه باللون والشكل والمظاهر والكيفيات. فهي إدراك منوّر بالتجليات الإلهية، المكتحل بإثمد ضياء الأنس للذات الإلهية، ففي الوقت الذي تتعثر الإدراكات وتسرح هائمة مرهقة في وديان الخيالات، في هذا الوقت يختلي هو بأسرار ما وراء الأشياء مستغنياً عن الدليل والشاهد ويجول في المواضع التي يحار فيها العقل، فيبلغ حقيقة الحقائق.

البصر، صفة نورانية من صفات الله الجليلة، وبصيرة كل مستعد حسب حصته من هذه الصفة الإلهية وفق ميزان ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ (الزخرف:٣٢)

وإن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات له أعظم حصة في مثل هذا التجلي القَدَري، والأكثر استفادة من هذا النبع اللاهوتي والأكثر ارتواء منه، ومن ثم فهو الذي أفرغ إلهامات روحه في صدور الجموع الحاشدة خلفه، وهو المرآة المجلوّة الوحيدة لتجليات الحق سبحانه، فلا شبيه له في هذا ولا مثيل. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(يوسف:١٠٨) بيان يشير إلى مدى خصوصية وعظمة استفادة سلطان الأنبياء ﷺ والتابعين له من هذه الموهبة والواردات الإلهية.

وبفضل هذا الإدراك النوراني، فإن المسافر الميمون إلى المعراج رأى في نَفَس واحد ما وراء ستار الوجود -الذي هو "عماء" للمحرومين من الإدراك- وجال فيه وطالعه كتاباً مفتوحاً أمامه.. وساح في ربوع الغيب حيث اللوحات المثالية لأركان الإيمان.. وخشع لصريف أقلام القدر الذي تنخلع له القلوب من الصدور.. ومرّ على خباءات الحور ومراتع الغلمان.. واستُقبل بحفاوة عند ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩) في النقطة التي تتناغم فيها مشاعر "لا مكان ولا آن ولا أرض ولا سماء".. ووُدّع محمّلاً بالهدايا والعطايا.

وأحياناً يبلغ ما في البصيرة من ذوق المشاهدة إلى عمق آخر مع الفراسة، بحيث إن الإدراك ينتبه ويتيقظ إلى "تأويل الأحاديث" (أي النفوذ إلى الجوانب الملكوتية للأشياء واكتناه الأحداث)، ويحيا الروح في هذا المكان ذي الأبعاد الثلاثة، ببضعة أبعاد معاً. وإذا بالوجدان يصبح عينَ الوجود الباصرة، ونبضَه الخافق، وعقلَه المكتنه.

أما الفراسة التي ترد بمعنى الحدس والإدراك، فهي تعـــني تحـــول الإدراك إذعاناً والبصيرة أكثر عمقاً. فالعيون ذات البصيرة المفتوحة على تجليات نور الحق سبحانه، هي لذوي الوجوه المقمرة الذين لا ينخدعون بالظلال ويرون بنور البصيرة بجلاء تام حـــتى في أشـــد الأمكنـــة عتامـــة.. ويتجـــاوزون الالتباسات.. دون أن يتعلقوا بالمتشابهات قطعاً.. ولا تأسرهم الجزئيـــات، فيدركون حالاً ويشاهدون السكّر في قصبه، والأوكسجين والهيدروجين في روح الماء. ولا تجول قلوبهم إلاّ في إقليم "الفرق".

إن كل نقطة من سيماء الإنسان وفي وجه الكائنات، وكل كلمة، وكل سطر، لفظ مترع بالمعاني البليغة الكثيرة، بل هو كتاب مفتوح للذين يجولون في ظل قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ).[1] وبـــسرّ الحـــديث الشريف (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)[2] فـــإن ذوي المنـــــزلة الرفيعة قد تربعوا في نقطة ترصّد يشاهدون منها أقطار الوجود ويتعاملون مع حقيقة الأشياء، فيطّلعون على الوجه الحقيقي للوجود بمـــا وراء الأســـتار، وينشرون النور على الأحداث مكتنهين الوجه الحقيقي لكل شيء فيبرزونـــه للعيان، ويسعون في ربوع فردوسية من لذة إلى أخرى، وأنف الذين يقضون حياتهم حول الثقوب السوداء راغم.

فالوجود، في نظر الروح التي لا تفتح عينها ولا تغمضها إلاّ بالفراســـة، صفحات متوالية من كتاب. وجميع الأشياء، الحية منها وغير الحية كلمـــات

---

١) **المتوسم**: هو الذي يعرف الوسم (العلامة) وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاســـتدلال والعلامـــات (القشيري). (سورة الحجر:٧٥)

٢) الترمذي، تفسير سورة الحجر.

مشعة بألف معنى ومعنى. وإن وجه الوجود وسيماء الإنسان بيان واضح لا يخدع. فرجال القلوب يبصرون بما لا تقدر على رؤيته كل عين، ويسمعون بما لا تسمع به كل أذن من الآيات التكوينية لذلك الكتاب، ومن جملها التي تبرق بالنور، حتى أن أعظم الأدمغة تعجز عن تصوره. ففي كل لحظة يشعرون بالعجائب ويحدسون توقعاتها - كل مؤمن حسب درجته - ويتلذذون بها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

اللّهم إنّا نسألك قلوباً أوّاهة مخبتة منيبة في سبيلك، وصلّ وسلم على سيدنا محمد مرشد سبيلك وعلى آله وصحبه أجمعين.

السكينة والطمأنينة أو الاطمئنان

السكينة مشتقة من جذر السكون، وهي: الوقار، الجدية، المهابة، الأنس، أو سكون الأمواج. فهي ضد الطيش والقلق والتردد والاضطراب. ولدى أرباب التصوف هي استقرار القلب بالواردات الغيبية. فمثل هذا القلب في دقة وحيطة دائمين، ويتطلع إلى المابعد، وهو منفتح للنفحات اللاهوتية، ويجول دائماً حول الاطمئنان. فهذا المقام، في الوقت نفسه، بداية مرتبة "علم اليقين". وعلى هذا كثيراً ما تختلط واردات ترد بطريق العلم بما اقتنصته البصيرة، فيتضبب مؤقتاً أفق المشاهدة. وقد يتولد بعض الالتباسات من هذا.

والسكينة تظهر أحياناً بشكل إشارات وأمارات خفية، بين الحدس وعدمه، وأحياناً تظهر بتجليات واضحة إلى حد يعرفها حتى أمثالنا من العوام. والسكينة وما يرافقها من إشارات وأمارات، سواء كانت كهمس في إذن الوجدان بنسيم معنوي كنفحة إلهية، التي لا تحدس إلاّ بدقة متناهية، أو بشكل جسم يظهر الخوارق يراه الجميع، مثلما أُحسن إلى بني إسرائيل – ويمكن أن نتذكر أموراً ملفعة أخرى كما رآها أسيد بن الحضير ﵁ لدى تلاوته القرآن، وآخرون في أوضاع أخرى – فإنها ترفع قوانا المعنوية وتعلو بها وتزيد من قوة إرادتنا، فهي في كل وقت تأييد إلهي، ومدار شكران

وشوق للذين يدركون عجزهم وفقرهم ويستشعرون بحاجاتهم، كما توضحه الآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح:٤). فالمؤمن المحظوظ بهذا التأييد لا يضطرب ولا يقلق من خوف دنيوي أو حزن وكمد، كما أنه يصل إلى طمأنينة متوازنة في الداخل والخارج.

فالذي نال هذه السكينة فهو رجل موازنة وطمأنينة، وقورٌ في سلوكه، يوحي بالأمان والصدق والجدية. وفي عالمه الداخلي في حذر وتيقظ دائم، وفي علاقته مع الله مدقق بعيد عن الأنانية والشطحات، قد سدّ الأبواب تماماً في وجه هذيانات البكتاشية. إنه يدرك أن كل نفحة وكل وارد يورث الانشراح فهو منه تعالى، فيخشع ويخبت في أدب جم. ويعزو كل قلق واضطراب إلى ما في ماهيته من ثغرات. فيحاسب نفسه، بل يتحاسب معها دوماً.

وقد عُرّف الاطمئنان والطمأنينة، بالسكون التام والاستقرار التام وانتهاء المد والجزر في حياة القلب وعدم اضطرابه وقلقه. وهذا يبين أن الاطمئنان حالٌ فوق السكينة. فلئن كانت السكينة بداية الانتباه إلى الحقيقة والتخلص من المعلومات النظرية، فالطمأنينة نقطة النهاية.

إن ما يبينه أرباب التصوف من درجات "الراضية" و"المرضية" فوق الطمأنينة، هما بُعدان يخصان الاطمئنان للأبرار، وعمقان لسماء "الرضا". أما "الملهَمة" و"الزكية" فمرتبتان تخصان المقرّبين، تستعصيان على الفهم، وواردهما، وكذا بشاراتهما كثيرة جداً ورائقة جداً.

هذا وفي الأرواح التي نالت السكينة يمكن أن تُظهِر تيارات مخالفة نفسَها في بعض المواضع. ولكن في الطمأنينة، فكل شيء يجري على ما يرام. فالقلب كالبوصلة يؤشر دائماً إلى مرضيات الحق سبحانه، ولا تحيد إبرة الوجدان قيد أنملة عنها، فهذه مرتبة من مراتب "اليقين" بحيث إن الروح السائحة في هذه المرتبة تكون شاهدة في كل موضع على حقيقة أخرى من حقائق ﴿وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠)، وتُكرَّم بواردات جديدة في كل منزل. وتحسّ في كل مكان تجول فيه بنفحات ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)، وتشعر بـ ﴿أَلاّ تَخَافُوا وَلاتَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣٠) وتتذوق بكوثر ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).. فتحيا دائماً بحياة أسمى بكثير من طبيعتها وجسمانيتها.

الطمأنينة هي عنوان موقع الإنسان فوق الأسباب وما بعد الوسائل. إذ العقل ينهي في هذه المرتبة سياحته فوق الطبيعة.. والروح تتخلص من قلق الدنيا حين بلوغها هذه المرتبة.. والحس يجد كل ما يبتغيه في هذا المنزل الساحر فيتحول بحراً بعد أن كان قطرة.

إن أُنس مَن كسب هذه المرتبة هو "الأنس بالله" وشوقَه هو "الشوق إلى الله" وبقاءه هو "البقاء بالله" وكلامه هو "مع الله".[1] فهو يصل من الكوة التي فُتحت له، مع محدوديته، إلى بصر بلا حدود، وسمع بلا حدود، وقدرة

---

١) العبارات هنا تعني على التوالي: "إدراك أثر الجمال الإلهي في القلب"، "رضا الله الذي يفوح دائما في القلب"، "العلم بأن الوجود قائم بوجود الحق سبحانه"، و"الكلام آت من كلامه سبحانه".

بلا حدود، بحيث يستطيع أن ينجو بنَفَس واحد من دوامة الحوادث المحـــيرة المختلطة والمتداخلة جداً، ويتخلص منها.

فمثلما ينجو مثل هذا الروح من الاضطرابات والقلق الدنيوي، يبتـــسم بوجه الموت الذي يرتجف منه الناس جميعاً.. ويهش بما بعده من الحـــواجز والعوائق، وذلك بفضل تكرمة ﴿ارْجِعِي إِلَـــى رَبِّـــكِ رَاضِـــيَةً مَرْضِـــيَّةً﴾ (الفجر:٢٨).. ويرى الموت أطيب نتيجة للوجود، وأكثر ما يُغـــبَط عليـــه.. ويسمع في كل منـــزل بعد الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت الأمـــر الإلهـــي: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ كما سُمع من قبر ابـــن عبـــاس ﷺ.. ويُمضي حياة القبر على ربوع الجنة.. ويـــشعر بالمحـــشر موضـــعَ حـــيرة وإعجاب.. ويحيا بنشوة المخافة والمهابة عند الميزان، عـــابراً الـــصراط دون حيدة، فيبلغ الجنة التي هي دار قرار من بلغ في روحه درجة الاطمئنان.

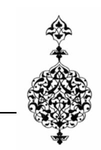
فالدنيا لمثل هذا الروح أشبه ما يكون بوقفة عرفة لمن شدّ الرحـــال إلى "العفو والغفران"، والزمان الذي فيها هو يوم عرفة للعيد العظيم. أما العقبى فهي عيد الأعياد.

رَبنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد النبي المختار

وعلى آله وأصحابه الأخيار.

القرب والبعد



القرب لدى الصوفيين: تقرّب الإنسان إلى الله سبحانه بتخطيه قيود الجسمانية متحولاً إلى الماورائية. ورغم أن هناك من فهموا القرب أنه قرب الله لعباده، إلاّ أنه لا يُستحسن وغير لائق، لما فيه من إشمام لمعاني إضافة المكان والمسافة إليه تعالى. مع أن قرب الحق تعالى لعباده هو فوق "الكينونة" و"الصيرورة". فالقرب الحاصل بعد أن لم يكن موجوداً، هو من خصائص الذين أُوجِدوا بعدئذ (أي بعد الخلق) والذين يقضون وجودهم في تكونات متنوعة. هذان القربان يبيّنه الكلام النوراني الوجيز في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤). فمثل هذا القرب ليس هو القرب الخاص الذي يحصل بالإيمان والعمل الصالح، بل هو قربية عمومية تضم تحت أجنحتها كل شيء، من الذرات إلى المجرات؛ السعيد والشقي، والطيب والخبيث، والصالح والطالح، والأحياء والأموات.

نعم، إن القرب العمومي الذي يضم كل الناس تحت مظلته، يقابله القرب الخصوصي الذي يستند إلى الإيمان ويتحقق بمعايشة واتباع أحسن ما أمر الله سبحانه به. وهذا يحصل للمحظوظين الذين وجدوا طريق القرب ودخلوا الرواق المؤدي إلى الخلود، فيُصبحون ويُمسون بعمق جديد يومياً ويجولون في أفق ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

(النحل:١٢٨). فالذين حازوا هذه المرتبة يتنفسون القربة، إذ يقولون عند شهيقهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢) وعند زفيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠).

إن ما في القرب الخصوصي من شعور الإيمان وحقيقة الإحسان، كالنور في البصر، والروح في الجسد. أما أداء الفرائض والنوافل بالاستناد إلى هذين الأساسين فهو بمثابة جناحين شرعا إلى سماء اللامتناهي. نعم، إن أسلم طريق يقرّب الإنسان إلى الله سبحانه وأقصره وأكثره قبولاً هو طريق أداء الفرائض. أما المحبوبية الحقيقية وبدورها القربة، فإنما تتحقق في إقليم النوافل اللامتناهي الذي يفوح بالوفاء. إذ يجد سالك الحق نفسه كل آن تحت جناح نافلة أخرى في رواق جديد ممتد إلى الخلود، ويستشعر أنه بلغ حظوة جديدة، فيصل إلى حالة أكثر شهية لأداء الفرائض وأكثر شوقاً نحو النوافل.

فكل من تنبهت روحه إلى هذه النقطة وانتهى إلى هذا المعنى، يشعر في وجدانه أنه محبوب عند الله، بمدى حبّه لله، وإذا بسمعه وبصره وبطشه ومشيه يجري في دائرة "المشيئة الخاصة" مباشرة، كما ورد في حديث قدسي.

وبتعبير آخر: إن "القربة" بالفرائض عنوان آخر لبلوغ الإنسان مقام المحبوبية، ووجوده بين أحبّاء الله المرضيين عنهم. أما "القربة" بالنوافل، فهي مقام إضافة حركات الإنسان وسلوكه إلى ذات الحق سبحانه، فهو مقام تكريم وتشريف خاص لكل أحد في ظل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال:١٧).

وإن إيضاح القربة التي هي توجّه خاص، بأفعال الإنسان وسلوكه متغاضياً

عن نقطة التوجه خطأ كذلك. فالقرب شأن من شؤون سموّه وعلـوّه تعـالى، وبُعدٌ من أبعاد رحمته الواسعة. أما البُعد فهو يخصنا وثغرة في ماهيتنا. وما أجمل ما يشير صاحب كلستان إليه: القرب لمن والبعد لمن ؟

دُوسْت نَزْدِيكْتَر اَزْ مَنْ بَمَنْ استْ

وِينْ عَجَبْتَر كِه مَن اَزْ وَيْ دُورَم

چِكُنَم بَا كِه تَوَان گُفْت كِه اُو

دَر كَنَارِ مَن وُ مَن مَهْجُورَم

أي: "الحبيب أقرب إليّ مني، والعجب أني بعيد عنه، فما حيلتي ومـاذا يمكنني أن أقول: فالحبيب معي وبجنبي، ولكني بعيد عنه".

البُعد، يعني التنائي والهلاك، والمتصوفون يرون أنه: انقطاع فيوضات الحق سبحانه والابتعاد عن الله من حيث المبدأ، وخذلان وحرمان مـن حيـث النتيجة إن لم تكن هناك عناية خاصة. وأكّدوا أنه ينبغي الاقشعرار والرعدة منه.

وكما أن للقرب درجات حسب عوام المؤمنين، والأولياء، والأصـفياء، والأبرار، والمقربين، فالبُعد كذلك فيه دركات، والدرك الذي هو الهـلاك المطلق يشغله الشيطان.

القرب توجّه والبعد حرمان، فهذا شيء أما الحدس بهما فهو شيءٌ آخر. وأحياناً عدم الشعور بالإكرام هو أعظم إكرام، فلا يدرك أقـرب المقـربين مدى قربيته. وأحياناً يكون المكر تاماً فلا تُحدس ظلمات البُعد، وأحيانـاً

يتغلب حال السُكر فلا يميَّز القرب من البعد. ولهذا لا يشاهد في أمثال هؤلاء شوقٌ إلى القرب ولا خشيةٌ من البعد. و يعبّر "جامي" عـــن فكـــر الأرواح النشاوى الثملة.

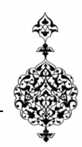
جَامِي مَكُنْ اَنْدِيشَه نَزْدِيكِي وَدُورِي

لاَ قُرْبَ وَلاَ بُعْدَ وَلاَ وَصْلَ وَلاَ بَيْنَ

أي: "لا تقع في قلق البعد والقرب يا جامي! فليس في الحقيقة بعـــدٌ ولا قربٌ ولا وصال ولا افتراق".

إنه من المسلّم به أن للبعد والحرمان رِعْدةً تعتري المبعدين والمحـــرومين، ولكن هناك أصحاب أرواح يرتعشون أمام مهابة نفحات القرب ارتعاشـــاً حتى يحسبون أنفسهم — في تلك الحالة الروحية — أنهم في قبـــضة القهـــر والتدمير. وقد قيل بهذا المعنى: " قرب السلطان نار تحرق". ومع كل هذا إذا شُبّه القرب بربوع الجنة المتفتحة للنفحات الإلهية ونسمات الأنس، يكـــون البُعد وديـــاناً للحرمان والخـــذلان.

اللّهم إني أسالك رضاك وما قرّب إليه من قول وعمل. وصلّ وسلّم على سيدنا محمد سيد المقرّبين وعلى آله وأصحابه المخلَصين.



المعرفة

المعرفة هي علم خاص، تلك التي لا يطيقها كل شخص، ولا تظهر في كل شخص، ولا في كل مكان. أما لدى سالكي الحق فهي مرتبة توحّد المعرفة بالعارف حتى تكون طبيعة عنده. فتكون حالاتُه كلها ترجماناً للمعروف. وقد عرّفها آخرون أنها ظهور المعارف الوجدانية وانبساطها بحيث إن مثل هذا الظهور والانبساط في الوقت نفسه هو ظهور الإنسان بقيمه الذاتية وانبساطها. ولعل هذا هو مما يفهم من القول: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".(١)

إن أولى مراتب المعرفة هي رؤية تجليات الأسماء الحسنى المحيطة بنا إحاطة تامة وحدسها، ومشاهدة إقليم الصفات الجليلة المثير للإعجاب، فيما وراء انفراج أبواب الأسرار بهذه التجليات.

ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه، ويشرع قلبُه بالهيمنة على سلوكه، ويغدو سلوكه وأطواره لساناً ناطقاً بتصديق الحق سبحانه والإعلان عنه، حتى يتحول هذا اللسان كقرص مرن للـ"الكلمة الطيبة".. وإذا بأنواع من أنوار مشعة تنعكس كل آن عن شاشة

---

١) كشف الخفاء للعجلوني ٢/٣٤٣.

الوجدان من الحقيقة المنوّرة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠). وهكذا مثل هذا الروح يصدّ أبوابه في وجه العواطف والمشاعر الرذيلة جميعها، ووجدانٌ كهذا يتسربل برَوح نسيم الماوراء. ومن منفذ سري تنفتح إلى روحه أبواب أروقة من نورٍ تؤدي إلى مَن عُرفَ "كنزاً" الذي عبّر عنه الشاعر:

قال الحق: لا يسعني السماء والأرض

منْجَم القلب عرفه "كنزاً"

مستلهما مما جاء في حديث متشابه (ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).[1] فيجد الإنسان نفسه في لذةِ مشاهدةٍ لا يرد على فكره الفراق ولا الرجوع عنها قطعاً.

ولما يصدّ السالك عن الأغيار ويدخل في حالة توجس وحذر مع النفسانية ويلقي بنفسه في مدّ الحضور والطمأنينة وجزره، هذه النقطة هي نقطة المعرفة. فالذي يحوم حول هذه النقطة دائماً يطلق عليه "سالك العرفان" ويسمى من بلغ إلى هذه النقطة بـ "العارف".

فكما أن الأقوال المختلفة التي ذكرت حول المعرفة نابعة من اختلاف الاستعدادات والمشارب، كذلك يمكن أن تكون ذات علاقة باختلاف المستويات.. فلقد بحث بعضهم عن المعرفة في مواضع التجلي فحسب. وظن

---

١) انظر: الزهد للامام أحمد ٨١؛ إحياء علوم الدين للغزالي ١٥/٣؛ المسند للديلمي ١٧٤/٣. كشف الخفاء للعجلوني ٢٥٥/٢، ٤٣١.

آخرون أن حس الهيبة في العارف هو من تظاهر المعرفة... وآخرون ربطوا بين المعرفة والسكينة وقضوا بعمق الأولى حسب سعة الثانية.. وآخرون فهموها بأنها انغلاق القلب كلياً عما سواه تعالى. وآخرون رأوها حيرة القلب وإعجابه في ثنايا مدّ التجليات الإلهية وجزرها... بحيث إن أمثال هؤلاء - بمقتضى المقام الذي هم فيه - تنبض قلوبهم بالحيرة وتدور أبصارهم بالإعجاب والاستحسان وتنطلق ألسنتهم بـ (لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)[1] فيتنفسون الإعجاب والتقدير والاستحسان في الظهور والتجليات.

الحياة في إقليم المعرفة، نزيهة وهادئة، وكأنها بساتين الجنة. إذ الروح في طيران دائم والوجدان قد وصل إلى لذة الاطمئنان فينتشي نشوة الطفل ولكن في حذر وتدبير. فيُصبح ويمسي بـ ﴿لايَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) في سباق حامٍ مع الملائكة. إن مشاعر هذه الأرواح تتفتح تفتح البراعم على المعرفة كأنهم يسيحون عدة مرات في اليوم في ربوع جمعة الجنة. إذ يتفتحون ورقة إثر أخرى كانفتاح البراعم، ويواجهون الحبيب كل آن في بُعد آخر. فيتذوقون لذة الوصال والمعية. فهم ثملون بنشوة الوصال والغياب عن النفس كل يوم، وربما كل ساعة مرات ومرات، طالما عيونهم ترقب فرجات باب الحق سبحانه.

دع أدعياء العلم بعلمهم يَحْبون، والمتفلسفون بحكمتهم يتمتمون، فإن العارف يترشف الحضور والطمأنية ويترنم السكينة في منشور من نور. وحتى

---

١) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ ابو داود، الصلاة ١٤٨.

حينما يهتز بالمخافة والمهابة، يتذوق لذة خالدة وكأن قلبه يـــضحك فيمـــا تهطل عيناه بالدموع.

بجانب هذه المزايا المشتركة لدى العارفين، نلمح بعض التمايزات النابعة من اختلاف الأمزجة والمشارب. فبعضهم عنـــدما يـــذكّرون بالـــدوامات بهدوئهم وغور عمقهم، يدوّي الآخرون كالشلالات، وآخرون يخرجون من الدنيا ولم يقضوا وطرهم من بكاء وآهات على ما قدّموا وأخّروا من أثوبـــة وآثام ومن الثناء على ربهم الجليل. وبعضهم يجولون في مجال الهيبة والحيـــاء والأُنس، ولا يفكرون بفراق البحر وبلوغ ساحله. وآخـــرون كـــالأرض يطؤهم كل غاد ورائح. وآخرون كالسحاب يظلل كل شيء، البر والفاجر، وينـــزلون عليهم قطرات الرحمة. وآخرون كالهواء يهبّون علـــى مـــشاعرنا بألف عطر وعطر.

إن أهل المعرفة لهم أمارات تخصهم، فالعارف لا يرجو توجهاً من غـــير المعروف سبحانه ولا يختلي بغيره تعالى. ولا يرفع أجفانه ولا أبـــواب قلبـــه لغيره تعالى، فأقسى عذاب لدى العارف الحـــق، توجهـــه إلى الآخـــرين، والاختلاء بغيره تعالى، ودخول طيف الغير إلى عينه. فمن لم يبلغ المعرفة وفق هذا المقياس لا يتمكن من التمييز بين الأغيار والأحباب. ومـــن لم يـــذق الوصال مع الحبيب لا يعرف العذاب في الهجران.

لننه هذا الفصل بالآتي:

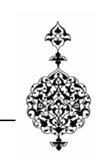
نور العرفان يشع من عيون قلب العارف

عون الله، وســـر المعارف رفيق العارف م. لطفي

اللّهم كن لنا ولا تكن علينا وأعنّا ولا تعن علينا،

وصلّ اللّهم على سيدنا محمد المبعوث فينا وعلى آله وصحبه الكرام البررة.

المحبة



المحبة هي الحب، علاقة قلبية، هيام بأي شيء أو بأي شخص. والـــذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان هو العشق. والوصول إلى أبعـــاد عميقـــة بالاحتراق رغبةً في الوصال، هو الشوق والاشتياق. وعُرّفت المحبة أيضاً بأنها علاقة القلب بالمحبوب الحقيقي.. وشدة الاشتياق له بما لا يمكن مقاومتـــه، والانصياع التام له في كل مسألة من المسائل خفية كانت أو جلية.. ومراقبة مراد المحبوب فيما يريد وغياب المحب عن نفسه حتى أعتاب الوصال. ويمكن إرجاع كل ما ذكر إلى نقطة واحدة وهي: الامتثال لدى الحضور الإلهـــي، والتجرد عن جميع الهموم والعلائق الفانية، مردداً: يا حق.

والمحبة الحقيقية إنما تتحقق بتوجه الإنسان بكيانه كله إلى المحبوب سبحانه والبقاء معه، وإدراكه له وانسلاخه من جميع الرغبات الأخرى ومن جميـــع الطلبات، بحيث إن قلب البطل الذي ظفر بهذه الحظـــوة ينـــبض كـــل آن بملاحظة جديدة تخص الحبيب.. وخياله يجول في إقليمه الساحر.. ومشاعره تتلقى كل لحظة رسائل متنوعة منه.. وإرادته تحلّق بهذه الرســـائل.. وفؤاده يسرح في متنـــزهات الوصال.

فالمحب الذي اخترق أجواء نفسه بأجنحة المحبة ووصل إلى ربه في بُعـــد العشق والشوق لدى أدائه لحقوق سلطان قلبه ومسؤولياته نحوه، بأعـــضائه

الظاهرة ومشاعره الباطنة، فإن قلبه منشغل به دون انقطاع وهويته محترقة بسبحات وجه الحق[1] وفي حيرة وإعجاب، وعلى شفتيه كأس العشق.. وعندما تنفرج أمامه أستار الغيب الواحد تلو الآخر ينتشي بمطالعة المعاني المترشحة من وراء هذه الأستار، وهو في ذوق المشاهدة التي لا تطال.

فإذا ما سار سار بأمر الحق سبحانه، وإذا ما وقف وقف بأمره، وإذا تكلم تكلم بنفحات منه، وإذا ما سكت سكت لأجله، فهو أحياناً في أفق "بالله" وأحياناً في أفق "من الله" وأحياناً في أفق "مع الله".

نعم، إذا نسبت المحبة إلى الحق سبحانه فهي إحسان، وإذا أسندت إلى الخلق فهي خضوع وطاعة وانقياد. وما تقوله رابعة العدوية له أهميته في إبراز هذه المعاني:

تَعْصِي ٱلْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَـذَا لَعَمْرِي فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[2]

هذا وللمحبة ركنان مهمان:

١. ظاهري، وهو تعقب رضا المحبوب كل حين.

٢. باطني، وهو الانغلاق التام تجاه ما لا علاقة له بمحبوبه في عالمه الداخلي.

فرجال الله يقصدون بالمحبة هذه الأخيرة، ويرون أن العلاقة إزاء اللذة

---

١) أي بتجلي نور العظمة.

٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٨٦/١.

والمنفعة بل حتى الأذواق المعنوية، ليست محبة، ولو أُطلق عليها هذا الاسم فهي محبة مجازية.

بيد أن المحبة الحقيقية أيضاً ليست على مستوى واحد لدى الجميع من حيث تعلقها بالمحبوب فهناك:

١. محبة العوام، وهي محبة تتردد بين الهبوط والصعود، فهؤلاء يرون رؤى الإحسان تحت ظل الحقيقة الأحمدية، ويشاهدون علامات تخص بزوغ فجر المعرفة.. وفي موضع آخر يرتعدون بشهب الغيوب ويشعرون برعشات الحيرة من بعيد.

٢. محبة الخواص: فهم كالعُقبان المحلّقة في أجواء عالم المحبة يثرون عمرهم دوماً بالعمق والخصب بامتثال الأخلاق المحمدية ﷺ في عالم القرآن المنور، من دون أن يطلبوا عوضاً، مادياً كان أو معنوياً، جسمياً كان أو روحياً، أثناء تمثلهم، بل لا يطلبون ذوقاً، وإذا تمكنوا من أداء واجبهم على أفضل وجه يخفضون أجنحة التواضع إلى الأرض كالأشجار المثقلة بالعناقيد ويئنون باسم "الحبيب". وإذا ما تزلزلوا بخطأ أو بخيبة وإخفاق يشددون الخناق على أنفسهم ويحاسبون أنفسهم أشد الحساب.

٣. خواص الخواص، فهم كالغيوم المحمّلة بالأمطار في السماء المحمدي.. بهذه المحبة يستشعرون الوجود، وبها يحيون، وبها يبصرون، وبها يتنفسون. في دور دائم لا نهاية له من الامتلاء والإفراغ، فإذا ما شحنوا بها شحنوا برغبات الشوق والمعاناة والوصال، ولدى الإفراغ يمتطون النور وينزلون على الأرض فيحتضنون بحنان الموجودات جميعها حيّها وميتها.

وعلى الرغم من اختلاف مستويات المحبة، فإن من توجّه إليه تعالى بعشق وشوق يقابَل ويكرَّم حسب مستوى علاقته.

فالأولون: يجدون في بابه سبحانه الرحمة والعناية الخاصة بهم.

والثواني: يصلون إلى أفق إدراك الصفات الجلالية والجمالية، وينجون من الثغرات البشرية وظلماتها.

والثوالث: يتنورون بنور وجوده سبحانه، وينتبهون إلى حقيقة الأشياء ويربطون علاقات مع ما وراء الأستار.

بمعنى أن الله سبحانه يتجلى أولاً بسبحات وجهه سبحانه، فيحرق ويهدم الصفات الجسمانية والظلمانية لمن يحبّهم، ومن ثم يأخذهم بأنواره الجمالية إلى دائرة صفاته الجليلة كالسمع والبصر، فيجعل القطرة بحراً والذرة شمساً. أي ينبههم إلى ما في نفوسهم وكيانهم من العجز والفقر، ويوصلهم إلى الإذعان بعدميتهم، ويملأ قلوبهم بأنوار وجود الذات الإلهية.

فالمحب الذي نال هذه الحظوة، يصل إلى حياة أبدية لا يمكن وصفها بالوجود والعدم. لذا قد يتمتم بما يستشعره ويتحدس به بكلمات مشوبة بالحلول والاتحاد، كالحديد المحمرّ بالنار يظن أنه نار فيقول: أنا النار، وهو ليس بنار. ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار

الحكم عليهم. وإلاّ سيُضمر العداء للكثيرين - من دون شعور - ممن نـــالوا المعية الإلهية، بمضمون الحديث الشريف (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[1] ويكون قد أعلن الحرب على الله وفق مضمون الحديث القدسي (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ).[2]

اللّهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

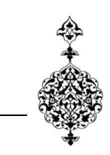
وصل وسلم على سيدنا محمد سيد المرشدين وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

١) الترمذي، الزهد ٥٠.

٢) البخاري، الرقاق ٣٨.

العشق



العشق هو محبة شديدة، صبابة وهيام، فرط المحبة الحاصلة من الكمال والجمال والمشاكلة، والذي أطلق عليه في الأغلب، العشق المجازي. وهناك محبة وعلاقة قلبية متوجهة نحو سلطان الأزل والأبد الذي جمالُه في نقطة الكمال وكمالُه في قطب الجمال وأطلق عليها العشق الحقيقي.

إن المحبة العميقة نحو الله سبحانه، أو "العشق الحقيقي" هو جناح من نور لأجل إيصالنا إليه وهو الذي قد منحه لنا. ويعبّر عنه أيضاً بتحول الروح فراشةً لأجل بلوغ "النور" الذي هو أساس الوجود.

العشق، سبب ركين للوجود وذو أسرار. ولأن الله سبحانه أراد وأحب أن تُعرَف ذاتُه الجليلة، وان الأرواحَ المتيقظة للحقيقة ستُدرك أسماءه وصفاته وذاته جل وعلا وتُظهر العلاقة العميقة نحوها خَلق المكوّنات.

وبينما العشق لدى الناس تضاعف المحبة والفناء في المحبوب، فهو لدى الخالق سبحانه محبة تليق بتنزّهه عن العجز وتقدسه عن الميول التي تخص المخلوقات، وتوافق استغناءه الذاتي، حتى يصح القول إن الخلق قد تحقق في أحضان تلك المحبة، وظهرت بها الإنسانية إلى حيّز الوجود، وجُهّزت القلوب بها حتى غدت أهم مركز للعلاقة مع الحق تعالى.

العشق، نقطة النهاية لخطوات الوصال، وليس أمام المحب البالغ إلى هذه النقطة إلاّ خطوة أو لا خطوة.. إن أول تجل للحق سبحانه هو هذه المحبة التي هي مقتضى ذاته الجليلة، والتي تسمو على كل محبة. واستعملُ هذا التعبير خاصة، تحرزاً من إسناد العشق إليه تعالى دون قيد أو شرط. وقد أطلق بعضهم على هذه المحبة الإلهية اسم "العلم" لأنه أول تنزّل لعالم الذات المطلقة المنزّهة من حيث التجلي. ويطلق على هذا التنزل، "العلم" من حيث إنه علم إلهي، و"العشق المنزّه" من حيث إنه محبة الرؤية والإراءة، و"اللوح" من زاوية إحاطته بالوجود كله، و"القلم" من حيث أخذه كل شيء مفصلاً.. وكذا "الجبروت" و"الحقيقة الأحمدية" عنوانان آخران لهذا العالم. والعشق المنزّه سرّ ذو علاقة مع الذات الإلهية؛ أما صفاها الأخرى، فهي مضافة إلى العشق. ولهذا فالذين يطيرون بأجنحة العشق يصلون مباشرة إلى الذات الإلهية الجليلة ويبلغون "الحيرة". أما الآخرون فهناك ضرورة المرور في برازخ الأشياء والأسماء.

إن طرق الوصول إلى الله سبحانه لا تعد ولا تحصى.. التصوف وعلوم الحقيقة، زاد في تلك الطرق للسالكين وذخيرهم ونورهم ودليلهم؛ وثكنات التصوف أروقة انتظار وموانئ مفتوحة للإبحار إلى الخلود، ومدارس تؤدي مهمة التعليم والتربية لهذا السفر الطويل.

يمكننا أن نعزو طرق الوصال هذه والتي هي بعدد أنفاس المخلوقات إلى طريقين رئيسيين:

١. الطريق الذي يلقن فيه سالك الحق: الرياضة، قلة الأكل، قلة

الشرب، قلة النوم، كثرة التفكر، تجنب الاختلاط الذي لا طائل وراءه، وما شابهها من انضباط السلوك والنظام. وإن كثيراً من أنظمة التصوف التي يسميها بعضهم "طرق برزخية" وبعضهم "طرق التصوف" قد أكملوا نهاية سلوكهم على هذه الأسس.

إن أهم ورد لسالكي هذا الطريق هو: "الأسماء السبعة" التي هي: "لا إله إلاّ الله، الله، هو، الحق، الحي، القيوم، القهار" وأمثالها من الأسماء الطيبة المباركة. ويُستهدف منه قطع الدرجات التي تعدّ مراتب للنفس، وهي: الأمارة، اللوامة، الملهمة، المطمئنة، الراضية، المرضية، الصافية، الزكية. وقد يضيف بعضهم على هذه الأسماء، أسماء جلالية؛ كـ"القدير، القوي، الجبار، المالك، الودود" وآخرون يضيفون أسماء جمالية كـ"الفرد، الواحد، الأحد، الصمد".

٢. الطريق الذي يتقيد بالكتاب والسنة بكل دقة وحساسية، والذي يحث على الأوراد والأذكار، فسالكو هذا الطريق يتحرّون السنة النبوية في كل مسألة، ويحاولون ربط كل عمل يقومون به بالسنة الشريفة. فبدلا من جعل أسماء حسنى مخصوصة ورداً لهم، يتحرّون عن أصول عبادة الرسول ﷺ دعاءً، وذكراً، وفكراً، فيذكرون الله بجميع أسمائه الحسنى. إن سالكي هذا الطريق علاوة على تتبعهم الدقيق جداً لأحكام الشريعة الغراء، بل لأدق دقائقها، يتمسكون بمرشدهم ودليلهم بقوة، ثم يطلقون أنفسهم عبر مدّ وجزر العشق والجذب. وفي الحقيقة أنه بعد ظهور العشق والجذب، يُمسح الوجود كلياً – بوجوهه المتوجهة إلى نفسه – من أمام عيونهم، فإذا بهم

يصلون إلى الفناء من حيث النفس والأنانية، فيدركون الوحدة ذوقاً وشهوداً. وفي هذه النقطة يتقابلون مرة أخرى مع التمكين ويكونون قد أتموا سلوكهم.

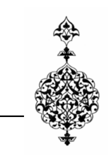
إن أهم الأسس في هذا الطريق؛ العبادة، العشق، الجذب، ذكر الله، الصحبة. والمقصود من ذكر الله هنا يضم المطالعة المشتركة والمذاكرة والتباحث، كما تُعلّمنا السنة الصحيحة بـ (يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ).[1]

والسالك الذي يحوم في الحدود النهائية للعشق الحقيقي، ربما يجد نفسه أحياناً -كما هو في الوجد والجذبة- في تيار الشوق والاشتياق. والذي هو بُعدٌ آخر للعشق.

اللّهم وفقنا إلى ما تحب وترضى، وصل وسلم على سيدنا محمد المرتضى وعلى آله وصحبه ذوي الوفاء.

---

١) مسلم، الذكر ١١.



الشوق والاشتياق

الشوق هو الرغبة الملحّة، الطلب الشديد، نشوة نابعة من المعرفة، سرور ومعاناة وتحسّر. ولدى الصوفية، نزوع القلب برغبة إلى محبوب لا يدرك ولا يحاط به كلياً، يشاهد ثم يغيب. وقال بعضهم: هو نشوة فرح واهتياج يضطرم في قلب العاشق لرؤية جمال المعشوق. وآخرون قالوا: جمرة تتوقد في قلب العاشق تبيد مما سوى الميل نحو المحبوب، جميع الخواطر، جميع الميول، جميع الأشواق جميع الرغبات، جميع الطلبات.

إن منشأ الشوق المحبة، ونتيجة المحبة الشوق. ودواء القلب المحترق بالشوق الوصال. والشوق جناح من نور في هذا الطريق. والعاشق حين بلوغه الوصال يسكن الشوق، بينما يزداد الاشتياق. ووجدان المشتاق يهتز بعد كل حظوة طلباً للمزيد.

فالإنسان الأفق والرسول القطب ﷺ الذي يدور بالعشق في أفق الشوق وبالشوق في قطب الاشتياق، في كل آن بمعرفة جديدة وبمحبة جديدة وبذوق روحاني جديد، يتوسل إليه تعالى في مجال الوصال أول ما يتوسل: (أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)[1] ويطلب المزيد.

---

١) النسائي، السهو ٦٢؛ المسند للامام أحمد ١٩١/٥.

وقد أورد بعض المفسرين في تفسيرهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) أن الشوق يُدرَك من وجه ولا يُدرَك من وجه آخر، وإلاّ فكما لا شوق إلى ما يحيط به الإدراك، كذلك لا شوق إلى ما لا يدرك كلياً. نعم، إن الإنسان لا يشتاق لمن لم يره، ولم يسمع صوته، ولم يطلع على أوصافه، كما لا يشعر باهتمام لما يحيط به ويدركه كلياً.

ويجري الشوق والاشتياق على شكلين وعلى صورتين:

١- الاشتياق الحاصل في أثناء الافتراق بعد مشاهدة المحبوب والوصال به. فأنين "ناي" مولانا وصرير "دولاب" يونس أمره ما هما إلاّ صراخ لما يشعران به من شوق نحو الوصال والمعيّة التي عرفاها في الميثاق منذ الأزل وهذا الصراخ يستمر إلى الموت الذي عدوه "ليلة الزفاف".

٢- العاشق المشتاق، يرى محبوبه وراء ستار، ولكن لا يحيط به، يحس به ولكن لا يدركه إدراكاً تاماً.. يغمس إصبعه بعسل العشق ولكن لا يُسمح له بخطوة أخرى، فينادي: "قطرة ماء.. ما زلت أتحرق".. وتحرّقه مطلوب، ولكن لا يؤبه بعويله..

الروح في مثل ذلك الزمن الذي يفوق الزمان، لدى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) قد شاهد المحبوب، ولكن بعد ذلك فبمقتضى البشرية، أو بسر التكليف وتقدّم الإيمان بالغيب، فالإنسان الذي أُلقي به في شوق وهجران موقت يظل يهذي في عشقه هذيان المخمور هاتفاً باسمه تعالى طوال عمره، ويحترق بجوى الاشتياق إليه ويضطرم. والأهم من هذا، هو شوق الذات المقدسة بما يوافق استغناءه الذاتي تجاه الأرواح النزيهة

والقلوب الطاهرة والفطر السليمة. وربما المنبع الأصلي للاشتياق الذي يتوقد ويضطرم في الصدور هو هذا الشوق.

الشوق هو توجّه الحواس الظاهرة والباطنة نحو المحبوب مع الانغلاق التام عن كل شهية إلى ما سواه، بينما الاشتياق، هو فيض الرغبات والطلبات نحوه.. وكلاهما من المنابع المهمة لإنماء الروح. وكلاهما مؤلمان ولكن يورثان الانشراح، يضايقان ولكن يعدان بالأمل.

ليس في الناس أكثر قلقاً واضطراباً ممن يحترق بالعشق ويئن بالشوق، ولكن في الوقت نفسه لا أسعد منه. فإنه بتوق الوصال يصبح روحانيا بانتشاء وهيجان إلى حد لو قيل له: ادخل الجنة، ربما لا يدخلها. وهو يحترق من لوعة الفراق احتراقاً لا يطفئه حتى كوثر الجنة، إلاّ وصال المحبوب. ومع هذا لا ينصرف ذهنه قط إلى التخلص مما هو فيه من عذاب كعذاب جهنم. بل لو حالت قصور الجنان بينه وبين شوقه واشتياقه لاستغاث كما يستغيث أهل النار من النار.

الدنيويون من الناس، لا يدركون الشوق ولا أهله، وأهل الشوق كذلك يتحيرون من هؤلاء الغافلين الذين أضاعوا أنفسهم في متاهات الدنيا، ويرتعشون إشفاقاً على حالهم. فقد "أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: لو يعلم المُدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ..".[1]

فعندما يحيط الشوق كاللهب كيان الإنسان كله يهتاج العاشق بمشاعر

---

١) الرسالة للقشيري ٤٩٥.

الاضطراب واللذة ويصرخ:

اَلشَّوْقُ حَيَّرَنِي، اَلشَّوْقُ أَحْرَقَنِي   اَلشَّوْقُ فَرَّقَنِي بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

اَلشَّـــوْقُ قَرَّبَنِيَ الشَّوْقُ أَغْرَقَنِي   اَلشَّـــوْقُ أَقْلَقَنِي اَلشَّوْقُ أَدْهَشَنِي

وأحياناً ينعكس انفعال الروح هذا على البدن، فيدفعـــه إلى الـــرقص، والقيام بالسماع. ففي مثل هذه المواقف يعدّ العاشق معذوراً لغلبة الحال على إرادته.

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْوَجْدِ أَهْلَهُ   إِذَا لَمْ تَذُقْ مَعَنَا شَرَابَ الْهَوَى دَعْنَا!

إِذَا اهْتزَّتِ ٱلأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللِّقَاءِ   تَرَقَّصَتِ ٱلأَشْبَاحُ يَا جَاهِلَ الْمَعْنَى!

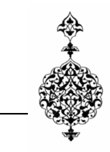
فَيَا حَادِيَ الْعُشَّاقِ قُمْ وَاحْدُ قَائِمًا   وَزَمْزِمْ لَنَا بِاسْمِ الْحَبِيبِ وَرَوِّحْنَا!

والشوق في طريق العجز والفقر هو عدم الفتـــور في خدمـــة الايمـــان والقرآن، وعدم الوقوع في اليأس حتى لو تعرض لما يبدو أســـوأ المواقـــف وأقبحها، إذ يمتعض ويحزن ولكن بملاحظة: "لعل للحق سبحانه أثر رحمة في هذا"، ينتظر بأمل وبثقة مطلقة بالله. هذا الشوق هو أحد الأبعـــاد الأربعـــة والأعماق الأربعة لأرباب تلك الخدمة اليوم.

اللّهم إنّا نسألك شوقاً إلى لقائك.

وصلّ وسلم على سيدنا محمد سيد المشتاقين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الجذبة والانجذاب



الجذبة هي الجلب وشدّ الشيء إلى غيره، الغيبة عن النفس والنشوة الروحية. وفي اصطلاح التصوف: أخذ الله السالك إلى حضرته، وحال الوجد الناشئ منه، واتصاف السالك بالصفات الإلهية - أي بالأخلاق الإلهية القرآنية - منسلخاً من الصفات البشرية، وإدراكه الوحدة من وراء التجليات الجلالية واستشعارها أو مشاهدتها، بحيث إن الروح الطاهر والمستعد ليعكس هذه التجليات يلقي بنفسه في خضم الأمواج العاتية الآتية من الغيوب، باستسلام عميق دون خوف ولا وجل ولا قلق ولا اضطراب كالسابح الجيد المتمرس، وأحياناً يسبح دون انقطاع في شوق وطرب.

إن كانت الجذبة جلباً مرتبطاً بذات الإنسان وشداً للسالك بقوة قدسية إلى المركز نحو غاية خَلقه والأفق الذي تشير إليه بوصلة ماهيته، فالانجذاب هو استجابة الروح لهذه الدعوة الواردة، طوعاً دون مقاومة بقوله: " أَتَيْنَا طَائِعِينَ".

الجذبة، موهبة عظمى وحظوة كبرى، لا يمكن أن تُكتسب بالأسباب العادية. والسبب الوحيد لهذه الحظوة هو جبر مقدس واختيار مبجّل. أجل، إن الاستعداد في الروح والصفاء في القلب اللذين يحتضنان الجذبة، وكذا

تشريف هذه الفطرة النـــزيهة المشتاقة للمعالي بموهبة ثانية، كلاهما يعـــودان للحق تعالى. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء﴾ (الحديد:٢١). نعم، الفضل منه فهو الذي يُدخل أجزاء الزمان العظيم وما فيه من شـــؤون في آن ســـيال.. فيمنح الخطوة الواحدة القدرة على بلوغ الجنان.. ويهب النظرة الواحـــدة قابلية تُحوِّل الفحمَ ماساً.

إن ما يبدو قطعه محالاً بإرادة الإنسان من المسافات الطويلة جداً والمرتفعات الشاهقة يتحقق بجذب الحق سبحانه ورفعه، بحملة واحدة وبنفحـــة واحـــدة، كالمعراج. وقد قيل إشارة إلى هذا، كلام طيب هو: (جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ تُوَازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ)،[1] أي القرب الحاصل من أعمال الثقلين.

فالمنجذبون بجاذبة الحق، يدركون في أرواحهم، أسرار الإيمان والإسلام والإحسان، ويُطلق على مشربهم "المشرب الأويسي".. حيـــث إن جميـــع مشاعر هؤلاء وتفكرهم وحواسهم وسلوكهم - بفضل انجـــذابهم بتلـــك الجذبة المقدسة - تمضى دائماً في استغراق وحيرة.

وتتشكل أحياناً "دائرة صالحة" كـــ"الدور" بـــين الجذبـــة والرياضـــة والعبادة. فسالك الحق يكرَّم بالجذبة بمقدار عبادته ورياضته، وبمقدار جذبته ينقطع إلى الرياضة والعبادة. وطالما الحركة هي وفق ما تشير إليه إبرة الموازين الشرعية، يستمر هذا التعامل وهذا التسلسل الولود. وبخلافـــه أي بمقـــدار ابتعاده عن الإقليم النوراني لمشكاة محمد عليه أكمل التحايا، يجابه بحـــالات ظلمانية في "دوائر فاسدة"، من بروز التباسات متنوعة و ظهور أشكال من

---

١) كشف الخفاء للعجلوني ٣٩٧/١.

الإهمال واللامبالاة والاستخفاف بموازين التكاليف الشرعية.

الجذبة استعداد وموهبة أولى قبل كل شيء. فلو لم يكن عطاء الله الجبري الأول هذا، لما كسب سالك الحق الجذبة ولا الانجذاب بمجرد الرياضة والعبادة والتزكية، ولما شاهد ولا أدرك تموجات الجذب والانجذاب على وجه الكائنات الحاصلة بالنور المترشح من اسم الله "الودود". فمثلما لا يصح إطلاق "لا شيء" إلى مثل هذا السالك، من الصعوبة إطلاق أنه "شيء ذو قيمة" أيضاً.

ما حيلة الشيخ معي إن لم تكن جذبة العشق

ما حيلة الشيخ معي إن لم يرد الإلهام من الحق

(يونس)

الجذبة تجعل الإنسان أحياناً مستغرقاً في محيط الفيض الإلهي، قد دفن الدنيا والعقبى وعلاقته بهما في نسيان عجيب حتى لا يستطيع أن يرى غير تجلياته سبحانه. يقول "معلم ناجي":

جذبة أُعطيتها كأنها هدير البحر

حتى ظننت خيالي بحر الفيض الإلهي

يقول هذا ويرى نفسه والأشياء جميعها مثله في نشوة سكرى بجذب ذلك الجذّاب المقدس.

نعم، "إن كل الناس وكل شيء نشوان بجذبة المحبة الإلهية وبشراب المحبة.. فالفلك نشوان، والملك نشوان، والنجوم نشاوى، والسموات

نشاوى، والشمس نشوى، والقمر نشوان، والأرض نـــشوى، والعناصـــر نشاوى، والنباتات نشوى، والشجر نشوى، والبشر نشوان، والأحياء كلها جميعا نشاوى".[1]

والجذبة على نوعين:

١- خفية: وهي أن المجذوب يحبّ الحق سبحانه، ويتلذذ بلـــذة غـــامرة وهو يأتمر بأوامره، ويشعر دوماً أنه ينجذب ليغترف مـــن أعمـــق منـــابع اللذاذات.

٢- جليّة: وهي أن المجذوب في كل آن ينبسط أكثر ويتسع، ويكـــسب حالاً أكثر سحراً. ويشعر بإدراك عميق وحدس مبصر أنه منجذب بجـــذب ذلك الجاذب المطلق إلى دنيا ذات أسرار تفوح بعطـــر الأنـــس والحـــضور والاطمئنان، وهكذا يفني عمره مجذوباً. فالذين يجهلون الحال، يـــرون منـــه تلونات في حياته فيظنونه مجنوناً دون شك. وللتعبير عن هذا الحـــال وهـــذا الالتباس للســـيد عبد العزيـــز مجدي شـــعر غزلي أردفه بجنون وهـــو ذو مغزى عميق:

"جنون سَمّوه جذبة بل هو فوز مأمون، فمن ها هنا تعتلى القمم أسرار الجنون".

نعم إن للجذبة جوانب شبيهة بالجنون ظاهراً، ومع هذا فهما شيئان في غاية الاختلاف. فإدراك المجذوب بتحوله من حال إلى حال بتجليات الجذبة، إما أنه يزلّ إلى ما دون إدراك البشر الاعتيادي ويهوي، حيث يبدأ ظهـــور

---

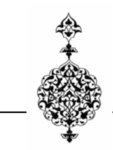
١) الكلمات، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثاني، الرمز الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي.

حالات لا تنسجم والشريعة الغراء والعقل القويم والحس السليم، أو يرتفــع متجاوزاً المستوى الاعتيادي للناس، فيبلغ ذروةً تفوق مستوى البشر، بحيث إنه لدى سياحته إلى ما بعدها يطير إلى الخلود حاملاً مشعل السنة المطهــرة متقدماً الحس والعقل، ولكن يظنه المشاهدون مجنوناً.

هيهات! أين الجنون الذي هو سقوط تحت مستوى العقل وأين الــسير قدماً أمام العقل والحس برفاقة التوفيق الإلهي.

اللّهم إنّا نسألك موجِباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتك والسلامةَ
من كل إثم والغنيمةَ من كل برٍّ والفوزَ بالجنة والنجاة من النار.
وصلِّ اللهم على سيدنا سيد الأبرار والأخيار.

الدهشة والحيرة



إن سالك الحق الذي يجول في وديان العشق والشوق، يحترق أحياناً بنار العشق، وأخرى يشرب ما يقدمه الحبيب من شراب الخلود فينفعل بالشوق والطرب. فعندما يسيح محترقاً يئن قائلاً: "أيها الساقي اسقني ماءً قد احترقت بنار العشق"، وحينما يرنو باشتياق إلى باب الحبيب المنفرج يقول متوسلاً: "لقد غمست إصبعي بعسل العشق فاسقني ماءً" ويطلب المزيد.

وطالما بقي في السالك، التفكر في السفر، القلق على الدنيا، مراقبة المسافات، أو بتعبير آخر، لحين تجاوز السالك تجلى الأسماء والصفات و"لحين" تشرفه بتجلي الذات الجليلة.. إلى هذا "الآن" يذوق النار والشرب والاحتراق، فيأخذ نصيبه من فرجات الأستار ﴿وَسَقَيهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١) ويستمر البحث عن "المزيد" في وديان المعرفة. فكل وارد جديد في مثل هذا الصدر يفتح منافذ اشتياق جديدة.. وتسيل الأنوار من كل منفذ على عين السالك وقلبه فتعمل مشاعره وفكره عمل المكوك بين الأشياء وقلبه، ناسجةً مخمل معرفته.

نعم، كما يفتح النحل سبيلاً للأزهار كي تتحول عسلاً في خلاياها، كذلك السالك يحمل أزهار تجليات الأسماء والصفات الإلهية إلى قلبه، ويمررها من أنابيق

الوجدان السديدة، حتى يشعر كأن أهدابه تذهب وتتعلق بحزم نور الصفات.. فيردد: "الذات".. ويطلق عنانه للحيرة والدهشة.

يقول "صاحب كلستان" وكأنه يعبّر عن حال السالك بين النار والشرب بموسيقى الدهشة والحيرة:

دِيدَارْ مِي نُمَايِي وپَرْهِيزْ مِيكُنِي   بَازَارِ خُوش وآتَشِ مَا تِيزْ مِيكُنِي[1]

أُشَاهِدُ مَنْ أَهْوَى بِغَيْرِ وَسِيلَةٍ   فَيَلْحَقُنِي شَأْنٌ أَضِلُّ طَرِيقًا

يُؤَجِّجُ نَارًا ثُمَّ يُطْفِى بِرَشَّةٍ   لِذَاكَ تَرَانِي مُحْرَقًا وَغَرِيقًا

ويقول "إسماعيل حقي البروسوي":

اَزْ (سَقَيهُمْ رَبُّهُمْ) جُمْلَه ابْرَار مَسْت

دَرْجَمَالِ لا يَزَالِي هَفْتُ وَپَنجُ وَچَارْمَسْت

"انظر وشاهد فقد سحر "سَقَيهُمْ رَبُّهُمْ" الأبرار قاطبة، السبعة والخمسة والأربعة كلهم نشاوى من ذلك الجمال اللايزالي". وقد أظهرهم البروسوي ببيانه الساحر أنهم مخمورون دائماً. وهذا نظر من زاوية أخرى.

ولكن سالك الحق في أثناء تجواله في وديان الدهشة والحيرة، إن لم تكن موازنة القلب معيَّرة تعييراً وفق العالَمَين معاً، فإن السُكر والغيبوبة، وفَقْدَ الموازنة والطيش وبدوره الكلام والسلوك المخالف لروح الشريعة أمر

---

١) أي: "بحسنك تغريني وتطلب عصمتي   ونار الهوى تذكي وتأمر بالتقوى" (من ترجمة محمد الفراتي "كلستان" روضة الورد ٩٣). كليات سعدي، قسم الغزليات، الغزل رقم (٦٢٣) ص ٦٤٢ الطبعة الثامنة بتحقيق محمد على فروغي، مطبعة سثهر، طهران.

حتمي... أي عندما تحلّق المشاعر في أجواء الحال و لم يكن المنطق والمحاكمة العقلية مرتبطة بمشكاة النبوة، و لم تكن السياحة في ظل الحقيقة الأحمدية ﷺ.

وما أجمل ما عبّر الملا جامي عن الدهشة والحيرة بكلامه الساحر الملفـــع بالجمال والصدق:

زَنَانِ مِصْرِي بَهَنْگَام جِلْوَهٔ يُوسُف

زِ رُويِ بِي خُودِي اَزْ دَسْتِ خُودْ بَبَرِيدَند

مَقَرَسْت كِه دِل پَاره پَاره ميكَرْدَنْد

اگَر جَمَالِ تُوای نُورِ دِيدَه مِي دِيدند،

زِ خُوبي تُو بَهَر جَا حِكَايَتِي مِي گُفتَند،

حَدِيثِ يُوسُفِ مِصْرِي فُسَانه اِي بَاشَد

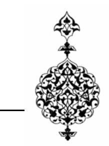
"إن نساء مصر عندما رأين جمال سيدنا يوسف ﷺ أكبرنَه وغِبن عـــن أنفسهن وقطّعن أيديهن من الحيرة والدهشة. فلو كن قد رأين جمالك يا نور عيني ويا سيدي، لكُنّ أنـــزلنَ سكاكينهن التي في أيديهن علـــى قلـــوبهن. ويظل جمال سيدنا يوسف ﷺ خافتا عندما يذكر جمالك".

فإن كانت أنواع الجمال والحسن الدنيوية -وهي غير ذاتية وفانية- تُفقـــد الإنسان عقله على هذه الصورة، فكيف بمشاهدة ومكاشفة جمال ذات جليلـــة، الذي جميع أنواع الجمال والكمال ما هي إلاّ ظلال ظلال جماله وكماله المقدس المتحجب بسبعين ألف حجاب. وأعتقد أن إدراك مثل هذه الحيرة والدهشة لا يتيسّر إلاّ بصعوبة بالغة على أمثالنا من الفانين.

إن رجال الدعوة، من زاوية خدمة الايمان والقرآن، ووضعهم جانباً جميع أذواقهم، المادية والمعنوية، الجسمانية والروحانيـــة، بعيـــداً عـــن الأنظـــار والأسماع، وتوجههم لمشاهدة جلوات العناية الإلهيـــة في وجـــه خـــدماتهم الإيمانية.. فيزخرون حيرةً وإعجاباً.. وكذا تَنَقّلهم بين واجبـــاتهم الإيمانيـــة والعناية الربانية وانغلاقهم - إلى حد - عن كل ما هو خارج عن دعوتهم، ما هو إلاّ موهبة حيرة خاصة من خزينة "نَحْنُ قَسَمْنَا" الخاصة لجنود النور.

اللّهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً ومن خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً وصلّ وسلّم على من أرسلته نوراً وعلى آله وأصحابه أجمعين.

القبض والبسط



"القبض والبسط" يدخلان في مدار حياة أي إنسان في أي مستوى كان وبأبعاد مختلفة ويستحوذان عليه، يتعلقان بكل فرد يحيا بشعور مستشعراً بالحياة.

القبض أو الانقباض هو الانطواء والانكماش، وحالة انتزاع الروح، أو انقطاع الفيوض المعنوية للإنسان، ارتخاء علاقته الوثيقة مع منبع الفيض الأبدي لما في ماهيته من ثغرات وبقاؤه في فراغ إلى حدّ ما في حين ينبغي أن تكون رابطته وثيقة معه.

أما "البسط"، فهو مدّ، انفتاح، عرض، توسع، انشراح وابتهاج، أو ارتفاع الإنسان إلى نقطة يكون وسيلة رحمة في الوجود إلى حد استيعابه الأشياء، توسع القلب وانشراحه، سمو الذهن إلى حيث يتمكن من حل أكبر المعضلات.

إن كلاً من الخوف والرجاء طور إرادي، ومنزل أوّلي ونقطة بداية لسالك الحق، أما القبض والبسط فهما معاملة ذات أسرار في الحدود النهائية بعيداً عن بعض الأسباب الإرادية، فإما يقطعان السبيل على سالك الحق أو يرفعانه ويحلّقان به.

نعم، إن كان الخوف والرجاء، هو إحساس بالقلق أو نشوة أمل مما

يُحَب أو يُكرَه فيما يخص المستقبل؛ فالقبض والبسط، نبض القلب بالنشوة أو إنكماشه بالقسوة فيما يخص الحاضر، بتأثير موجات ترد عليه مختلفة في الطول واللون.

إن ما يفيده القبض لمن يجولون في ربوع المعرفة، يفيده الخوف للذين هم ما يزالون في الطريق، وما يفيده البسط لأولئك، يفيده الرجاء لهؤلاء.

القبض والبسط بيد الله سبحانه كما في قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ (البقرة: ٢٤٥) بغض النظر عن التأثير النسبي للإرادة الإنسانية التي لها ماهية اعتبارية. فكما أن الوجود كله في قبضة تصرفه سبحانه، كذلك يدير متى يشاء، وكيف يشاء كل شيء من السموات إلى قلب الإنسان. وحديث الرسول ﷺ يذكّر بهذا: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ).[١]

فالله سبحانه متى شاء يقبض القلوب قبضاً يغرقها في حاجات شتى حتى لا يمكن أن يدفع تلك الحاجات غيره تعالى، وإذا شاء يبسطها لمن يريد بسطاً واهباً لهم انشراحاً لا يشعرون معه بحاجة إلى أحد.

القبض جلالي والبسط جمالي: ففي أحدهما تظهر العظمة والكبرياء بسر "الواحدية"، وفي الآخر تتبين الرحمة وتجلي التنزل. ففي أحدهما اقشعرار الأبدان أمام القدرة التي تدير الوجود كله كحبات المسبحة من الذرات إلى المجرات؛ وفي الآخر نفحات "الأُنس" تكرمة للأرواح الوجلة من الحيرة والدهشة أمام هذه العظمة التي تواضع لها كل شيء وهذا الجبروت الذي ذلّ له كل شيء.

---

١) مسلم، القدر ١٧؛ ابن ماجة، الدعاء ٢؛ المسند للامام أحمد ١٦٨/٢.

بيد أن كل شخص لا يشعر بهذا التجلي وبهذه التكرمة في المستوى نفسه، ذلك لأن تجليات القبض والبسط تتناسب طردياً مع سعة صدر الأشخاص وضيقها. نعم، إن ما يشعر به شخص عامي من ضيق صدره أو انشراح قلبه، ليس كما يشعر به ذو القلب اليقظ المتفتح إلى الماوراء المترع بالانفعال والخشية، المشحون بشعور أنه يراقب من فرجة باب، فيعتريه الانبساط والنشوة في مواضع والقلق والاضطراب في أخرى.

القبض والبسط أيضاً ككل شيء تحت تصرف الخالق العظيم، يتعاقبان كتعاقب الليل النهار والنهار الليل. فإن الإرادة الإلهية - مع ملاحظة أن الأسباب شرط عادي - تضيّق شرائح القبض والبسط وتبسطها، دافعةً الإنسان إلى توترات وانقباضات أو تهيجه بالأفراح والمسرات. نعم، الإنسان أحياناً يقطع شريحة زمان واسع جداً، من دون أن يقع في قبضة القبض، يحلّق كالطيور في الهواء. وأحياناً أخرى تضيق حالات القبض فتتوسع شرائح القبض حتى لكأن الإنسان يتدحرج من فراغ إلى فراغ. فيتكدر الروح وينكفئ الإنسان على نفسه.

كما أن عدم القدرة على إعطاء المقام -الذي هو هبة إلهية- حقه أحياناً، يكون وسيلة قبض، فكثيراً ما تأتي الذنوب مرافقة لحال القبض. وعلى هذا يجب أن تكون حالة القبض وسيلة إيقاظ للمؤمن كل حين. فلا بد من اتخاذ الحذر من الغفلات، والقيام بإزالة الذنوب والآثام بالتوبة والحسنات، وتوجيه بصيرة القلب مرة أخرى إلى الغيوب.

في مقابل القبض الذي يرد مصحوباً بنغمات العدم والحيرة والهلع

واللاشيء، يتجلى البسط بأشكال النشوة والسرور والشطحات. وعلى هذا فالبسط ربما يكون سبباً للانخداع والضياع لقسم من الأرواح الهزيلة التي لم تتفتح بعد لمشاهدة الغيوب ولم تعيّر أجهزتها وفق الحياة الأخروية. ويصدق هذا أيضاً على حال القبض، ولكن ليس بمقدار البسط بلا شك؛ ذلـــك لأن المتضايق بالقبض يقول كل آن بوجدانه "لا تدعني يا إلهي وشـــأني فأنـــا لا أستغنى عنك" فيتجاوز جيوب الهوى كما تخترق الأجسام جيوب الهـــواء. فيتكامل بعنايته تعالى، ويمكن أن يصل في تلك البرهة الزمانية القاسية إلى ما لا يوصل إليه بحال البسط.

لذا عدّت حالة القبض فصلاً من فصول التيقظ للناس أجمعين مقابل مـــا في حالة البسط من غفلة وتراخ لبعض الأرواح.

وكذلك فالقبض الذي يَرِدُنا نتيجة تقصيراتنا وغفلاتنا، قد يكون مقدمة لبسط آت؛ والبسط الذي يؤدي إلى الشطحات والتراخي ربما يكون ســـبباً لقسم من أنواع القبض المهلك.

والمؤمن الحق، هو الذي يقيّم كل حال ضمن إطاره الخـــاص ويعـــرف كيف يستثمره.

القبض والبسط تجليان منه تعالى للعارف
فالقبض والبسط مدعاة شـــكر للعارف.

اللّهم اشرح صدورنا للإسلام وثبت قلوبنا على الإيمان.
وصلّ وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الفخام.

الفقر والغنى



الفقر هو العوز، عدم التملك لما يُحتاج إليه. ولدى أربابه هو التخلي قلباً عن الوجود كله، سوى البقاء ضمن العلاقة بين العبد والمعبود، واستشعار الحاجة إلى الله وحده والعيش في شعور الاستغناء نحو الوجود. فأهل التصوف يفهمون الفقر هكذا. فمثلما أن هذا ليس هو بمعنى الفقر لدى الناس الذي يعني الحاجة والعوز، فهو ليس كذلك عرض حاجاته إلى الناس بالتسول.

الفقر هو التوجه مباشرة إلى الأحد الصمد بقطع العلاقة مع كل موجود غير ذاتي. ولهذا فبمقدار ترك الإنسان جميع الفانيات الزائلات قلباً وفنائه في الصفات والذات الألهية يبلغ الفقر ويتقلد الفخر بمضمون "الفقر فخري".[1] وقد عُبّر عن الفقر في قول قدسي بأنه عندما يصل إلى بُعدٍ للإيمان والإذعان، تمحى جميع الإرادات والمشيئات والقوى ولا يبقى إلاّ حول الله وقوته.. فلو ملك هذا الشخص ملء الأرض ثروة وغنى، يفترضها كلها خيالاً لأنها زائفة زائلة، فلا يرى إلاّ هو سبحانه، ولا يدرك إلاّ هو، ولا يفكر بشيء إلاّ هو، ولا يثق بأحد إلاّ به مستشعراً عجزه وفقره فلا يلجأ إلاّ إليه ولا يبالي بغيره

١) كشف الخفاء للعجلوني ١١٣/٢.

قط. وما أجمل ما قاله المرحوم "نابي":

لا تستصغرن الفقر يا نـــابي

فالفقر مرآة صورة الاستغناء.

ولمولانا الرومي:

اَلْفَقْرُ جَوْهَرٌ وَسِوَى الْفَقْرِ عَرَضُ   وَالْفَقْرُ شِفَاءٌ وَسِوَى الْفَقْرِ مَرَضُ

اَلْعَـــالَمُ كُلُّهُ سُـــدًى وَغُـــرُورُ   وَالْفَقْرُ مِـــنَ الْعَالَمِ سِـــرٌّ وَغَرَضُ

وفي الحقيقة أن الإنسان عاجز وفقير ومحتاج حتى لو لم يحدس الإنـــسان بشعور الإيمان عجزه وفقره واحتياجه، ويقول الله سبحانه لبيـــان وضـــعه الطبيعي هذا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـــدُ﴾ (فاطر: ١٥). نعم، كما أن الإنسان كان محتاجاً إلى ترجيحه سبحانه وتقديره ومشيئته لأجل إخراجه من "ممكن الوجود" إلى نور الوجود فهـــو محتـــاج كذلك إلى فيض وجوده في كل لحظة، لإدامة وجوده.

إن فقر الإنسان واحتياجه ليس سبباً لذلّه. بل هو وسيلة لعزته بمقـــدار استشعاره بفقره. لأن الفقر والحاجة إلى الله وهو الغني المطلق، هـــو الغـــنى بعينه. نعم، إن الإنسان يتجه إليه تعالى بشعوره بنقطتي الاستناد والاستمداد في وجدانه والإحساس بهما، فيبلغ بنسبة استشعاره هذا إلى أن يدرك" أنـــه ليس محتاجاً إلى الغير". فمثل هذا الشخص بينما هو فقير كليـــاً لا يـــشعر بحاجة لأي أحد ولا لأي شيء. وفقير كهذا أيضاً يدرك أن وجود كل شيء ووجوده أيضاً، من الله سبحانه، ويعدّ كل ما يملكه هو ما هـــو إلاّ ظـــلال

ضياء وجوده سبحانه. وعندما يصل الشعور بالتوحيد إلى هـذا المـستوى يسمى بـ "الفناء في الله" وبعد خطوتين هناك "البقاء بالله". يقول المرحـوم "خيالي":

يتدثرون الفقر...
ويفتخرون بهذه الثياب...
ولا يأبهون بالديباج والحرير...

الفقر، شعار الأولياء، حال الأصفياء، أبرز علامة على محبة الحق سبحانه.

الفقر، سرّ يضعه الحق سبحانه تعالى في قلوب أوليائه، فتُعمّر بنوره.

الفقر، مفتاح نوراني يفتح بصيرة الإنسان إلى خزائن الحق سبحانه التي لا تنفد، وَمَن مَلَكَ هذا المفتاح فهو أغنى العالم.

الفقر، باب الغنى، فالذين يمرون من هذا الباب، يصلون كنوز "مالـك الملك" فيجدون الفقر عين الغنى، ولهذا يصح أن نقول كما قال الجنيد الغنى هو الفقر قد بلغ الكمال.[1]

نعم عندما يكتمل الافتقار إلى الله يوصل إلى الغنى المطلق. وإذا ما وصل إلى الغنى فلا يشعر روح الإنسان بحاجة إلى شيء آخر، ولعل هذا يقـصد بالمثل "الغنى هو غنى القلب".

نعم، الإنسان إذا بلغ إلى هذا الغنى يصبح كأنه مالك لبطاقة الاعتمـاد المقبولة في كل مكان. فالذي يملك مثل هذا الرأسمال ذي الأسـرار لـيس

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٤١٨.

ضعيفاً ولا فقيراً. هذه الحقيقة الجديدة يبينها كلام قديم نذكره من باب أيّ شيء أفضل من العدم:

منه القوة فنحن أقوياء

وباسمه نحن كرماء

نسير ونتخطى الذرى

تذلل لنا الصعاب

بلا مال فنحن أثرياء

به أصبحنا أعزاء

التفكر مسلكنا

كل رطب ويابس عرفان لنا[1]

اللّهُمَّ تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ، عَظُمَ حِلْمُكَ فَغَفَرْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ، بسطتَ يدَك فأعطيتَ فلك الحمد، ربنا وجهُك أكرمُ الوجوه وجاهُك أعظم الجاه وعطيتُك أعظمُ العطية وأهناها تطاعُ ربَّنا فتَشكُر وتُعصى فتَغفر وتُجيب المضطرَّ وتَكشف الضُّر وتشفي السقيم، وصلِّ وسلِّم على سيدنا وسيد العالمين محمد الهادي إلى صراط مستقيم وعلى آله وأصحابه المخلِصين المخلَصين.

١) المضرب المكسور للاستاذ محمد فتح الله گولن (تركي) ٤٤-٤٥.

فهرس

صدر للمؤلف الكتب الآتية باللغة العربية

١. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الاسلام

٦. طرق الارشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين او أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

١٣. ونحن نبني حضارتنا

١٤. ملامح الجيل المرتقب

www.ar.fgulen.com